مِنْ هَدْيِ السُّنَّةِ فِي الدِّينِ وَالْحَيَاةِ

تأليف
الدكتور محمد بن محمد أبو شهبة

جمع وإعداد وتقديم
الشيخ أحمد مصطفى فضلية
شيخ معهد محلة دياي الأزهرية

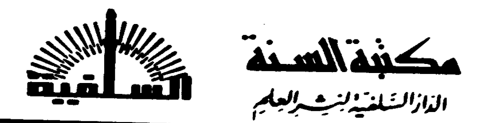
تقديم
الدكتور العلامة
موسى شاهين لاشين
رئيس قسم الحديث بجامعة الأزهر سابقًا
ورئيس لجنة السنة
بالمجلس الأعلى للشئون الدينية بوزارة الأوقاف

مكتبة السنة

الطبعة الأولى لمكتبة السنة - بالقاهرة
١٤٢٧ هـ = ٢٠٠٦ م

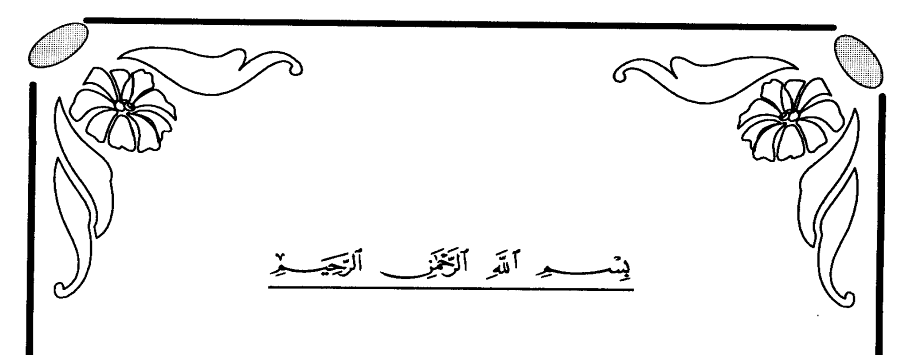
مكتبة السنة
بالقاهرة

رقم الإيداع : ١٦٦٨٩ / ٢٠٠٦
دار نوبار للطباعة



القاهرة : ٨١ شارع البستان - ميدان عابدين ،ناصية شارع الجمهورية،
تليفون : ٣٩٠٠٣١٨ - ٣٩١٣٥٣٢ فاكس : ٣٩١٣٥٣٢ - تلكس: ٢١٧١٩ TLTHRB UN
ص . ب : ١٢٨٩ - الرمز البريدى : ١١٥١١

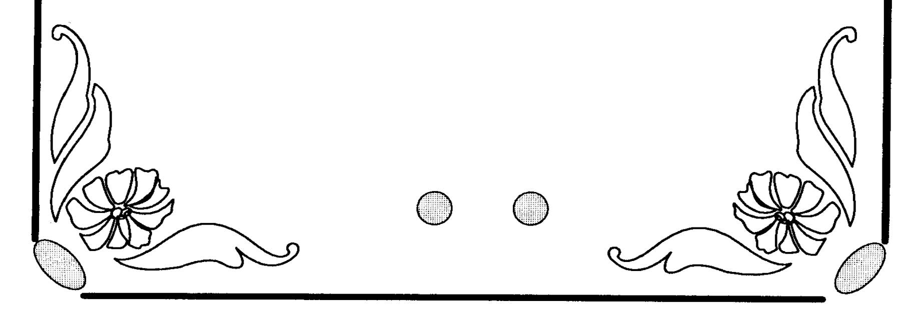




بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إهــــداء

إلى المُنَادِينَ بالإصلاحِ
من الدُّعاةِ المربين
والمُصْلِحِين الفاهمين
والوُعَاظِ المُرْشِدين
نُقَدِّم هذا الزَّاد
من الهَدْي النبوي.



من الدُّسْتُور الإلهي

* ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [سورة النحل ، الآية : ٤٤] .
* ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [سورة النحل ، الآية : ٨٩] .
* ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [سورة النساء ، آية : ٨٠] .
* ﴿فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [سورة النساء ، الآية : ٥٩] .
* ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [سورة الأحزاب ، الآية : ٢١] .
* ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ﴾ [سورة الحشر ، الآية : ٧] .
* ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سورة الفتح ، الآية : ١٠] .

من مشكاة السنة

* عن أبي هريرة – رضي اللّٰه عنه – : عن النبي ﷺ قال : « دَعُوْني ما تركتكم ؛ فإنَّما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم ؛ واختلافهم على أنبيائهم ؛ فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بأمر فَأْتُوا مِنْهُ ما اسْتطَعْتُمْ » . [متفق عليه] .
* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « والَّذِي نَفْسُ مُحَمَدٍ بيده ، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصرانيّ ، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسلت به إلا كان من أصحاب النار » . [أخرجه مسلم] .
* عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « فَوَالذي نفسي بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحَب إليه من والدِه وولده » . وفي رواية عن أنس ؛ بزيادة : « والناس أجمعين » . أخرجه البخاري – واللفظ له – ومسلم .
* « إني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا بعدي أبدًا : كتاب اللّٰه وسنة نبيه » [رواه الحاكم عن ابن عباس بسند صحيح] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم

الحمد للّه رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن اتبع هداه إلى يوم الدين ، أما بعد :

فقبيل منتصف القرن العشرين كنت في السنة النهائية بكلية أصول الدين ، فأسعدني أن أتلقى مادة علوم القرآن من أستاذي الفاضل الدكتور محمد محمد أبو شهبة في باكورة تعيينه مدرسًا ، فكان مثلًا أعلى لنا في اعتزازه بنفسه وبعلمه وبخلقه ، وتعلمنا منه الكثير والكثير .

وبعد ما يقرب من عشرين سنة سعدت بزمالته في كلية الشريعة بمكة المكرمة ، فزدت حبًا له وتقديرًا ، وكان مثلي الأعلى في التواضع والصلاح وثروته العلمية التي مالت إلى شرح الحديث الشريف مع أن تخصصه التفسير وعلوم القرآن والحديث وعلومه .

وأعجبني إسهامه آنذاك ببرنامج خاص لشرح الأحاديث النبوية في الإذاعة المرئية والمسموعة بجدة ، وما تمنيت خيرًا وما غبطت مخلوقًا على نعمة كما تمنيت يومها أن أنال شرفًا مثل شرفه ، وتقديرًا وتكريمًا مثل تقدير الناس له وتبجيله وتكريمه .

ومضت الأيام ، ولقي ربه ، نسأل اللّه له حسن المثوبة وموفور الرحمة ومنازل الصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا .

وسرنا من بعده على دربه ، وشاء اللّه أن يتوجه الشيخ أحمد مصطفى فضلية القائم على إحياء تراثه ليطلب مني التقديم لكتاب من متنوعات كتاباته التي لم تُجمع في كتاب من قبل ، واختار له اسمًا جامعًا فأسماه : « من هدي السنة في الدين والحياة » .

وعنوانه واضح الدلالة على الهدف منه وعلى مضمونه ، تصفحت الكتاب فإذا هو باقة منتقاة نسقها خبير عليم ، هي في أصولها وذاتها طيب ومسك وجمال زادها المؤلف بحسن العرض وإبراز المحاسن نورًا على نور ، وأثار ريحها الكامن فعبق وملأ نفوس من يطلع عليها تأثرًا وفهمًا وحبًا .

إن حسن الاختيار ثم تنسيق ما تختار وترابط المنوعات وتدبر المدركات وشرح وتحليل المبهمات وإزالة الشبه عن المتشابهات صناعة الخبير ، وميزة الحبير ، وقد كان

أستاذي رحمه اللّه تعالى يجيد كل ذلك .

لقد بدأ كتابه بنبذة عن السنة ومكانتها في التشريع وفي مقام دفاعه عنها غاص في أعماق شبه المشتبهين ، ووجه الأحاديث التي أثارت في نفوسهم الشكوك توجيهًا علميًا دقيقًا مقنعًا ، كحديث : « إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليغمسه كله ثم لينزعه فإن في أحد جناحيه داء وفي الآخر شفاء ، وإنه يتقي بجناحه الذي فيه الداء » . وحديث : « إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبع مرات إحداهن بالتراب » . فربط في شرحهما بين الدين والدنيا .

ومن محاسن علاقاته بربه جل وعلا ونبيه ﷺ أن بدأ كتابه هذا بنسب النبي ﷺ ، وركز على قانون الوراثة العامة والخاصة ، وأن اللّه اصطفاه خيارًا من خيار من خيار ، ثم أتبع ذلك بمعجزة محمد ﷺ المعجزة الخالدة وهي القرآن الذي يشهد له بالرسالة الحقة العامة الخاتمة على مر الزمان .

ثم أتبع ذلك بأحاديث الأسوة الحسنة والاقتداء به ﷺ في شجاعته وتواضعه ورحمته وعفوه وحلمه ، مستشهدًا على ذلك بمواقفه في بعض الغزوات كغزوة الخندق وغزوة الفتح وبمعاملته ﷺ لأزواجه في بيته ، وبمعيشته ونفقته على أهله وزهده ، وحرص الصحابة على حبه وطاعته ، ومسارعتهم إلى رضاه وقبولهم لحكمه واستنبط بعلم وعمق العبر والعظات من هجرته ﷺ .

ثم ساق من هدي النبوة أحاديث الرضا والتآخي وحقوق الإنسان وتضامن المسلمين وتعاونهم على البر والتقوى وعدم تعاونهم على الإثم والعدوان .

وأختم تقديمي هذا بما اقتطفه القائم على إخراج هذا الكتاب من أحد كتب الشيخ إذ قال : « فلتعاهدني – أيها الطالب المؤمن – أن تدرس هذا الكتاب الجليل دراسة إمعان وتدبر ، تبتغي منها العلم والعمل وتطهير القلوب وشفاء النفوس وإصلاح المجتمع وإعادة الإسلام إلى جوهره الصافي لا ابتداع فيه ولا تشويه » .

والله أسأل أن يجزيه عن العلم خير الجزاء .

أ . د / موسى شاهين لاشين

رئيس قسم الحديث بجامعة الأزهر سابقًا

ورئيس لجنة السنة بالمجلس الأعلى للشئون الدينية بوزارة الأوقاف

المقدمة

الحمد للَّه الذي شرح بمعارف عوارف السُّنة النبوية صدور أوليائه ، وروَّح بسماع أحاديثها الطيبة أرواح أهل وداده وأصفيائه ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أوتي القرآن ومثله معه – وهي السُّنة – ففصل بها الـمُجْمَل ، وَوَضَّحَ الـمُبْهَم ، وبيّن المشكل ، وصدق اللَّه العظيم حيث يقول : ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل : ٤٤] .

وبعد :

١ – فإن علم السُّنة النبوية – بعد الكتاب العزيز – أعظم العلوم قدرًا وأرقاها شرفًا وفخرًا ؛ إذ عليه مبنى قواعد أحكام الشريعة الإسلامية ، وبه تظهر تفاصيل مجملات الآيات القرآنية ، وكيف لا ، ومصدره عمن لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى :

فهو المُفَسِّر للكتابِ وإنما نَطَقَ النبيُّ لنا به عن ربه

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « نَضَّرَ اللَّهُ امرأً سَمِعَ مقالتي ؛ فحفظها ووعاها وأدَّاها ، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » . رواه الشافعي والبيهقي ، وكذا أبو داود والترمذي بلفظ : « نضر اللَّه امرأ سمع منا شيئًا فبلغه كما سمعه ، فرب مبلغ أوعى من سامع »[1] وقال الترمذي : حسن صحيح .

٢ – ومن العلماء الذين خدموا السنة النبوية الـمُشَرَّفَة وذبوا عنها مطاعن المستشرقين وأفنوا عمرهم في تبليغها للمسلمين : الدكتور العلامة خادم القرآن والسُّنة محمد بن محمد ابن سويلم أبو شهبة ، فهو من أكابر علماء السُّنة في العصر الحديث ، عاش في رحابها : دارسًا ؛ محققًا ، شارحًا ، فهو منذ صدر شبابه وقف في ساحة السُّنة يرد عنها سهام الكائدين ، وشبهات المضلين ، وافتراءات الحاقدين ، فهو الذي نَقَدَ كتاب « أضواء على السنة النبوية » لمحمود أبو رية ، ودَحَضَ وفَنَّدَ كل مطاعن هذا الكتاب[2] .

---

(١) عن مقدمة أحمد بن محمد الخطيب القسطلاني لكتابه الفذ : «إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري» ، المجلد الأول ، ط٧ ، المطبعة الأميرية ببولاق ؛ مصر سنة ١٣٢٣هـ .

(٢) انظر كتابه – دفاع عن السنة – ط . مجمع البحوث الإسلامية ، وهو كتاب ذائع الانتشار ، وقامت بنشره مكتبة السنة مع زيادات وتحقيقات مفيدة جدًا .

وكان من ثمرات جهاده المبارك في ميدان السُّنة النبوية كذلك كتبه القيمة : « السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة » ، « الحديث والمحدثون » ، « أعلام المحدثين » ، « أصحاب الكتب الستة » ، « الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير » ، « المختار من شرح صحيح مسلم » ، وكتابه الموسوعي الذي لم ير النور للآن : « توفيق الباري في شرح صحيح البخاري » ، ويقع في خمسة عشر مجلدًا كبيرًا ، نسأل اللّٰه أن يوفق أبناءه لإصداره للعالم الإسلامي .

٣- أما الكتاب الذي نقدمه للقارئ اليوم ؛ فهو شرح لأحاديث متنوعة في مناسبات إسلامية وقضايا مهمة .

هذا ، وقد تَوَخَّى الشيخ العلامة في شرح هذه الأحاديث السهولة والإيجاز وطرافة العرض ، وتحاشى المصطلحات العلمية والأبحاث الفنية إلا عند الضرورة ليسهل تناولها ويتسنى فهمها والإقبال عليها .

وركز فيها مع ذلك على إبراز محاسن الإسلام من خلال هذه الأحاديث ، والرد على من يتهمه بالقصور والعجز عن مجاراة التطور والتقيد بزمن معين أو بقوم دون قوم ؛ إذ هو اتهام باطل ، وادعاء كاذب ليس له أساس من الصحة ، فالإسلام دين جامع ونور ساطع يهدي لخيري الدنيا والآخرة ، ويغمر الحياة كلها ، وينتظم الإنسانية بأسرها ، ويسير مع الزمن حيثما سار إلى أن يرث اللّٰه الأرض ومن عليها .

والأدلة على ذلك لا يحصيها العد ، ولا تقف في حصرها عند حد ، فمنها قول اللّٰه تعالى في القرآن الكريم : ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [سورة النحل ، الآية : ٣٠] .

حيث أثبت أنه كفيل بسعادة الدارين .

ومنها قوله تعالى : ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ [سورة النحل ، الآية : ٨٩] .

حيث وصف القرآن الكريم - وهو أول مصادر هذا الدين - بأنه بيان شاف ، وتفصيل واف لكل ما يحتاج الناس إلى معرفته من أمور المعاش وأمور المعاد .

ومنها قوله تعالى : ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [سورة النساء ، الآية : ٥٩] .

فإنه يدل على أن الكتاب والسُّنة - وهما الينبوعان الرئيسان لهذا الدين - فيهما العلاج

لكل مشكلة ، والدواء لكل نازلة ؛ إذ المراد بالرد إلى اللّه الرجوع إلى كتابه ، وبالرد إلى الرسول الرجوع إليه ﷺ نفسه حال حياته ، وإلى سُنَّتِهِ بعد مماته ، و(شيء) نكرة في سياق الشرط ، فيشمل كل شيء دينيًا كان أو دنيويًا[١] .

قال الإمام ابن القيم : إن قوله تعالى : ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ﴾ نكرة في سياق الشرط ، فيعم كل ما يتنازع فيه المؤمنون : دقه وجله ، جليه وخفيه ، ولا يعقل أن يأمر اللّه عباده بالرد عند التنازع إلى من لا يوجد عنده فصل النزاع[٢] .

ومنها قول النبي ﷺ : « إني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدًا : كتاب اللّه ، وسنة نبيه »[٣] .

والسنة النبوية الكريمة هي المرآة الصادقة ، التي تتجلى فيها محاسنه وتبرز فيها معالمه ؛ إذ هي المبينة للقرآن الكريم الموضحة لما فيه ، قال اللّه تعالى : ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ [سورة النحل ، الآية : ٤٤] .

فالقرآن وضع الأصول العامة ورسم الخطوط العريضة لهذا الدين ، وتكفلت السنة بتفصيل مجمله ، وتفسير آياته ، وبسط أحكامه وتوضيح تعاليمه ، فهي صنو القرآن ، ومتممة له ، ولذا أوجب اللّه اتباعها ، ونهى عن مخالفتها ، قال تعالى : ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [سورة الحشر ، آية : ٧] .

ومن هنا كانت عناية المسلمين - عامة ، والعلماء خاصة - بالسنة النبوية ، منذ عهد صدورها عن النبي ﷺ إلى يومنا هذا لا تَقِل عن عنايتهم بالكتاب العزيز ، وإن اختلف نوع هذه العناية ، ولقد آمن العلماء المخلصون الصادقون في العصر الحديث أن يكونوا امتدادًا لعلماء السنة الأقدمين ، وأن من حق السنة عليهم في هذا العصر أن يمهدوا السبيل لفهمها ويحسنوا القيام على عرضها ، ويبرزوا محاسن الإسلام من خلالها ، ويبينوا مدى تجاوبها مع روح هذا العصر ، وما يمكن الإفادة منها في حياتنا الحاضرة ، وأحوال المسلمين الراهنة[٤] ،

---

(١) د . محمد السيد ندا - أضواء من السنة ط١ - ١٣٩١هـ - ١٩٧١م ، دار الطباعة المحمدية بالأزهر - القاهرة .

(٢) انظر الطرق الحكمية في السياسة الشرعية لابن القيم .

(٣) رواه الحاكم عن ابن عباس بسند صحيح .

(٤) بتصرف عن مقدمة الدكتور محمد السيد ندا لكتابه « أضواء من السنة » .

وبصورة عامة أدرك علماء السنة المعاصرون من أمثال محمد عبد اللّه دراز ، والشيخ محمد الأودن ، والدكتور محمد أبو شهبة ، والدكتور موسى شاهين لاشين ، والدكتور محمد السيد ندا ، وغيرهم كثير ، أن يقدموا شروحًا للحديث الشريف تتمشى مع روح العصر ، وتربط بين الدين والحياة .

وهذا ما دعا الدكتور محمد أبو شهبة رحمه اللّه أن يقدم هذه النماذج الحية من توجيهات الرسول ﷺ ، متفقة الهدف في إيجاد المسلم القويم المتدين الناضج الفكر ، وقد أكد الدكتور العلامة في كتابه « شرح المختار من صحيح مسلم »[1] أنه يريد وصل ما كاد ينقطع من الأسباب التي بيننا وبين السلف الصالح ، وإعادة دراسة السنة النبوية المشرفة إلى سالف عهدها جذعة قوية .

ولا سيما وفي السنة المطهرة ما نبتغي من : إيمان وعقائد ، وعلم وعمل ، وحِكَم وأحكام ، ومواعظ وأخلاق ، وسير وتاريخ ، ولغة وبلاغة ، ودين ودنيا .

٤ – ويطالب طالب العلم النبوي بقوله : « فلتعاهدني أيها الطالب المؤمن أن تدرس هذا الكتاب الجليل دراسة إمعان وتدبر نبتغي منها العلم والعمل وتطهير القلوب وشفاء النفوس وإصلاح المجتمع وإعادة الإسلام إلى جوهره الصافي لا ابتداع فيه ولا تشويه » .

هذا ، وقد كان الدكتور العلامة ينشر هذه الشروح لهذه الأحاديث المختارة في مجلة الأزهر في أوائل السبعينات من القرن العشرين ؛ لإيمانه العميق أن الاشتغال بالأحاديث النبوية حفظًا وبحثًا وشرحًا وفقهًا من أجلّ العلوم وأشرفها – بعد الاشتغال بكتاب اللّه – فيقول رحمه اللّه : « إذا كان القرآن هو الأصل الأول من مصادر التشريع في الإسلام ، فالسنة هي الأصل الثاني من أصول التشريع ، فبها يُعرف الحق من الباطل ، والهدى من الضلال ، ومنها نستقي الحِكَم والأحكام ، والمواعظ الزاجرة ، والآداب العالية ، وهي أساس السعادتين الدنيوية والأخروية ، ولا يزال الناس بخير ما قاموا بحقوقها علمًا وعملًا ، وقد أشار إلى ذلك منقذ البشرية ورسول الإنسانية فيما رواه عنه مالك حيث يقول : « تركت فيكم شيئين لن تضلوا ما تمسكتم بهما ؛ كتاب اللّه ، وسنة رسوله ﷺ » .

(١) انظر : مقدمة الجزء الأول .

٥- والهدف الذي تَغَيّاه الشيخ العلامة من شروحه لهذه الأحاديث المختارة أن يتخذ منها المسلم أساسًا صالحًا للاعتقاد والعلم والعمل ، وأن يجعل منها نبراسًا يسير على ضوئه في حياته الخاصة والعامة ، وأن يكون مثلًا صادقًا لما ينبغي أن يكون عليه المسلم ، وبذلك يكون قد أحيا سننًا درست من سنن سلفه الصالح ، فتكون حياته من بعد أقل عابًا وأكثر صوابًا ، فيصبح خير قدوة وأسوة .

هذا ، وقد قمت بتبويب الأحاديث إلى موضوعات ، فجمعت الأحاديث ذات الموضوع الواحد تحت عنوان جامع لها ، فجاء الكتاب مرتبًا على هذا النحو :

١- حول الأحاديث النبوية .
٢- من دعائم النبوة الخاتمة .
٣- من أخلاق النبي ﷺ .
٤- من حديث الهجرة النبوية .
٥- في النبوة الصادقة .
٦- في بناء الأمة المسلمة .
٧- الجهاد طريق العز والتمكين .
٨- في تزكية النفس .
٩- صور مشرقة من البلاغة النبوية .
١٠- من وحي النبوة .
١١- ترغيب الشباب في الزواج .

أدعو اللَّه ألا يحرمني أجر هذا العمل ، والله أسأل أن يجزي الشيخ العلامة الدكتور محمد أبو شهبة عن سنة رسول الله ﷺ خير ما يجزي العلماء العاملين .

وأشكر أسرة الشيخ على إتاحتها لي فرصة البحث في مكتبة الشيخ والتنقيب عن هذه الكنوز وإخراجها للنور ، كما نشكر الأخوة المجاهدين في إحياء السنن وإماتة البدع القائمين على مكتبة السنة بالقاهرة لحسن اهتمامهم بإخراج هذا التراث إلى النور .

وآخر دعوانا أن الحمد للَّه رب العالمين .

كتبه الفقير إلى عفو اللَّه
أحمد مصطفى عبد العزيز فضلية
شيخ معهد محلة دياي الأزهري

[١] حول الأحاديث النبوية

(1) معجزة نبوية[1]

دعاني إلى الكتابة في هذا الموضوع كثرة ما وجه إلي من أسئلة عن الحديث الذي يرويه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا سقط الذباب في إناء أحدكم فليغمسه كله ثم ليطرحه ، فإن أحد جناحيه داء ، وفي الآخر دواء » . وفي بعض الروايات : « وأنه يتقي بجناحه الذي فيه الداء » . وكثيرًا ما أجد آثار الدهشة بادية على وجوه من أخبرهم بصحة هذا الحديث ، وأن الطب الحديث أيد ما قاله النبي صلوات الله وسلامه عليه من منذ قرابة أربعة عشر قرنًا ، وقد تسارع بعض أهل العلم في هذه العصور المتأخرة ؛ فأنكر صحة هذا الحديث مع أنه مروي في أصح الكتب بعد كتاب الله وهو صحيح البخاري ، والمسارعة إلى إنكار الأحاديث من غير تحقيق لوثة سرت إلينا من بعض المستشرقين الذين عرفوا بالعداء للإسلام ، ومهما تظاهر هؤلاء بطلب الحقيقة فهم لا يمكنهم التغلب على عصبيتهم الكامنة وبغضهم الدفين للإسلام ، لذلك تراهم لا ينفكون عن الطعن في القرآن والسنة الذين هما أصل الدين ، وقد رأيت أن أبين عناية الأمة الإسلامية بالسنة النبوية قبل بيان شيء من أسرار هذا الحديث .

والسنة النبوية : هي أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته وصفاته ، وهي الأصل الثاني من أصول التشريع ، وهي شارحة للقرآن ومبينة له ، وقد تستقل بالتشريع في بعض الأحيان - كتحريم كل ذي ناب من السباع ومخلب من الطير -، وفي الحديث الشريف : « ألا إنني أوتيت الكتاب ومثله معه » ، وهي السنة ، والسنة النبوية بوحي وإلهام من الله سبحانه وتعالى ، والنبي لا يقول قولا مما يتعلق بالدين والتشريع إلا وهو عين الحق والصواب ، قال الله تعالى : ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم : ٣- ٤] . وقد عرف المسلمون منزلة السنة النبوية من الدين فأحاطوها بكل أنواع الرعاية ، ولم تعرف أمة من

(١) الحج : العدد الأول - السنة الرابعة - رجب ١٣٦٩ هـ - مايو ١٩٥٠م .

الأمم اعتنت بأحاديث نبيها وآثاره مثل الأمة الإسلامية من حفظ لها في الصدور إلى تقييد لها في الصحف والسطور إلى بيان معناها ، والكشف عما اشتملت عليه من حكم وأسرار ، وقد وضع أئمة الحديث ونقاده أصولًا وقواعد جعلوها نبراسهم في الحكم على الحديث بالصحة أو عدمها ، وهذه الأصول منها ما يتعلق بنقد سند الحديث- أي : رواته ورجاله- ومنها ما يتعلق بمتنه- أي : ألفاظه- وما تدل عليه ، وقد بلغ المحدثون في نقد السند منزلة لم يبلغ شأوهم فيها أحد ، ووضعوا في ذلك أصولًا هي أرقى وأدق ما وصل إليه العقل السليم والفكر المتئد ، وتركوا في ذلك ذخرًا نفيسًا في كتب أصول الرواية الإسلامية ، وقد كانوا مترفقين كل الرفق في نقدهم لمتون الأحاديث وما اشتملت عليه ، فزيفوا ما ترجح عندهم زيفه وبطلانه ، وأثبتوا ما ترجح عندهم صدقه وصحته ، ولم يتهجموا على الأحاديث تهجم من يحكم العقل في كل شيء ، ويقيس الغائب على الشاهد ، ويغلب جانب المادة على جانب الروح ، وفي الحق أن أئمة الحديث وجهابذته كانوا أبعد غورًا وأدق نظرًا من غيرهم حينما لم يبالغوا في نقد المتن مبالغتهم في نقد السند ، فبعد المبالغة في التحري عن رواة الحديث ، والوصول إلى سلامتهم من كل ما يخل بالصدق والحفظ والتثبت ، يكون احتمال الكذب في الحديث بعيدًا جدًّا إن لم يكن ممنوعًا . ثم أن لفظ الحديث قد يكون من قبيل المجاز لا من قبيل الحقيقة ، وقد يكون من قبيل المغيبات التي لا يعلمها إلا الله ، وقد يكون من المعجزات التي كشف العلم عن أسرارها ، فتحكيم العقل في مثل هذه الأحاديث وردها بادئ الرأي وبمجرد ظهورها فيه مجافاة للحق والصواب .

ومن هذه الأحاديث التي كشف العلم عن سرها : حديث الذباب الذي ذكرته في أول المقال والذي يشتاق الكثيرون إلى معرفة معناه وسره ، وهذا الحديث رواه البخاري وأبو داود والنسائي وابن ماجه ، ولم أر لأحد من نقاد الحديث طعنًا في سنده ، فهو في درجة عالية من الصحة ، وكل ما وقع من الطعن فيه من بعض المتساهلين إنما هو من جهة متنه ومدلوله ، فقد قالوا : كيف يكون الذباب الذي هو مباءة الجراثيم فيه دواء ؟ وكيف يجمع الله الداء والدواء في شيء واحد ؟ وهل الذباب يعقل فيقدم أحد الجناحين على الآخر ؟ وقد بذل علماؤنا الأوائل- أثابهم الله- الجهد في رد هذه الشبهة فقالوا : لا مانع عقلًا أن يجمع الله الداء والدواء في شيء واحد ، بل هو أمر مشاهد في النحلة ، تلقي السم من أسفلها

وتخرج عسلًا فيه شفاء للناس من فيها ، والحية مقاتل سمها يدخل لحمها في الترياق الذي يعالج به السم ، وأن الله الذي هدى النحلة إلى أن تبني بيتها على أعظم نظام هندسي ، وهدى النملة أن تدخر قوتها لأوان حاجتها فتدخر في الصيف قوت الشتاء ، وهداها أن تفلق الحبة نصفين لئلا تنبت ؛ لقادر على أن يلهم الذبابة أن تقدم جناحًا وتؤخر آخر ، فهي تقدم جناح الداء وتؤخر جناح الدواء .

وحاول بعض العلماء أن يجيب فقال : إن الحديث من قبيل المجاز ، وأن المراد بالداء داء الكبر ، والدواء حمل النفس على التواضع بتناول ما سقط فيه الذباب ، ففيه قمع لسورة النفوس المتكبرة وتعويدها على التواضع ، وقد شاء ربك – أيها القارئ الفطن – أن يظهر سر هذا الحديث ، وأن يتوصل بعض نطس الأطباء إلى أن في الذباب مادة قاتلة للميكروب ، فبغمسه في الإناء تكون هذه المادة سببًا في إبادة ما يحمله الذباب من الجراثيم التي تعلق به من سقوطه على القاذورات أو المرضى ، وأصبح ما قاله الأقدمون من العلماء تجويزًا حقيقة مقررة ، وإليك ما ذكره أحد الأطباء العصريين في محاضرة بجمعية الهداية[1] الإسلامية بمصر ، قال : (يقع الذباب على المواد القذرة المملوءة بالجراثيم التي تنشأ منها الأمراض المختلفة ، فينقل بعضها بأطرافه ويأكل بعضًا آخر ، فتتكون في جسمه مادة سامة يسميها علماء الطب بـ « مبعد البكتريا » ، وهي تقتل كثيرًا من جراثيم الأمراض ، ولا يمكن لتلك الجراثيم أن تبقى حية أو يكون لها تأثيرًا في جسم الإنسان في حال وجود « مبعد البكتريا » ، وأن هناك خاصية في أحد الجناحين هي أنه يحول البكتريا إلى ناحيته ، وعلى هذا فإذا سقط الذباب في شراب أو طعام وألقى الجراثيم العالقة فإن أقرب مبعد لتلك الجراثيم وأول واق منها هو « مبعد البكتريا » الذي يحمله الذباب في جوفه قريبًا من أحد جناحيه ، فإذا كان هناك داء « فدواؤه قريب منه » .

في مجلة التجارب الطبية الإنجليزية عدد ١٠٣٧ سنة ١٩٢٧ ما ترجمته : « لقد أطعم الذباب من زرع ميكروبات بعض الأمراض ، وبعد حين من الزمن عادت تلك الجراثيم واختفى أثرها ، وتكون في الذباب مادة سامة تسمى « بكتريوفاج » ، ولو عملت خلاصة من

---

(١) هي جمعية دينية علمية إصلاحية يرأسها فضيلة أستاذنا الكبير السيد محمد الخضر حسين ، عضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية ورئيس تحرير مجلة « لواء الإسلام » .

الذباب لمحلول مائي لاحتوت على مادة « بكتريوفاج » التي يمكنها إبادة أربعة أنواع من الجراثيم المولدة للأمراض » ، وقد كتب بعض الأطباء الغربيين نحو ذلك .

وبذلك ظهر أن هذا الحديث الذي عده بعض المتساهلين كذبًا من الدلائل العلمية على صدق الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، فضلًا عن معجزته الكبرى الباقية على وجه الدهر ألا وهي « القرآن الكريم » .

ومن هذا القبيل الحديث الصحيح : « إذا شرب الكلب من إناء أحدكم فليغسله سبعًا إحداهن بالتراب » . فقد أثبتت التجارب الطبية الحديثة ما للتراب من أثر فعال في قفل وإزالة الجراثيم المتخلفة عن سؤر الكلب ، وقد جهر بهذه الحقيقة أحد عباقرة الأطباء في كتابه : « الإسلام والطب الحديث » ، بينما كان بعض المتهجمين وأعداء الدين يزعم أنه تعنت في التشريع ، أما المؤمنون المذعنون فقد كانوا يرون أن ذلك من قبيل التعبد ، فيتبع ولو لم يطلع له على حكمة ظاهرة .

على أن حديث الذباب فيه إرشاد إلى توقي الداء بالدواء لأجل الانتفاع بالطعام والشراب ، وليس فيه إرغام على تناول ما سقط فيه الذباب ، وإنما ذلك يترك للاختيار ، وقد يعاف بعض الناس شيئًا ولا يعافه الآخر ، وهذا هو الرسول الكريم يقول في الضب مع حله : « تعافه نفسي » ، كذلك ليس في الحديث ما يمنع من التوقي وحفظ الطعام والشراب من الذباب ، بل قد وردت السنة بالأمر بتغطية الإناء .

وبعد ، فلعلك- أيها القارئ المؤمن- ازددت إيمانًا بصحة هذا الحديث وما كان على شاكلته ، واطمأننت إلى أن الإذعان والقبول لما صح عن الرسول المعصوم أحرى بالمؤمن المتثبت وأولى ، وفي كل يوم يتقدم العلم والمعرفة يظهر الله سبحانه من الآيات البينات ما يدل على صدق النبي ﷺ ، وصدق معجزته العظمى وهو القرآن الكريم وصدق الله : ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فُصِّلَت : ٥٣] . وإني لأرجو من الأطباء المسلمين البارعين أن يوجهوا عنايتهم شطر الطب النبوي ليظهر ما تيسر من أسرار هذ الطب ، وبذلك يكونون قد أدوا خدمة للإسلام لا تنسى .

[٢] من دعائم النبوة الخاتمة

(1) نسب النبي الشريف الزكي

روى الإمام مسلم في صحيحه بسنده عن واثلة بن الأسقع يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشًا من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم » .

رواه الترمذي في سننه بسنده عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة ، واصطفى من بني كنانة قريشًا ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم » . قال أبو عيسى- يعني الترمذي- : هذا حديث حسن صحيح ، وهذه الرواية أتم من رواية مسلم ، ورواه من طريق آخر بمثل لفظ مسلم .

تخريج الحديث : رواه مسلم في صحيحه- كتاب الفضائل- باب فضل نسب النبي ﷺ . ورواه الترمذي في سننه - كتاب المناقب - باب في فضل النبي ﷺ .

● **الشرح والبيان :**

من هو واثلة بن الأسقع ؟

هو الصحابي الجليل واثلة بن الأسقع بن عبد العزى بن عبد ياليل الكناني الليثي ، وقيل في نسبه : واثلة بن عبد الله بن الأسقع ، أسلم والنبي ﷺ يتجهز إلى تبوك ، قيل : إنه خدم النبي ثلاث سنين ، وكان من أصحاب الصفة .

وكان ينزل ناحية المدينة حتى أتى رسول الله ﷺ فصلى معه الصبح وكان رسول الله ﷺ إذا صلى الصبح انصرف فيتصفح وجوه أصحابه ينظر إليهم ، فلما دنا من واثلة أنكره ، فقال : « من أنت ؟! » ، فأخبره ، فقال : « ما جاء بك ؟ » ، قال : أبايع ، فقال رسول الله ﷺ : « على ما أحببت وكرهت ؟ » ، قال : نعم ، فقال رسول الله ﷺ : « فيما أطقت ؟ » ، قال : نعم . وكان رسول الله ﷺ يتجهز إلى تبوك ولم يكن لواثلة ما يحمله ،

فجعل ينادي : من يحملني وله سهمي ؟ فدعاه كعب بن عجرة وقال : أنا أحملك عقبة[١] بالليل ، ويدك أسوة يدي[٢] ، ولي سهمك ، فقال واثلة : نعم . قال واثلة : كان يحملني عقبى ويزيدني وآكل معه ويرفع لي ، حتى إذا بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى أكيدر الكندي بدومة الجندل خرج كعب وواثلة معه فغنموا ، فأصاب واثلة ست قلائص[٣] فأتى بها كعب بن عجرة ، فقال : اخرج فانظر إلى قلائصك ، فخرج كعب وهو يتبسم ويقول : بارك الله لك ، ما حملتك وأنا أريد آخذ منك شيئًا ، وهكذا فلتكن الأخلاق الإسلامية تفعل الخير لوجه الله ، ثم سكن البصرة وبنى بها دارًا ، ثم سكن الشام بالقرب من دمشق ، وشهد فتحها ، وشهد المغازي بدمشق وحمص ، ثم تحول إلى فلسطين ونزل ببيت المقدس ، وقيل بلدة جبرين حتى توفاه الله .

روى عن النبي ﷺ وعن غيره من كبار الصحابة ، وروى عنه أبو إدريس الخولاني وأبو عمار شداد بن عبد الله وغيرهما ، وكانت وفاته سنة ثلاث وثمانين ، وهو ابن مائة وخمس سنين ، وقيل غير ذلك ، فرضي الله عنه وأرضاه .

« النسب الشريف الزكي » :

ويستحسن هنا ذكر نسب النبي ﷺ ، وهو على ما ذكره أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري في صحيحه[٤] قال : (محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر ابن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان) ، وهذا النسب الزكي متفق عليه بين علماء الأنساب إلى عدنان ، قال أبو الخطاب بن دحية : (أجمع العلماء على أن رسول الله ﷺ إنما انتسب إلى عدنان ولم يجاوزه) .

وأما من بعد عدنان فهم مختلف فيهم ، وإن كان النسابون اتفقوا على أن عدنان ينتهي نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، فالخليل إبراهيم هو جد النبي الأعلى ، وقد

(١) عقبة – بضم العين – أي نوبة .
(٢) يعني أنهما سواء في المعيشة والطعام .
(٣) جمع قلوص وهي الناقة الشابة القوية .
(٤) صحيح البخاري ، باب مبعث النبي ﷺ ، بعد الفضائل .

انتقلت إلى النبي ﷺ من جده لأبيه بعض الصفات الجسمانية ، ففي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري في صحيحه أن النبي لما ذكر سيدنا إبراهيم عليه السلام قال : « وإنه لأشبه الناس بصاحبكم » .

« إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل » .

قد جاءت رواية الترمذي التي ذكرناها أتم من رواية مسلم ، فقد ذكرت حلقة من حلقات النسب الشريف التي لم تذكر في رواية مسلم ، ولعل ذلك نسيان من الراوي أو اقتصار ، والحلقة التي ذكرها الترمذي هي : « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل » .

اصطفى : اختار . والمراد : تخير الفروع الزكية من الأصول الكريمة تخيرًا مبناه الأخلاق الكريمة والفضائل الإنسانية السامية ، والطباع الفطرية السليمة ، وهذا الاصطفاء بهذا المعنى هو الذي ينبغي أن يفهم من الحديث في الاصطفاءات التي عرض لها .

وينضم إلى ذلك بالنسبة لاصطفاء إسماعيل من ولد إبراهيم اصطفاء النبوة والرسالة ، والله حينما يصطفي نبيًا أو رسولًا إنما يصطفيه من خيار الناس وأفضلهم ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، وكذلك بالنسبة لاصطفاء نبينا محمد ﷺ .

« واصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى من كنانة قريشًا » .

كنانة هو أحد أجداد النبي ﷺ ، وهو والد النضر الذي كان ينتسب إليه النبي ، لقب بالنضر لنضارة وجهه ، والنضر هذا في رأي ابن هشام هو قريش ، وبه قال الشافعي ، وعزاه العراقي للأكثرين ، وقال النووي هو الصحيح ، وصححه الحافظ صلاح الدين العلائي ، ويستدلون له بحديث الأشعث بن قيس لما وفد على النبي ﷺ في وفد كندة فقال : يا رسول الله ، ألستم منا ؟ قال : « لا ، نحن بنو النضر بن كنانة » . رواه ابن ماجه وأبو نعيم وابن عبد البر ، وروى الحافظ البيهقي أنه بلغ النبي ﷺ أن رجالًا من كندة يزعمون أنه منهم وأنهم منه ، فقال : « إنما كان يقول ذلك العباس وأبو سفيان بن حرب فيأمنان بذلك ، وإنا لن ننتفي من آبائنا ، نحن بنو النضر بن كنانة » .

ومن العلماء من يرى أن فهرًا هو قريش ، وإليه تنسب قريش في قول جماعة ، منهم الإمام الزهري ، فما كان فوق فهر فليس بقرشي ، بل هو كناني على الصحيح .

ومن العلماء من وفق بين القولين ، بأن فهرًا جماع قريش ، فأبوه مالك ما أعقب غيره ،

وكذلك النضر ليس له عقب إلا مالك ، فاتفق القولان .

وقريش : تصغير قرش ، وهي دابة في البحر عظيمة- أي سمكة- من أقوى دوابه ، سميت بذلك لقوتها ، لأنها تأكل ولا تؤكل ، وتعلو ولا تعلى ، فسميت قريش بذلك لذلك .

وقيل : سموا قريشًا لأنهم كانوا يتجرون من قولهم : قرش الرجل يقرش ، كضرب يضرب إذا أتجر .

« واصطفى من قريش بني هاشم » .

هاشم هو جد والد النبي ﷺ واسمه عمرو ، وهاشم لقبه ، وإنما لقب بذلك لأنه أول من أطعم الناس الثريد[1] بمكة ، قال شاعرهم :

عمرو الذي هشم الثريد لقومه　　قوم بمكة مُسْنَتِينَ عجاف[2]
سنت إليه الرحلتان كلاهما　　سفر الشتاء ورحلة الأصياف

وكان من الأجواد ، وقد ولي هاشم الرفادة[3] والسقاية[4] بعد أبيه عبد مناف ، وهما من مآثر أهل الجاهلية ومفاخرهم ، وكان هاشم يستعين بقريش في الرفادة ، فكان إذا حضر الحاج قام في قريش فقال : (يا معشر قريش ، إنكم جيران الله ، وأهل بيته ، وإنه يأتيكم في هذا الموسم زوار الله وحجاج بيته ، وهم ضيف الله ، وأحق الضيف بالكرامة ضيفه ، فأجمعوا لهم ما تصنعون به طعامًا أيامهم هذه التي لا بد لهم من الإقامة بها ، فإنه- والله- لو كان مالي يسع لذلك ما كلفتكموه) ، فيستجيبون له ، ويخرجون لذلك خرجًا من أموالهم ، كل بقدر طاقته ، فيصنع به للحجاج طعامًا حتى يرجعوا من مكة ، وهو مكرمة من مكارم العرب ، لا تكاد توجد اليوم على كثرة المال وفحش الثراء .

وفي عهد هاشم ازدهرت مكة وسمت مكانتها في الجزيرة ، وأصبحت العاصمة المعترف بها .

---

(١) هو الخبز يخلط بالمرق واللحم .

(٢) وفي رواية : ورجال مكة مسنتون عجاف .

(٣) طعام كان يعد ويقدم للحجيج بلا مقابل .

(٤) ماء زمزم ينقع فيه التمر والزبيب ويسقى الحجاج .

« واصطفاني من بني هاشم » .

أي : اختارني من بني هاشم لأكون خاتم الأنبياء والمرسلين ، هذا إلى اصطفائه بتخير الخلال الكريمة له ﷺ ، حتى صار ﷺ مجموعة من الفضائل والمكارم والأخلاق العالية التي لم تجتمع قبله في بشر قط .

وراثة الصفات والفضائل :

وإذا كان الله سبحانه وتعالى جرت سنته أن لا يبعث نبيًا إلا في وسط من قومه شرفًا ونسبًا ، ومحتدًا وغنى بالفضائل ، فقد كان في الذروة من ذلك كله نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه ، فما من آبائه إلا من كان مليًا - غنيًا - بالفضائل والمكارم ، وقد علمت بعضًا منها آنفًا ، وما من أم من أمهاته إلا وهي أفضل نساء قومها نسبًا وموضعًا ، ولم تزل هذه الفضائل والكمالات البشرية تنحدر من الأصول إلى الفروع حتى تجمعت كلها على أقوى ما تكون وأمثل ما تكون في سلالة ولد آدم ، وخلاصة ولد إبراهيم وإسماعيل ، سيدنا محمد بن عبد الله الأمين .

وليس من شك في أن النسب الكريم إذا زانه الحسب العريق[1] ، كان ذلك من أسباب الكمال ، ووراثة الصفات الخَلْقية والخُلُقية - بضم الخاء واللام - والخصائص النفسية والعقلية أمر مقرر معلوم ، وقد سبق إلى علمها الإسلام ، وليس أدل على هذا من قوله ﷺ للرجل الذي جاء يشتكي إلى النبي أن ابنه جاء أسود ، ولم يكن أحد من أبويه أسود ، فقال له : « هل لك من أبل ؟ » ، قال : نعم ، قال : « وما ألوانها ؟ » ، قال : حمر ، قال : « هل فيها من أورق ؟ »- يميل لونه إلى الغبرة والسواد- ، قال : نعم ، قال : « فأنى ذلك ؟ » ، قال : لعله نزعه عرق ، قال : « فلعل ابنك هذا نزعه عرق » ، يعني جاء لونه لأحد أجداده ، فرضي الرجل ورجع .

وقد شرح العلماء المحدثون قوانين الوراثة وبينوها غاية البيان ؛ فقالوا : هناك وراثة نوعية عامة : وهي وراثة الصفات الجسمية والنفسية الخاصة بالنوع الإنساني ، فكل طفل

(١) الحسب - بفتحتين - ما يعد من المآثر ، وهو مصدر حسب وزن شرف شرفا ، وكرم كرمًا ، قال الأزهري : الحسب : الشرف الثابت له ولآبائه ، وقال ابن السكيت : الحسب والكرم يكونان في الإنسان وإن لم يكن لآبائه شرف ، وأما المجد والشرف فلا يوصف بهما الشخص إلا إذا كانا فيه وفي آبائه .

يولد مزود بهذه الصفات عن طريق الوراثة النوعية ، ووراثة خاصة : وهي التي تنقل إلى الفرع صفات من أصوله الخاصة القريبة أو البعيدة ، وهي لذلك تنتظم طائفتين : أحدهما : الوراثة الخاصة المباشرة ، وتظهر فيما يرثه الطفل عن أصليه المباشرين : أبيه وأمه ، والثانية : الوراثة الخاصة غير المباشرة ، وتظهر فيما يشبه فيه الطفل أحد أجداده ، أو إحدى جداته من جهة الأب أو الأم من الدرجة الأولى ، أو من الدرجات التي تليها من صفات لم تظهر في أحد أبويه ، ومن هذا النوع ما يسمونه « الوراثة الفرعية » ، أو « الوراثة بالواسطة » ، أو « الوراثة المشتركة » ، ثم إن الوراثة قد تكون للأبوين معًا في بعض صفاتهما ، وقد تكون لأحدهما دون الآخر .

وتنقسم الوراثة أيضًا إلى :

أ- وراثة جسمية . ب- وراثة عقلية .

جـ- وراثة خلقية : كوراثة الصفات المتعلقة بالخير والشر والفضيلة والرذيلة ؛ كالحلم ، والورع ، والتقوى .

وقد أفاد النبي ﷺ من الوراثتين : العامة ، والخاصة بنوعيها ، فكان فيه خير ما في صفات البشر والنوع الإنساني ، وخير ما كان في آبائه وأمهاته من الفضائل والصفات ، ونزهه الله عن كل ما في الوراثتين من نقائص ورذائل ، وقد انضم إلى ذلك أن الله سبحانه وتعالى تعهده من الصغر بالتربية المثلى ، والتأديب البالغ ، فلا تعجب إذا كان ﷺ المثل الكامل في جسمه ، وفي عقله ، وفي دينه ، وفي خلقه ، وفي نسبه ، وحسبه . و« الناس معادن ، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا » . رواه البخاري .

ولم يزل رسول الله ﷺ ينتقل من أصلاب الآباء الطيبين إلى أرحام الأمهات الطاهرات لم يمس نسبه من سفاح الجاهلية شيء ، بل كان بنكاح صحيح على حسب ما تواضع عليه العرب الشرفاء حتى خرج من بين أبويه الكريمين .

وفي معنى هذه الحديث ما رواه البخاري في صحيحه بسنده عن النبي ﷺ قال : « بعثت من خير قرون[1] بني آدم قرنًا فقرنًا ، حتى بعثت من القرن الذي كنت فيه » .

---

(١) القرن : مائة سنة ، وقيل : ثمانون ، وقيل : الجيل ، ولعله الأولى هنا .

وروى البيهقي بسنده عن النبي ﷺ أنه خطب فقال : « أنا محمد بن عبد الله ...» ، إلى آخر النسب الشريف ، ثم قال : « وما افترق الناس فرقتين إلا جعلني الله في خيرهما ، فأخرجت من بين أبوي ، فلم يصبني شيء من عهر الجاهلية[١] ، وخرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم حتى انتهيت إلى أبي وأمي ، فأنا خيركم ، وخيركم أبًا »[٢] .

وروى الإمام أحمد في مسنده بسنده عن المطلب بن أبي وداعة قال : قال العباس : بلغه ﷺ بعض ما يقول الناس[٣] ، فصعد المنبر فقال : « من أنا ؟ » ، قالوا : أنت رسول الله ، قال : « أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، إن الله خلق الخلق فجعلني في خير خلقه ، وجعلهم فرقتين فجعلني في خير فرقة ، وخلق القبائل فجعلني في خير قبيلة ، وجعلهم بيوتًا فجعلني في خيرهم بيتًا ، فأنا خيركم بيتًا ، وخيركم نفسًا » . إلى غير ذلك من الأحاديث التي تنم عن شرفه وحسبه وشرف آبائه وحسبهم .

وهذا الذي قاله ﷺ هو الذي أيده التاريخ الصادق ، الذي لا يحابي ولا يجامل ، وسأعرض بشيء من الإيجاز لآبائه وأمهاته .

الآباء :

أما الأب المباشر فهو الفتى الهاشمي القرشي عبد الله بن عبد المطلب ، ثاني الذبيحين في تاريخ الدنيا ، وأجداده كلهم سادة ، ورثوا المجد والشرف كابرًا عن كابر ، وليس فيهم أحد يغمص في خلق أو يغمز في نسب ، أو يطعن في شرف ، فكان منهم الوسيم القسيم ، ومنهم البطل الصنديد ، ومنهم الجواد الكريم ، ومنهم الحكيم الذي تتفجر الحكمة من قلبه ، وتجري على لسانه ، وكان منهم التاجر الذي يكسب المعدوم والبر الرحيم الوصول للرحم ، ومنهم المتدين ، والمتحنث[٤] ، والمتحنف[٥] .

---

(١) فجور ومفاسد الجاهلية .

(٢) يعني : وأمًا وتأمل في قوله : « فأنا خيركم » لتعلم أنه البحر الذي صبت فيه جداول الآباء والأجداد ، والجدات بكل خير وخلق عظيم .

(٣) لعل المراد بهذا ما ذكره الترمذي في سننه عن العباس قال : قلت : يا رسول الله ، إن قريشًا جلسوا فتذاكروا أحسابهم بينهم فجعلوا مثلك كمثل نخلة في كبوة من الأرض ... الحديث .

(٤) المتعبد .

(٥) الذي اتبع دين الحنيفية : دين الخليل إبراهيم عليه السلام .

وبحسب البيت الهاشمي شرفًا وكرمًا أنهم كانوا سادة العرب جميعًا ، لا ينازعهم في السيادة منازع ، وأنه انتهت إليهم السقاية ، والرفادة ، مع أنهم لم يكونوا جميعًا من أهل الغنى والثراء ، إنها- وأيم الحق- لمآثر ومفاخر ؟ لا تجدها في أعرق الدول حضارة ، ولا في أغنى أمم الأرض اليوم ، فلا عجب إذا كان الله أعد عبد الله بن عبد المطلب ليضطلع بهذه الأبوة في التاريخ .

الأمهات :

أما الأم المباشرة فهي السيدة الكريمة آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، فهي تجتمع مع عبد الله في جدهما الأعلى : كلاب ، وقد كان زهرة الولد البكر لكلاب ، والشقيق الأكبر لقصي ، الذي جمع قريشًا بعد تشتت ، وصاحب مآثر الجاهلية ومفاخرها . وقد عرف بنو زهرة بالود الخالص لبني عبد مناف بن قصي ، والانحياز إلى جانبهم في السلم والحرب ، والأحلاف والعهود . وأما جدها عبد مناف فكان يقرن في الشرف بابن عمه عبد مناف بن قصي ، فيقال : المنافان ، تعظيمًا وتكريمًا ، وأما أبوها وهب فكان سيد بني زهرة .

وجدة السيدة آمنة لأبيها عاتكة بنت الأوقص السلمية إحدى النساء اللآتي اعتز بهن الرسول ، فقال : « أنا ابن العواتك » ، من سليم ، وأمها برة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي ، وجدتها لأمها أم حبيب بنت أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب . سلالة عريقة أصيلة أنبتت آمنة بنت وهب لتضطلع بعبئها الجليل في أمومتها التاريخية ، ولتنتظم بهذه الأمور في سلك الأمهات المنجبات للرجال الذين صنعوا أممًا ، وغيروا وجه التاريخ ، وكذلك كان أمهات أبيه ، وأجداده ، كلهن كن ذوات نسب ، وشرف ، وعفة ، واعتداد بأنفسهن .

وبعد ، فلعلك آمنت معي بأن نسب الرسول وحسبه لا ينالان ، ولا يطاولان ، بنفسي أنت وأبي وأمي يا سيدي يا رسول الله ، في شهر ذكراك .

* * *

(2) لكل نبي معجزة ... والقرآن معجزة المعجزات[1]

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما بسندهما عن سعيد المقبري عن أبيه عن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ : « وما من الأنبياء نبي إلا أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إلي ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة » .

تخريج الحديث :

رواه الإمام البخاري في صحيحه في كتاب فضائل القرآن- باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل- وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة- باب بعثت بجوامع الكلم- مع الشك في بعض الألفاظ وهو قوله : « ما مثله أومن أو آمن عليه البشر ...» .

ورواه مسلم في كتاب الإيمان- باب وجوب الإيمان برسالة النبي ﷺ - ، ورواه النسائي في التفسير ، وفضائل القرآن .

ما يتعلق بالسند :

روى البخاري الحديث في الموضع الأول عن شيخه عبد الله بن يوسف قال : حدثنا الليث قال : حدثنا سعيد المقبري ... الخ .

ورواه في الموضع الثاني عن شيخه عبد العزيز بن عبد الله قال : حدثنا الليث عن سعيد يعني المقبري عن أبيه ... الخ . ورواه مسلم عن شيخه قتيبة بن سعيد قال : حدثنا ليث عن سعيد ... الخ ، وقد روى سعيد عن أبيه عن أبي هريرة ، وسمع الكثير عن أبي هريرة من غير وساطة أبيه ، ووقع الأمران في الصحيحين ، وهو يدل على تثبت سعيد وتحريه .

الشرح والبيان :

« ما من الأنبياء نبي إلا أُعطي من الآيات ... » .

المراد بالأنبياء الذي كلفوا بتبليغ شرائع إلى الخلق ، سواء أكانت رسالاتهم خاصة أم عامة ، وهي رسالة نبينا محمد ﷺ .

وفي رواية مسلم : « ما من الأنبياء من نبي ... » ، فمن زائدة لتأكيد الاستغراق

---

(١) الأزهر : ج٨ سنة ٤١.

والشمول ، لأن النكرة إذا وقعت في سياق النفي تعم ، فجاءت (من) فزادتها عمومًا ، و(نبي) مبتدأ ، أي : ما نبي كائن من الأنبياء .

« إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر » .

جملة « أعطي » خبر المبتدأ ، و« ما » اسم موصول ، وهي المفعول الثاني لأعطي ، والمفعول الأول صار بعد البناء للمجهول نائب فاعل ، و« مثله » مبتدأ ، وجملة « آمن » خبره والجملة من المبتدأ والخبر صلة الموصول ، و« الآيات » جمع آية ، والمراد بها المعجزة ، وقد وردت في استعمالات القرآن الكريم بمعنى المعجزة ، ففي الكتاب الكريم : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [طه : ١٣٣] . أي : آية الآيات ومعجزة المعجزات وهو القرآن ، وفي الكتاب أيضًا : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٧] . فالمراد بالآية المعجزة .

« ما مثله آمن عليه البشر » .

« المثل » يطلق ويراد به نفس الشيء وعينه ، ويطلق ويراد به مساويه ومشابهه ، ولا يشترط أن تكون المشابهة والمماثلة تامة ، بل قد تتحقق بوجه من الوجوه ، وهو كاف في تحقيق المشابهة أي مشابهة ما ، ويكون المعنى ما هو آمن عليه البشر ، أو ما مثله ولو بوجه .

« ما آمن عليه البشر » .

« آمن » معظم الروايات في الصحيح جاءت بلفظ « آمن » أي : صدق ، لأن الإيمان في اللغة : هو التصديق والإذعان . وفي رواية البخاري في « كتاب الاعتصام » : « ما مثله أومن أو آمن عليه البشر » . فـ « أو » للشك من الراوي ، أي اللفظين قاله النبي ﷺ ، وهذا من تثبت الرواة وشدة تحريهم في الرواية .

أما « أومن » فهو بضم الهمزة ، وسكون الواو ، وكسر الميم من الأمن ، وأما الثانية فهي بمد الهمزة ، وفتح الميم من الإيمان ، وعلى هذه جاءت معظم الروايات كما ذكرت آنفًا .

و« عليه » على بمعنى اللام أي صدق لأجله البشر ، وإنما آثر التعبير بعلى لتضمنها معنى الغلبة والقهر ، أي يؤمنون بذلك مغلوبًا عليهم بحيث لا يستطيعون دفعه عن أنفسهم .

والمعنى : أن كل نبي من الأنبياء أعطاه الله من المعجزات الشيء الذي من صفته أنه إذا

شوهد اضطر المشاهد له إلى الإيمان به ، وذلك إذا كان منصفًا ، وإلا فقد تكون المعجزة قوية في إعجازها ، ملزمة في دلالتها ، ولكن قد يجحد بها مشاهدها ، ويعاند ، وذلك كما قال تعالى : ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل : ١٤] .

والمعجزة : أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي صراحة أوضمنًا يجريه الله سبحانه على يد مدعي النبوة ، فإذا قام إنسان وادعى النبوة وقال : الدليل على صدقي أن يجري الله سبحانه على يدي ما يخالف المألوف من عادته ، ثم يتحدى الناس زرافات ووحدانًا أن يأتوا بمثل ما أتى به ، وفيهم الكثيرون ممن هم على شاكلته ، بل ومن هم أشهر منه وأكثر ممارسة لما جاء به ، ثم لم يكن منهم إلا العجز ، وعدم الاستطاعة ، فلا شك أن هذا دليل قوي وبرهان ساطع على صدقه ، وأن ما جاء به من عند الله تبارك وتعالى .

والمعجزة في دلالتها على صدق النبي قائمة مقام قول الله سبحانه فيما لوأسمعنا كلامه : « صدق عبدي فيما يبلغ عني » ، فمتى ظهرت المعجزة على يد إنسان ، وقارن ظهورها دعوى النبوة علم بالضرورة أن الله ما أظهرها إلا تصديقًا لمن ظهرت على يده ، لأن من المحال أن يؤيده الله وهو كاذب ، إذ تأييد الكاذب تصديق له ، وتصديق الكاذب كذب ، والكذب محال على الله سبحانه وتعالى .

معجزات الأنبياء ملائمة لأزمانها :

وقد شاء الله تبارك وتعالى أن تكون معجزات الأنبياء ملائمة لما اشتهر في أزمانهم حتى إذا ما عجز الناس عن الإتيان بمثلها كان ذلك أكبر شاهد على صدق من ظهرت على يديه ، ولا سيما أنها تظهر على يد من لم يعرف بالتبريز فيما اشتهر في زمنه .

ألا ترى أن سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام لما أرسل إلى قوم اشتهروا بالسحر والطلاسم وبعض العلوم الخفية أعطاه الله بعض آياته مناسبة وملائمة لما اشتهر في زمنه ، فكانت آيته الكبرى هي العصا ، تكون في يده عصا جامدة لا حس فيها ، فيلقيها فإذا هي حية تسعى تلتهم ما أمامها .

ولذلك لما حشر فرعون السحرة بحبالهم وعصيهم حتى خيل إلى الرائي من سحرهم أنها تسعى وألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون كان أول من آمن بالله هم السحرة ؛

لأنهم علموا علم اليقين أن عصا موسى عليه السلام ليست من السحر في شيء ، لأن أدرى الناس بالشيء هم أهله ، وأيقنوا أن ذلك لن يكون إلا من فعل القهار الذي لا يغالب ، اقرأ قول الله في سورة طه : ﴿قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه : ٦٥- ٧٠] .

فلم يجد فرعون - كما هو شأن المغلوب المكابر - بدًا من أن يرميهم بأنه كبيرهم الذي علمهم السحر ، وتوعدهم بتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وتصليبهم في جذوع النخل ، فلم ينل منهم التهديد ، ولا الوعيد لأنهم آمنوا عن يقين ، فقالوا كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه : ٧٢، ٧٣] .

وكذلك أعطي اليد فكانت يده أدماء تميل إلى السمرة فيضعها تحت إبطه فإذا هي تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى[١] .

وسيدنا عيسى عليه السلام لما بعث في وقت كثر فيه الاشتغال بالطب وعلومه وإلى قوم برعوا فيها كانت آياته مناسبة لما اشتهر في عصره ، فكان يخلق لهم من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله ، ويبرئ الأكمة[٢] ، والأبرص ، ويحيي الموتى بإذن الله ، قال عز شأنه وتقدست صفاته : ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾

---

(١) أعطى الله سيدنا موسى تسع آيات ، قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ﴾ [الإسراء ، الآية : ١٠١] ، وقال في سورة النمل : ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ﴾ - فتحة الثوب من عند العنق - ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ الآية ١٢.

وهذه الآيات هي : ١- العصا ٢- واليد ٣- والجراد ٤- والقمل ٥- والضفادع ٦- والدم ٧- والطوفان - ٨- والسنون أي الجدب والقحط ٩- ونقص الثمرات . والعلماء وإن اتفقوا على العدة ، إلا أن بعضهم يضع بعض الآيات مكان البعض الآخر كفلق البحر فإن بعضهم عده بدل « نقص الثمرات » على اعتبار أن السنين ، ونقص الثمرات شيء واحد . انظر تفسير ابن كثير عند تفسير آية الإسراء .

(٢) الأكمه : الذي وُلد أعمى .

وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٨، ٤٩] .

مع أن عيسى عليه السلام لم يكن ممن عرفوا بالنبوغ في الطب ولا ممن يمارسون هذه الصناعة ، فظهور مثل هذه الخوارق على يديه دليل على أنها من صنع الله ، وأنه صادق فيما ادعاه .

وخاتم النبيين وسيد البشر رسولنا محمد صلوات الله وسلامه عليه لما بعث في وقت اكتمل فيه العقل البشري وبلغت فيه البشرية سن الرشد ، واختير من قوم عرفوا بتملك زمام الفصاحة والبلاغة والتصرف في فنون القول وضروبه ، حتى كان غاية الشريف منهم أن يكون شاعرًا مفلقًا ، أو خطيبًا مصقعًا ، كانت آيته الكبرى قرآنًا يتلى بلغ أقصى درجات الفصاحة والبلاغة مع الإصابة في القول ، والحكمة في التشريع ، والصدق في المعاني ، والنبل في المقاصد ، والسمو في الأخلاق والآداب .

« وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليّ » .

« وحيًا » ، أي : كلامًا معجزًا حكيمًا أوحي إليه به من ربه وحيًا جليًا على لسان جبريل عليه السلام ، ليس لجبريل ولا للنبي ﷺ فيه حرف ، وإنما هو من كلام رب العالمين : ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء : ١٩٣ – ١٩٥] .

المراد به أنه أوتي القرآن معجزة عظمى وآياته باقية على وجه الدهر ، لا تفنى آياته ، ولا تنقضي عجائبه ، وقد كانت معجزات الأنبياء السابقين حسية تنقضي بانقضاء أزمانهم ، فهي لمن شاهدها ، أما معجزة نبينا الكبرى فكانت معنوية فحسب ، ولذلك سر .

١ – ذلك أن رسالات الأنبياء السابقين كانت لبعض الناس ولزمان مؤقت محدد ، فهي محدودة بحدود الزمان والمكان ، خلا رسالة نبينا محمد ﷺ فهي للناس كافة ، ومستمرة إلى يوم القيامة ، قال سبحانه : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] ، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ : ٢٨] ، ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨] .

وفي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم ، وغيرهما : « وكان كل نبي يُبعث إلى قومه خاصة ، وبُعثت إلى الناس عامة » .

٢- وأيضًا فقد جاءت الرسالة المحمدية في وقت بلغت فيه البشرية الكمال العقلي كما ذكرنا ، فاقتضت الحكمة الإلهية أن تكون آيته الكبرى معنوية باقية ما بقي إنسان ذو عقل وفكر على وجه الأرض .

والحصر المفهوم من كلمة « إنما » في قوله ﷺ : « وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليّ » ليس حقيقيًا ، وإنما هو ادعائي لأن القرآن هو معجزة المعجزات ، وآية الآيات ، فكأن المعجزات الحسية الأخرى لا تذكر بجانب القرآن الكريم .

وإذا كان الكلام سيق هذا المساق ، وخرج هذا المخرج فليس لأحد أن ينكر ما عدا القرآن العظيم من المعجزات الحسية التي ثبتت لنبينا محمد ﷺ ، فقد ثبت له ﷺ من المعجزات الحسية مثل ما ثبت لإخوانه الأنبياء ، بل وأكثر مما ثبت لهم ، منها ما ثبت بالقرآن الكريم المتواتر ؛ كالإسراء تصريحًا ، والمعراج تلويحًا ، وانشقاق القمر ، ومنها ما ثبت بالأحاديث المتواترة والصحيحة كنبع المياه من بين أصابعه الشريفة ، والبركة في القليل حتى يغني غناء الكثير كالطعام ، والماء ، ونحوهما .

وبحسبي في هذا المقام أن أنقل نصين عن إمامين كبيرين :

أحدهما : عن الإمام الكبير الشافعي- رحمه الله- نقل البيهقي عنه أنه قال : (ما أعطى الله نبيًا شيئًا إلا وأعطى محمدًا ﷺ ما هو أكثر منه) ، فقيل له : أعطي عيسى ابن مريم إحياء الموتى ، فقال : (حنين الجذع أبلغ ؛ لأن حياة الخشبة أبلغ من إحياء الميت) . ولو قيل : كان لموسى فلق البحر عارضناه بفلق القمر ! ، وذلك أعجب ؛ لأنه آية سماوية ، وإن سئلنا عن انفجار الماء من الحجر ؟ عارضناه بانفجار الماء من بين أصابعه ﷺ ، لأن خروج الماء من الحجر معتاد ، أما خروجه من اللحم والدم فأعجب ، ولو سئلنا عن تسخير الرياح لسليمان !! عارضناه بالمعراج »[1] . وهكذا لو نهجنا منهج الإمام الكبير الشافعي لما عجزنا عن أن نجد لكل معجزة لنبي سابق مثلًا لها أو أبلغ منها

---

(١) مناقب الشافعي رضي الله عنه (ص٣٨) .

لرسولنا محمد ﷺ، وعسى أن تكون لى عودة لهذا الموضوع الجليل .

ثانيهما : عن الإمام الحافظ ابن حجر - رحمه الله - قال في الفتح : (وأما ما عدا القرآن من نبع الماء من بين أصابعه وتكثير الطعام وانشقاق القمر ونطق الجماد ؛ فمنه ما وقع التحدي به ، ومنه ما وقع دالًّا على صدقه من غير سبق تحد ، ومجموع ذلك يفيد القطع بأنه ظهر على يده ﷺ من خوارق العادات شيء كثير ، كما تقطع بوجود جُود (حَاتم) ، وشجاعة (علي) ، وإن كانت أفراد ذلك ظنية وردت مورد الآحاد ، مع أن كثيرًا من المعجزات النبوية قد اشتهر ، وانتشر ، ورواه العدد الكثير ، والجم الغفير ، وأفاد الكثير منه القطع عند أهل العلم بالآثار ، والعناية بالسير والأخبار ، وإن لم يصل عند غيرهم إلى هذه المرتبة ، لعدم عنايتهم بذلك ، بل لو ادعى مدع أن غالب هذه الوقائع مفيدة للقطع بطريق نظري لم يكن مستبعدًا .

« فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة » .

رتب هذا الكلام على ما تقدم من كون معجزته الكبرى القرآن وهي مستمرة ومتجددة إلى يوم القيامة ينتفع بهذه المعجزة من غاب ، ومن حضر ، ومن وجد في زمانه ﷺ ، ومن سيوجد بعد إلى يوم القيامة ، فمن ثم حسن ترتيب الرجاوة المذكورة على ذلك ، وقد تحققت هذه الرجاوة ، فإنه أكثر الأنبياء تابعًا له ، ومقتديًا به ، فلله الحمد على ما أنعم ووفق .

* * *

(3) الأسوة الحسنة[1]

روى الإمام البخاري قال : حدثنا خلاد بن يحيى قال : حدثنا عبد الواحد بن أيمن عن أبيه قال : أتيت جابرًا رضي الله عنه فقال : إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كدية شديدة ، فجاءوا النبي ﷺ فقالوا : هذه عرضت في الخندق !! ، فقال : « أنا نازل » ، ثم قام وبطنه معصوب بحجر ، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقًا ، فأخذ النبي ﷺ المعول ، فضرب في الكدية فعاد كثيبًا أهيل ، أو أهيم ، فقلت : يا رسول الله ، ائذن لي إلى البيت ، فقلت لامرأتي : رأيت بالنبي ﷺ شيئًا ما كان في ذلك صبر !! ، فعندك شيء؟ قالت : عندي شعير ، وعناق ، فذبحت العناق ، وطحنت الشعير ، حتى جعلنا اللحم في البرمة ثم جئت النبي ﷺ والعجين قد انكسر والبرمة بين الأثافي قد كادت أن تنضج ، فقلت : طعيم لي ، فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان ، قال : « كم هو ؟ » ، فذكرت له ، قال : « كثير طيب » ، فقال : « قوموا » . فقام المهاجرون والأنصار ، فلما دخل على امرأته قال : ويحك ، جاء النبي ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم ، قالت : هل سألك ؟ قال : نعم ، فقال : « ادخلوا ولا تضاغطوا » ، فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم ، ويخمر البرمة والتنور إذا أخذ منه ، ويقرب إلى أصحابه ثم ينزع ، فلم يزل يكسر الخبز ويغرف حتى شبعوا ، وبقي بقية !! . قال : « كلي هذا وأهدي ، فإن الناس أصابتهم مجاعة » .

تخريج الحديث :

رواه الإمام البخاري في كتاب المغازي- باب غزوة الخندق وهي الأحزاب- وهو من أفراد البخاري عن مسلم .

الشرح والبيان :

(جابر بن عبد الله) : هو من خيار الصحابة وأفاضلهم ، وقد قدمت ترجمة له فيما سبق .

(فقال : إنا يوم الخندق نحفر) ، يوم : منصوب على الظرفية ، ونحفر : خبر إنا .

وغزوة الخندق أو الأحزاب كانت في شوال من السنة الخامسة على الصحيح ، وكان

---

(١) الأزهر : ج٤ - سنة ٤٢.

السبب في إيراد سيدنا جابر لهذه القصة الممتعة ما رواه الإسماعيلي بسنده عن أيمن هذا قال : قلت لجابر بن عبد الله ، حدثني بحديث عن رسول الله أرويه عنك ، فقال : (كنا مع رسول الله ﷺ يوم الخندق ...) ، وحدثه بهذا الحديث .

ورضي الله عن سيدنا جابر ، فما أعظم ما في الحديث من مثل عليا ، وتحمل للبرد والجوع والعطش في سبيل إعلاء كلمة الله والدفاع عن الوطن ، وما فيها من نبوءات صادقة للنبي ﷺ ، ومن معجزة له ظاهرة واضحة في البركة في الطعام القليل حتى أشبع المئين وفضل منه ، وكيف أن النبي ﷺ لم يأكل حتى أكل أصحابه وشبعوا ، وأنه شاركهم في الحفر ، وحمل التراب حتى وارى التراب جلده وصدره وبطنه ، وكان كلما وجد منهم تعبًا وإعياء نشطهم بدعائه ، وصدق حديثه ، ففي صحيح البخاري أيضًا عن أنس رضي الله عنه قال : (خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق ، فإذا المهاجرون والأنصار في غداة باردة فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم ، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال :

« اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة »

فقالوا مجيبين :

نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ما بقينا أبدا

وفي الصحيح أيضًا عن البراء بن عازب قال : (لما كان يوم الأحزاب وخندق رسول الله ﷺ رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني التراب جلدة بطنه ، وكان كثير الشعر ، فسمعته يرتجز بكلمات ابن رواحة وهو ينقل التراب ، يقول :

« اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الأولى قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا »

قال : ثم يمد صوته بآخرها[1] .

(فعرضت كدية شديدة) .

(١) في مد الصوت بهذا المقطع من هذا البيت ما فيه من التطابق بين اللفظ والمعنى ، واللحن المعبر عن المقصود فهو إيلاء ، أبى ، متصلى ، ممدود لا نهاية له ، لا يعرف للضعف والاستخذاء ، ولا الاستكانة والاستسلام للغة العربية في هذا الباب القدح !!

الكدية : القطعة الصلبة الصماء ، وفي وصفها بشديدة ما يدل على أنها صخرة استعصت على الكسر ، وقد ورد في الروايات الأخرى كما سيأتي التعبير عنها بالصخرة ، ولما عرضت لهم ، وعجزوا عن كسرها ذهبوا إلى النبي فأخبروه فقال : « أنا نازل » ، ثم قام وبطنه معصوب بحجر ، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقا) .

(معصوب) : أي مشدود ومربوط إلى بطنه ﷺ ، وقد كان ذلك من الجوع كما نصت عليه هذه الرواية وغيرها ، (ذواقا) : بفتح الذال المعجمة فعال بمعنى مفعول من الذوق ، ويقع على المصدر ، والاسم ، يقال : ذقت الشيء أذوقه ، ذوقًا ، وذواقًا ، وما ذقت ذواقًا ، وهو المأكول والمشروب ، كما قال ابن الأثير ، والفائدة في ربط الحجر عند شدة الجوع على البطن أنه يمنع من انحناء الصلب انحناء يضر ، ويساعد على شد الظهر ، وقيل : فائدته تسكين حرارة الجوع ببرودة الحجر ، والأول أولى .

(فأخذ النبي ﷺ المعول ، فضرب في الكدية ، فعاد كثيبًا أهيل ، أو أهيم) .

المعول : بكسر الميم ، وسكون العين المهملة ، وفتح الواو . وفي آخره لام : الفأس الذي يكسر به الحجر ، وقيل : المسحاة ، والأول هو الصحيح ، لأن المسحاة المجرفة ، وهي لا تكسر الصلب ، وفي بعض الروايات : (فأخذ المعول أو المسحاة) ، و(أو) للشك من أحد الرواة ، وقد عينت الرواية التي معنا المراد .

(الكثيب) هو الرمل ، قال تعالى : ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المُزَّمِّل : ١٤] . أي : تفتت حتى كادت كالرمل يسيل ، ولا يتماسك .

(أهيل) ، الأهيل هو الذي ينهال فيسيل من لينه ، ويتساقط من جوانبه .

(أو أهيم) ، (أو) : شك من الراوي ، والأهيم بمعنى الأهيل ، وقد جاءت رواية الإسماعيلي (أهيل) بغير شك .

وقد جاءت رواية البخاري في صحيحه مجملة ، وقد فسر هذه الإجمال ووضحه الروايات الأخرى .

فقد روى الإمام أحمد والنسائي هذه القصة بزيادة– بإسناد خسن– من حديث البراء ابن عازب قال : (لما كان حين أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق عرضت لنا في بعض الخندق صخرة لا تأخذ فيها المعاول ، فاشتكينا ذلك إلى النبي ﷺ فجاء فأخذ المعول

فقال : « بسم الله » ، فضرب ضربة فكسر ثلثها ، وقال : « الله أكبر ، أعطيت مفاتيح الشام ، والله إني لأبصر قصورها الحمر الساعة » ، ثم ضرب الثانية فقطع الثلث الآخر ، فقال : « الله أكبر ، أعطيت مفاتيح فارس ، والله إني لأبصر قصر المدائن أبيض » !! ، ثم ضرب الثالثة وقال : « بسم الله » ، فقطع بقية الحجر ، فقال : « الله أكبر ، أعطيت مفاتيح اليمن ، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا الساعة » !! .

وقد رواها الطبراني والبيهقي بأطول من هذا ، وفيها : (فذهب سلمان إلى رسول الله ﷺ فأخبره عنها ، فجاء فأخذ المعول من سلمان فضرب الصخرة ضربة صدعها ، وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتيها- أي المدينة- حتى كأنها مصباح في ليل مظلم ، فكبر رسول الله ﷺ وكبر المسلمون ، ثم ضربها الثانية فكذلك ، ثم الثالثة فكذلك ، فسألوا رسول الله ﷺ عن ذلك فقال : « لقد أضاء لي من الأولى قصور الحيرة ومدائن كسرى ، فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها ، ومن الثانية القصور الحمر من أرض الروم ، وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها ، ومن الثالثة قصور صنعاء ، وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها ، فأبشروا » . فاستبشر المسلمون وقالوا : موعود صادق[١] .

وقد صدق الله نبوءة نبيه ، فكانت معجزة ظاهرة من معجزات النبي ، إذ لم يمض على هذه الحادثة إلا نحو ربع قرن حتى فتحت هذه البلاد كلها ودخلت تحت لواء الإسلام ، ولذلك كان أبو هريرة رضي الله تعالى عنه يقول حين فتحت هذه الأمصار : (افتتحوا ما بدا لكم ، فوالذي نفس أبي هريرة بيده ما افتتحتم من مدينة ولا تفتحونها إلى يوم القيامة إلا وقد أعطى الله محمدًا ﷺ مفاتيحها قبل ذلك) .

وكنت أحب من الذين ينكرون نبوة نبينا محمد ﷺ أن يتأملوا في هذه النبوءات التي صدقها الزمن مع أن الظروف والملابسات التي قيلت فيها لا تحمل عليها ، فإن أشد الناس تفاؤلًا ما كان يجول بخاطره أن يقول هذا في وقت اشتد فيه الكرب ، وعظم البلاء ، وجهدوا أنفسهم في حفر الخندق حتى لا يبغتهم الأحزاب ، ولما ينتهوا منه ، اللهم إلا أن يكون نبيًّا يوحى إليه .

---

(١) فتح الباري (ج٧ ص٣٠٥ - ط بولاق) .

ولا جائز لقائل أن يقول : لعلها رمية من غير رام فأصابت !! ، لأنا نقول : إن تاريخ حياته ﷺ وما عرف عنه من الاتـئاد والتروي في الأمور وعدم المجازفة في القول إلى نحو ذلك مما أقر به الأعداء والأصدقاء يرد هذا الجواز ، ويبعده ، فلم يبق إلا أنها نبوءات صادقة من نبوءات الوحي ، فاعتبروا يا أولي الأبصار .

(فقلت : يا رسول الله ، ائذن لي إلى البيت) .

يعني : فأذن له ، وهو من الإيجاز الذي يدل عليه المقام .

(فقلت لامرأتي : رأيت بالنبي ﷺ شيئًا ما كان في ذلك صبر) !! .

امرأته هي السيدة سهيلة بنت مسعود الأنصارية ، إحدى نساء الأنصار الفضليات العاقلات ، يريد ما رأى من حال النبي من أثر الجهد والجوع حتى ربط الحجر على بطنه .

(فعندك شيء ؟)

يعني : أفعندك شيء ؟ فالكلام على الاستفهام ، فأجابته بأن عندها صاعًا من شعير وعناقًا ، وهي الأنثى من المعز .

(فذبحت) بضم التاء (العناق) ، (وطحنت) بفتح النون وسكون التاء ، فالذابح هو ، والطاحنة زوجه .

(ثم جئت النبي ﷺ ، والعجين قد انكسر ، والبرمة بين الأثافي قد كادت أن تنضج)

(انكسر) لان وتمكن منه الخمير حتى علا في الإناء ، (البرمة) بضم الباء وسكون الراء القدر الذي يطبخ فيه اللحم ، (الأثافي) بثاء مثلثة بعدها ألف ثم فاء هي الحجارة التي يوضع عليها القدر ، ويوقد تحته النار ، وهي ثلاثة ، واحدتها : أثفية .

(فقلت : طعيم لي ، فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان)

(طعيم) بضم الطاء وتشديد الياء التحتانية يريد أنه طعام قليل حقير لا يليق بمقام النبي ﷺ ، وقد قالوا : (من تمام المعروف تعجيله وتحقيره) ، وهو يتضمن اعتذارًا منه رضي الله عنه للنبي ﷺ من قلته ، وأنه غير لائق بمنزلته .

(قال : « كم هو ؟ » ، فذكرت له ، قال : « كثير طيب ») .

وكأن النبي استشعر من كلام جابر رضي الله عنه قلته ، فطمأنه وبشره بأنه ستحل فيه

البركة ويصير كثيرًا ، فسرى بذلك عن نفس جابر .

(فقال : « قوموا ...»)

أي : أمرهم النبي بالقيام إلى طعام جابر ، فقاموا جميعًا ، كما جاء في بعض الروايات : فقال للمسلمين جميعًا : « قوموا » ، وهو ما يليق بأدب الرسول ، فما كان ليخص قومًا دون قوم ، وإنما خص المهاجرين والأنصار بالذكر لشرفهم ، فلما دخل النبي والمسلمون أدرك زوجة جابر حرج شديد ، ولقيت من الحياء ما لا يعلمه إلا الله تعالى ، كما حدثت بذلك عن نفسها في رواية أخرى ، وسألت زوجها هل أعلم الرسول بالطعام ؟ فلما أعلمها أنه أعلمه سكنت نفسها واطمأنت ، وذهب عنها ما نزل بها من الغم والخوف أن لا يكفي الطعام ، لما تعلمه عن رسول الله من البركة والخير ، وهذا يدل على كمال عقلها وفور فضلها .

وتولى النبي الكريم المتواضع بنفسه إعداد الثريد ، وتقديم اللحم حتى أكلوا جميعًا ، وبقيت بقية منه فقال : « كلي هذا وأهدي فإن الناس أصابتهم مجاعة » ، قال جابر : (فأكلنا نحن وأهدينا لجيراننا) ، وقد اشتمل الحديث على هذه المعجزة أيضًا ، فإن البركة في الطعام القليل حتى يكفي الكثير مما لم يعهد في العادة ، وقد استفاضت الرواية عن الصحابة الكرام بذلك ، ورووا في ذلك قصصًا كثيرة في الصحيحين وغيرهما .

وبعد ، فما أشد حاجتنا اليوم في المرحلة الحرجة التي نمر بها أن نقتدي بالأسوة الحسنة نبينا محمد ﷺ وصحبه الكرام الذين تكالبت عليهم عوامل الشر والبغي فما زادهم ذلك إلا إيمانًا بحقهم وثباتًا على مبادئهم حتى كانت العاقبة لهم ، ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرًا .

وما أجدر قوادنا في الميدان أن يقتدوا بالمثل الكامل ﷺ ، فقد رأينا كيف شارك جنده المسلمين في البأساء والضراء ، والعسر واليسر ، والجوع والعطش ، وإنه أبى أن يستأثر عليهم براحة أو بطعام أو شراب ، وغبر نفسه ساعات في سبيل الله وهو قرير العين ، رضي النفس ، ولا عجب ، فقد كان أرحم بهم من أنفسهم ، صلوات الله وسلامه عليك يا رسول الله يا بطل الأنبياء ، ويا إمام الأتقياء .

(4) خاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ[١]

روى الشيخان في صحيحيهما بسندهما عن أبي هريرة- واللفظ لمسلم- أن رسول الله ﷺ قال : « مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنيانًا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ، فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين » .

ورويا في صحيحيهما بسندهما عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه - واللفظ لمسلم- عن النبي ﷺ قال : « مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى دارًا فأتمها وأكملها إلا موضع لبنة ، فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها ويقولون : لولا موضع اللبنة » ، قال رسول الله ﷺ : « فأنا موضع اللبنة ، جئت فختمت الأنبياء » .

تخريج الحديث :

رواهما الإمام البخاري في صحيحه : كتاب أحاديث الأنبياء- باب خاتم النبيين- .
ورواهما الإمام مسلم في صحيحه : كتاب الفضائل- باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين- .
وأخرج الأول أيضًا النسائي في كتابه (التفسير)[٢] ، وأخرج الثاني الترمذي في (الأمثال) .

الشرح والبيان :

« مثلي ومثل الأنبياء من قبلي ...»

المثل ، والمثل ، والمثيل كالشبه ، والشبه ، والشبيه وزنًا ومعنى ، ثم نقل من هذا المعنى اللغوي إلى معنى آخر عرفي وهو القول السائر الممثل مضربه- الذي ضرب فيه ثانيًا- بمورده ، أي : الذي قيل فيه أولًا لوجود الشبه بينهما ، ولم يضربوا مثلًا ، ولا رأوه أهلًا للتيسير ، ولا جديرًا بالتداول والقبول إلا إذا كان قولًا فيه غرابة ، ومن ثم حوفظ عليه وحمي من التغيير .

ثم استعير المثل للحال أو الصفة ، أو القصة إذا كان لها شأن وفيها غرابة ، أي : صفتي وصفة الأنبياء من قبلي ، وقصتي وقصتهم ، كصفة وقصة رجل بنى بيتًا فأحسنه وأجمله ... إلخ .

---

(١) مجلة الأزهر : ج٤ - سنة ٤٢.
(٢) عمدة القاري (ج٧ ص٥١٢).

« كمثل رجل بنى بنيانًا فأحسنه ، وأجمله ، إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه » .

وفي بعض روايات الإمام مسلم : « ابتنى بيوتًا » ، وفي بعضها : « بنى دارًا » ، وفي رواية البخاري : « بنى بيتًا » ، والمعنى متقارب ، وكلها داخلة تحت اسم البنيان ، « فأحسنه » : بأن أسسه تأسيسًا جيدًا متينًا ، « وأجمله » : بأن جعله على حالة من الجمال تستلب اللب ، وتستهوي النظر ، فاجتمع فيه حسن التأسيس ، مع جمال الشكل . « إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه » ، اللبنة : بفتح اللام وكسر الباء الموحدة بعدها نون واحدة : اللبن ، وفي لغة بكسر اللام وسكون الباء وهي القطعة من الطين تعجن وتجفف ، ويبنى بها ، فإذا أحرقت سميت « آجرة » . « زاوية من زواياه » ، أي : ركن من أركانه .

« فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة »

هلا : أداة تحضيض وحث للباني على أن يكمل هذه اللبنة التي كان عدمها يذهب بجماله ، وفي رواية البخاري في صحيحه : « لولا موضع اللبنة » ، فلولا إما بمعنى هلا ، وتكون الروايتان بمعنى ، أي : لولا سوى وأكمل موضع اللبنة ، ويجوز أن تكون « لولا » شرطية ، وما بعدها مبتدأ ، والخبر محذوف ، وتقدير الكلام : لولا موضع اللبنة خاليًا لكان بنيان الدار على غاية الكمال ، فهي حرف امتناع لوجود ، فامتنع الكمال التام لوجود هذا النقص في البناء .

« فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين » .

فبغير هذه اللبنة لن يتم للبيت الكمال والجمال .

وهذا التشبيه التمثيلي من الروعة بمكان ، ولو سلك به تشبيه المفرد بالمفرد على جعل الأنبياء جميعًا كرجل واحد مشبه برجل بنى دارًا لما كان له هذه الروعة التي تأخذ بمجامع القلوب والعقول والوجدان .

وهذا فرق ما بين التشبيه التمثيلي وغير التمثيلي ، فالأول يكون مستجمعًا للصورة كلها والحركة والتأثير ، ولا كذلك تشبيه المفردات بالمفردات ، فمن ثم كان المذهب الأول هو الفحل والجزل عند العرب .

وتقرير هذا التشبيه التمثيلي أن نقول : شبه حال الأنبياء من لدن آدم عليه السلام إلى خاتمهم عليه وعليهم الصلاة والسلام وما بعثوا به من عقائد وأحكام ومكارم الأخلاق

ومحاسن الأفعال بحال وصفة بنيان أسست قواعده ، ورفع بنيانه حتى وصل بعد تمامه إلى درجة عالية من الكمال والجمال والجلال .

وقد دل هذا التمثيل على أن الذي أتم الدين وأكمل الشرائع وتمم مكارم الأخلاق حتى أوفى على الغاية في كل ذلك هو نبينا محمد ﷺ .

وليس هذا بعجيب ، فقد كانت رسالات الأنبياء السابقين خاصة في الزمان والمكان ورسالة نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه عامة للناس كافة : أبيضهم وأسودهم ، عربهم وعجمهم .

وكذلك كانت رسالة كل نبي تنتهي ببعثة نبي آخر بعده ، أما رسالة نبينا محمد ﷺ فهي خالدة باقية إلى يوم القيامة .

كون النبي خاتم الأنبياء معلوم من الدين بالضرورة :

وكون النبي ﷺ خاتم الأنبياء معلوم من الدين بالضرورة ، فقد تواترت على ذلك الأدلة المتكاثرة من القرآن والسنة الصحيحة المشهورة .

ففي الكتاب الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه يقول الله تعالى : ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب : ٤٠] . وسواء قرئ خاتم- بفتح التاء- أو خاتم- بكسر التاء- فالمراد به آخر الأنبياء . أما على الثاني فظاهر ، وأما على الأول فلأن الختم على الشيء يقتضي عدم دخول شيء فيه ، وعدم مجيء شيء يشبهه بعده .

ومعنى كونه خاتم النبيين وآخرهم أنه لا نبي بعده ، وإذا انتفت النبوة انتفت الرسالة ، فكل رسول نبي ولا عكس ، وقد كان التعبير القرآني محكمًا غاية الإحكام ، فلو أن الله قال : « وخاتم الرسل » ، لوجد الزنادقة والدجاجلة ثغرة ينفذون منها إلى دعواهم الكاذبة الآثمة ، ولقالوا : نحن لا ندعي الرسالة ، وإنما ندعي النبوة ، فسبحان الله العليم بكل ما كان وكل ما يكون .

قال ابن كثير في تفسيره : (وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ من حديث جماعة من الصحابة) ، ولعل ابن كثير يريد التواتر المعنوي ، فإن الأحاديث في جملتها تدل على أنه خاتم النبيين ، فمن ذلك الحديث الذي رواه مسلم أيضًا في صحيحه

بسنده عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلت لي الغنائم ، وجعلت لي الأرض طهورًا ومسجدًا ، وأرسلت إلى الخلق كافة ، وختم بي النبيون » .

وروى الإمام أحمد في مسنده والبخاري في تاريخه وغيرهما عن العرباض بن سارية قال : قال لي النبي ﷺ : « إني عبد الله ، وخاتم النبيين ، وإن آدم لمنجدل[1] في طينته » . أي : إن هذا الأمر قدر في الأزل ، وقبل أن يخلق الله الخلق ، وروى الإمام أحمد من حديث أبي الطفيل قال : قال رسول الله ﷺ : « لا نبوة بعدي إلا المبشرات » ، قيل : وما المبشرات يا رسول الله ؟ قال : « الرؤيا الحسنة ، أو الرؤيا الصالحة » .

وفي الصحيحين عن جبير بن مطعم عن أبيه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن لي أسماء ، أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحي الذي يمحو الله تعالى به الكفر ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي ، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي » .

وفي الصحيحين أيضًا عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لما خرج لغزوة تبوك خلف عليًا على أهله ، فقال : يا رسول الله ، أتخلفني في النساء والصبيان ؟ قال : « أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبي بعدي » .

وقد أجمع على ذلك المسلمون ، قال الإمام الآلوسي في تفسيره عند تفسير قوله تعالى : ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ : (وكونه ﷺ خاتم النبيين مما نطق به الكتاب ، وصدعت به السنة ، وأجمعت عليه الأمة ، فيكفر مدعي خلافه ، ويقتل إن أصر) .

ولا يشكلن عليك أيها القارئ ما روي في الأحاديث الصحيحة المتكاثرة من نزول سيدنا عيسى عليه السلام آخر الزمان حكمًا عدلًا ، لأنه لا ينزل بشرع جديد ، وإنما ينزل منفذًا وحاكمًا بشريعة خاتم الأنبياء والمرسلين ، فهو كغيره من الحكام والخلفاء المسلمين ، ولذلك لما يعرض عليه أن يصلي بالناس إمامًا يأبى تكرمة للأمة المحمدية ، وبذلك يزول كل لبس أو شبهة .

---

(١) أي ملقى على الجدالة وهي الأرض ، وذلك قبل أن تنفخ فيه الروح .

التحذير من البابية والبهائية والقاديانية[1] وأمثالهم :

وليس بعد هذه الأدلة القاطعة من القرآن والسنة إلا أن تعتقد أن نبينا محمدًا هو خاتم الأنبياء والمرسلين ، وأن لا تلقي بالًا لما يزعمه بعض الدجالين[2] وأرباب الحيل والشعوذة من إدعاء النبوة ، كما فعل المزعوم (بهاء الله) ، وكما فعل (غلام أحمد القادياني) ، وغيرهما من الكذابين ، لأن الله قد أكمل الشريعة وأظهر الدين ، وبين جميع ما يحتاج إليه البشر في دينهم ودنياهم بالشريعة المحمدية ، فما من حكم مما يحتاج إليه البشر إلا ويلتمس بيانه في القرآن أو السنة ، إما بطريق النص والتصريح ، وإما بطريق القياس والتنظير ، وإما بطريق الاجتهاد والتخريج على القواعد والأصول التي أخذت منهما ، وفهمت من روح التشريع وحكمته ، وهذه حجة عقلية دامغة على كونه ﷺ خاتم الأنبياء ، فمن ادعى إكمالًا للدين بعد هذا فقد ضل وغوى ونأى عن الصراط المستقيم .

وقد أخبر الرسول الذي لا ينطق عن الهوى عن ظهور هؤلاء الدجاجلة الذين يدعون النبوة بعده فقال فيما صح عنه : « سيكون من بعدي قريب من ثلاثين دجالًا كلهم يدعي النبوة » .

وهؤلاء الكذابون منهم من ظهر في عهده ، كمسيلمة الكذاب ، وسجاح ، ومنهم من ظهر بعده كالأسود العنسي ، ومنهم من ظهر في العصور الأخيرة ، كالباب ، والبهاء ، والقادياني .

وقد بالغ أتباع الدجال (البهاء) فادعوا أن الله حل فيه ، كما زعم بعض النصارى في عيسى ابن مريم ، وهذه النحل الباطلة ترجع إلى نحلة (الباطنية) ، وهم طوائف من المجوس ، ومن اليهود رأوا قوة الإسلام وسلطانه ، ولم يجدوا وسيلة إلى مقاومته بالقوة ، فلجأوا إلى الزندقة والتستر بالتشيع ، وصاروا يحرفون في معاني القرآن بتأويله بتأويلاتهم الباطلة التي لا يدل عليها عقل ولا شرع ولا لغة ، ووجدوا من الأتباع من تابعهم على باطلهم واغتر بظواهرهم ، إذ هم يلتحفون بالتظاهر بالإسلام ويبطنون الكفر والعقائد الباطلة والأفكار الزائفة .

(١) « البابية » : نسبة إلى « الباب » ، وهو لقب ميرزا علي محمد الذي ابتدع هذه النحلة الباطلة ، و« البهائية » : نسبة إلى « بهاء الله » ، لقب لُقِب به ميرزا حسين علي ، وهو الزعيم الثاني للمذهب الذي تدعيه الطائفة المسماة « بالبهائية » أو « البابية » ، و« القاديانية » : نسبة إلى غلام أحمد القادياني ؛ نسبة إلى بلدة تسمى « قاديان » ، وهي طوائف ضلت وأضلت ، وانظر « البابية والبهائية عقائد وشرائع » طُبع مؤخرًا بمكتبة السنة .

(٢) الدجال : الكذاب المموه على الناس .

وليس أدل على بطلان دعاوى هؤلاء المبطلين من أنهم يحرفون كلم القرآن عن مواضعه ، فزعموا أن المراد بقوله : ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أي : أنه كالخاتم في الإصبع ، أي : زينة النبيين ، وهو تفسير لا يشهد له عقل سليم ولا نقل صحيح ، ثم كيف يتفق هذا وما تواترت به السنة من أنه خاتم الأنبياء وآخرهم ؟ !

وقد اتخذوا من تملق الجماهير ، ووضع أو تخفيف بعض الأحكام الشرعية عنهم ، بل أتى (البهاء) بما زعم أنه وحي أوحي إليه كالقرآن ، وما جاءوا به لا يخرج عن عبث الصبيان ، وهذيان المحمومين ، وقد اتخذ أعداء الإسلام ودول الاستعمار من بعض هؤلاء - كغلام أحمد القادياني - وسيلة لتفريق كلمة المسلمين ، وإشاعة الفرقة والانقسام بينهم ، وإفساد دينهم ، ولكن هيهات هيهات أن يكون لهم ما يريدون ، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [التوبة : ٣٢] . صدق الله العظيم ، وبلغ رسوله الكريم .

* * *

[٣] أخلاق النبي ﷺ

(1) من أخلاق النبي ﷺ[١]

روى الشيخان في صحيحيهما بسندهما عن أنس رضي الله عنه قال : « كان النبي ﷺ أحسن الناس ، وأجود الناس ، وأشجع الناس ، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق الناس قبل الصوت فاستقبلهم النبي ﷺ ، وقد سبق الناس إلى الصوت وهو يقول : « لم تراعوا ، لم تراعوا » ، وهو على فرس لأبي طلحة عري ما عليه سرج في عنقه سيف فقال : « قد وجدته بحرًا ، أو إنه لبحر » . وهذا لفظ البخاري .

ولفظ مسلم : (كان رسول الله ﷺ أحسن الناس ، وكان أجود الناس ، وكان أشجع الناس ، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق ناس قبل الصوت ، فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعًا ، وقد سبقهم إلى الصوت ، وهو على فرس لأبي طلحة عري في عنقه السيف وهو يقول : « لم تراعوا ، لم تراعوا » ، قال : « وجدناه بحرًا أو إنه لبحر » ، قال : « وكان فرسًا يبطأ » .

تخريج الحديث :

أخرج هذا الحديث البخاري أو بعضه في مواضع كثيرة من كتابه : في كتاب الهبة وفضلها- باب من استعار من الناس الفرس- ، وفي كتاب الأدب- باب حسن الخلق والسخاء ، وما يكره من البخل- ، وفي كتاب الجهاد- باب إذا فزعوا بالليل ، وباب الشجاعة في الحرب- ، وباب ركوب الفرس العري ، وباب مبادرة الإمام عند الفزع- وغيرها .

وأخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الفضائل- باب شجاعة النبي ﷺ - من طرق عدة .

الشرح والبيان :

أما أنس بن مالك فقد تقدمت ترجمته .

---

(١) الأزهر : ج٣ - سنة ٤٢ - ربيع الأول ١٣٩٠هـ - مايو ١٩٧٠ م .

(كان رسول الله ﷺ أحسن الناس) .

يعني : في الخَلق- بفتح الخاء- ، والـخُلُق- بضم الخاء واللام- ، والـخَلق يتعلق بالجسم والصورة ، والـخُلُق يتعلق بالطباع والسجايا والشمائل ، ورسولنا ﷺ قد جمع الله له الكمالين : الجسماني والـخُلُقي ، وكان فيهما على سواء .

وقد تكفلت كتب الأحاديث والسير ببيان كماله الـخَلقي والـخُلُقي ، أما كماله الـخَلقي فقد ورد في الصحيحين وغيرها عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : (كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهًا ، وأحسنهم خلقًا[١] ، ليس بالطويل البائن[٢] ، ولا بالقصير) . ولكنه ﷺ كان أقرب إلى الطول ، ولا ينافي هذا وصفه ﷺ في الروايات الأخرى بكونه ربعة[٣] ، لأن ذلك من الأمور النسبية .

ومع هذا فقد وقع في حديث عائشة عند ابن أبي خيثمة : (لم يكن أحد يماشيه من الناس ينسب إلى الطول إلا طاله رسول الله ﷺ ، ولربما اكتنفه الرجلان الطويلان فيطولهما ، فإذا فارقاه نسبا إلى الطول ، ونسب رسول الله ﷺ إلى الربعة) .

ولا أدري أكان ذلك من خصوصياته ومعجزاته الـخَلقية كما قال بعض الأئمة ، أم أن كماله ﷺ الجسماني ومهابته في العيون والقلوب تخيل إلى الرائي أنه يطول أي طويل ؟ ويتضائل بجانبه أي فارع ؟ !

وقد ورد في الصحيحين[٤] وغيرهما في صفاته الجسمانية أحاديث كثيرة تجعله ﷺ في الذروة من كمال الجسم والخلقة ، ولعل أوفى ما روي في هذا ما رواه سبط رسول الله الحسن ابن علي عن خاله هند بن أبي هالة ربيب رسول الله ، وكان وصافًا ، وقد ذكره الترمذي في شمائله وغيره ، وعسى أن تكون لي عودة لهذا في مناسبة أخرى إن شاء الله تعالى .

---

(١) الأكثرون من العلماء على أنه بفتح الخاء ويكون من عطف العام على الخاص بيانًا لكماله الجسماني في الوجه وغيره ، وقيل : بضم الخاء فيكون من عطف المغاير .

(٢) أي الظاهر الطول والخارج عن حد الاعتدال .

(٣) بين الطويل والقصير .

(٤) انظر : صحيح البخاري ، باب صفة النبي ﷺ ، وصحيح مسلم ، كتاب الفضائل ، وكتاب الشمائل النبوية للترمذي ، والشفا للقاضي عياض ، والسنن للبيهقي ، والمواهب اللدنية للقسطلاني ، والبداية والنهاية لابن كثير ، وغيرها كثير .

وأما حسن شمائله وأخلاقه ﷺ - من سماحة وجود وشجاعة وعفو وحلم وتواضع ورحمة ورأفة وإغضاء وعدم انتقام لنفسه - فحدث عنها ولا حرج، وقد اشتملت كتب الاحاديث والسير والتاريخ من ذلك على الشيء الكثير، وألفت فيه كتب ورسائل.

(وأجود الناس) :

وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل في كل ليلة منه، فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة، روى هذا الشيخان عن ابن عباس.

وكان من جوده وسخائه (أنه لا يسأله أحد شيئًا وهو عنده فيقول : لا، وقد جاءه رجل فسأله فأعطاه غنمًا بين جبلين، فرجع الرجل إلى قومه فقال : يا قوم أسلموا فإن محمدًا يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة) . رواه مسلم في صحيحه، ولما تكاثر عليه الناس منصرفة من حنين وقد قسم بينهم الغنائم قال لهم : « لو كان لي عدد هذه العضاة[1] لقسمته بينكم ثم لا تجدوني بخيلًا، ولا كذوبًا، ولا جبانًا »، وقد أعطى المؤلفة قلوبهم يوم حنين حتى رضوا وغدا الإسلام أحب إليهم من الدنيا وما عليها، وصار الله ورسوله أحب إليهم مما سواهما.

(وكان أشجع الناس) :

والشجاعة نوعان : شجاعة الرأي، والمصارحة بالحق مهما قل الناصرون، وكثر المعادون، وشجاعته في مواطن الجهاد والهزال والطعان، وقد استأثر النبي ﷺ بكمال الشجاعتين، وليس أدل على الأولى مما رواه كُتّاب السير من أن قريشًا وقد ضاقت بالنبي ذرعًا ولم تجد معه سياسة الإيذاء ولا سياسة الاستمالة والإغراء، جاءوا إلى عمه أبي طالب وقالوا له : إما أن تكف عنا ابن أخيك وإما أن ننازله وإياك، وعز على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم له وهو شريفهم وسيدهم، كما عز عليه إسلام ابن أخيه لهم أو خذلانه، فأرسل إليه وأخبره بما قالوا، وقال له : فابق عليّ وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق، فظن رسول الله ﷺ أنه بدا لعمه رأي أو أنه خاذله ومسلمه، أو أنه قد ضعف عن نصرته ووقفت الدنيا تصيخ إلى ما عسى تفتر عنه شفتا النبي، وانتظر عمه أبو طالب الجواب فإذا

---

(١) شجر ذو شوك يكثر بالصحاري والبوادي.

النبي ﷺ يقول : « يا عم ، والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته » . ثم استعبر الرسول وبكى وقام ! . ووقف الشيخ المهيب في قومه مشدوهًا أمام هذه العظمة الخلقية ، والبطولة النفسية ، فنادى ابن أخيه ، فلما أقبل عليه قال له : قل يا ابن أخي ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبدًا .

وأما البطولة الجسدية فكان فيها نسيج وحده ، فقد ثبت في المواقف الحرجة حيث فر بعض الشجعان ، ثبت في أحد ، وثبت في حنين ، وهو يردد ويقول : أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب .

ولولا ثباته ﷺ في أحد لكانت الهزيمة ساحقة ماحقة ، وبفضل ثباته في حنين تبدلت الهزيمة إلى نصر وغنيمة ، وإنا لنستشف هذه البطولة الفائقة من قولة فتى الفتيان ، والشجاع الذي لم يفر قط سيدنا علي رضي الله عنه قال : (إنا كنا إذا حمي البأس[1] ، واحمرت الحدق[2] ، اتقينا برسول الله ﷺ ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه ! ، ولقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي ﷺ وهو أقربنا إلى العدو ، وكان من أشد الناس بأسًا) . رواه أحمد . وأعظِم بها من شهادة من مثل البطل علي . إلى غير ذلك من البطولات النفسية والجسمانية التي تستحق كتابًا برأسه .

وقد اقتصر سيدنا أنس رضي الله عنه على هذه الشمائل الثلاث من شمائله ﷺ لأنها أمهات الأخلاق والفضائل ، فإن في كل إنسان ثلاث قوى : القوة الغضبية ، والقوة الشهوانية ، والقوة العقلية ، وقد بلغ رسول الله الكمال الخلقي في هذه القوى الثلاث ، فكمال القوة الغضبية بالشجاعة ، وكمال القوة الشهوانية بالعفة التي هي من أظهر مظاهرها الجود والسخاء ، وكمال القوة العقلية بالحكمة ، وهي إحكام الفكرة ، والإصابة في القول ، بل وفي العمل والاعتقاد ، وقد تضمنت الفقرة الأولى هذه الفضيلة فإن الأحسنية تشمل الإصابة في الاعتقاد والقول والعمل ، ومن ثم يتبين لنا أن هذا الحديث من جوامع الكلم ، ثم دلل سيدنا أنس على كونه ﷺ أشجع الناس بهذه القصة الآتية ، قال : (ولقد

(١) اشتدت الحرب .
(٢) أي غلا الدم في العروق حتى احمرت العيون .

فزع أهل المدينة ذات ليلة) ، فزع – بكسر الزاي –: خاف ، ذات ليلة : أي : في ليلة من الليالي ، وكان فزعهم لأنهم سمعوا صوتًا مزعجًا ، فخافوا أن يكون قد دهمهم عدو في عقر دارهم .

(فانطلق الناس قبل الصوت) :

قِبَل – بكسر القاف وفتح الباء –: أي : جهة المكان الذي ظنوا أن الصوت منه .

(فاستقبلهم النبي ﷺ قد سبق الناس إلى الصوت) :

أي : استقبلهم راجعًا والحال قد سبق الناس إلى مصدر الصوت ، فالجملة حالية ، وقد جاءت رواية مسلم أوضح من هذه ، وهكذا خف الراعي إلى مكان الصوت قبل أن تخف الرعية ، فلله ما صنع رسول الله !!

(وهو على فرس لأبي طلحة عري) :

الفرس : تطلق على الذكر والأنثى ، والمراد هنا الأول بدليل رجوع الضمير عليه مذكرًا ، و(أبو طلحة) هو زيد بن سهل الأنصاري ، زوج السيدة (أم سليم) ، وهي أم أنس بن مالك راوي الحديث ، وخادم رسول الله ، وكان أبو طلحة من خيار الأنصار ، وهو الذي تصدق ببئر له تسمى (بير حاء) وكانت من أعذب المياه وأحلاها وأحبها إليه ، وذلك لما نزل قوله تعالى : ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] . وكان رسول الله يستعذبها ، ويشرب منها .

« عري » بضم العين ، وسكون الراء ، وتفسيره ما بعده وهو « ما عليه سرج » .

وهذا الوصف خاص بغير الآدمي كالخيل ، يقال : فرس عري ، ولا يقال : عريان ، كما لا يقال : رجل عري ، وإنما يقال : عريان .

(في عنقه سيف) :

الضمير يعود على النبي بدلالة المقام ، أي : وهو ﷺ متقلد سيفه كما هو شأن المجاهد المدافع لا يفارقه سيفه في مثل هذه المواطن .

وفي ركوبه ﷺ على فرس ليس عليه سرج دلالة واضحة على فروسيته البالغة ، فإنه لا يركب الفرس بدون سرج إلا من تمكن في الفروسية ، وعرك ركوب الخيل ، ولازم ذلك .

(وهو يقول : « لم تراعوا ، لم تراعوا »)

معظم الروايات في البخاري ومسلم بلفظ : « لم » وفي بعض روايات البخاري : « لن تراعوا ، لن تراعوا » ، وهي رواية أبي ذر الهروي في كتاب الأدب ، أي : لا تخافوا أو لم تراعوا روعًا مستقرًا أو يؤذيكم وإنما هو أمر عارض .

« قد وجدته بحرًا ، أو إنه لبحر » .

البحر من الخيل : واسع الجري شبهه بالبحر لسعته ، و(أو) للشك أي الجملتين قالها النبي ﷺ ، والمعنى واحد ولكنها دقة المحدثين والرواة ؛ تأبى عليهم إلا التدقيق في تحري الألفاظ .

وفي رواية مسلم : (وكان فرسًا يبطأ) يعني أنه لم يكن معروفًا بالسرعة الفائقة ، ولكن لما ركبه ﷺ صار بحرًا في سرعة جريه ، وطول نفسه في الجري ، وهذا من بركاته ﷺ وخيره على العالمين .

وبعد ، فإنا نرجو أن يكون لنا في هذا الخلق النبوي العظيم أسوة حسنة لمن كان يريد خيري الدنيا والآخرة ، ولا سيما في سهره ﷺ وحدبه على مصلحة الرعية ، واليقظة التامة والحذر الشديد من أن يبغت المدينة باغت ، أو يدهمها عدو ، وفي غزوة الخندق التي تكالبت على المسلمين فيها جموع الشرك والغدر والخيانة من اليهود كان النبي يقضي ليله سهران يصلي ويدعو الله : « اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا » ، ويقول : « اللهم منزل الكتاب ومجري السحاب وهازم الأحزاب اهزم أعداءنا ، وانصرنا عليهم » ، فلنأخذ في إعداد العدة للأعداء ، وفي أسباب النصر ، ولنرفع أكفنا بهذا الدعاء حتى يحقق الله لنا النصر والرجاء ، كما كتبه لأسلافنا الأولين .

❋ ❋ ❋

(2) الدعوة إلى القصد في المعيشة والنفقة[1]

روى الشيخان في « صحيحيهما » بسندهما عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أنها قَالَتْ لِعُرْوَةَ ابْنَ أُخْتي : إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلى الهِلالِ ، ثمَّ الهِلالِ ، ثمَّ الهِلالِ ، ثَلاثَةَ أَهِلَّةٍ في شَهْرَيْنِ وَمَا أُوقِدَتْ في أَبْيَاتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ نَارٌ ، فَقُلْتُ : يَا خَالَةُ ، مَا كَانَ يُعِيشُكُمْ ، قَالَتِ : الأَسْوَدَانِ : التَّمْرُ وَالمَاءُ ، إلا أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ جِيرَانٌ مِنَ الأَنْصَارِ كَانَتْ لهُمْ مَنَائِحُ ، وَكَانُواْ يمْنَحُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ مِنْ أَلْبَانِهِمْ فَيَسْقِينَاه . وهذا لفظ البخاري .

تخريج الحديث :

رواه الإمام البخاري في الصحيح -كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها- وفي كتاب الرقاق- باب كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه ، وتخليهم عن الدنيا .

الشرح والبيان :

(عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أنهَا قَالَتْ : لِعُرْوَةَ ابْنَ أُخْتي) .

السيدة عائشة هي أم المؤمنين وبنت الصديق رضي الله تعالى عنه ، وعروة هو ابن الزبير ابن العوام حواري رسول الله ﷺ وابن عمته السيدة صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها .

(ابْنَ أُخْتي) بنصب لفظ ابن لأنه منادى حذف منه حرف النداء ، وهو أسلوب عربي أصيل ، أي : يا ابن أختى ، وأختها هي السيدة ذات النطاقين : أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنه ، وزوج الزبير بن العوام .

(إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلى الهِلالِ ، ثمَّ الهِلالِ ، ثمَّ الهِلالِ ، ثَلاثَةَ أَهِلَّةٍ في شَهْرَيْنِ) .

إن : هي المخففة من الثقيلة ، ولذلك أتى بعدها باللام الفارقة بين إن المخففة من المثقلة ، وإن النافية ، وهي تدخل على الجملتين الاسمية والفعلية ، فإن دخلت على الاسمية جاز إعمالها خلافًا للكوفيين ، وإن دخلت على الجملة الفعلية وجب إهمالها ، والأكثر أن يكون الفعل بعدها ماضيًا ناسخًا ، وهلهنا كذلك ، واسم (إن) المخففة ضمير مستتر ، والجملة بعدها هي خبرها .

---

(١) الأزهر ج٣ سنة ٤٤.

والهلال : هو ما يبدو من القمر في أول الشهر .

(ثَلاثَةَ أَهِلَّةٍ في شَهْرَيْنِ) لفظ ثلاثة يجوز فيه الجر ، والنصب ، أما الجر فعلى البدل مما قبله ، فقد ذكر لفظ الهلال ثلاث مرات ، وأما النصب فعلى محذوف ملائم : أي : نرى ثلاثة أهلة في مدة شهرين ، وذلك باعتبار رؤية الهلال في أول الشهر الأول ، ثم رؤيته في أول الشهر الثاني ، ثم رؤيته في أول الشهر الثالث ، فهي ثلاثة أهلة ، ولكنهما شهران فحسب .

(وَمَا أُوقِدَتْ في أَبْيَاتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ نَارٌ) .

(أُوقِدَتْ) على صيغة المبني للمجهول من الإيقاد مصدر الفعل الرباعي (أوقد) .

وهذا الكلام من قبيل الكناية البديعة ، والمراد : عدم الطبخ ، والخبز ، والاكتفاء بالتمر والماء ، وقد جاء ذلك صريحًا في رواية أبي هريرة رضي الله عنه قال : (كان يمر برسول الله ﷺ هلال ، ثم هلال ، ثم هلال ، لا يوقد في شيء من بيوته نار لا لخبز ، ولا لطبخ) . رواه ابن سعد .

وقد دل قول عائشة رضي الله عنها في الحديث : (في أَبْيَاتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ) على أن ذلك يكاد يكون عامًّا في أبيات زوجات رسول الله ﷺ ، فقد رضين رضي الله عنهن بما رضى به رسول الله ﷺ عن قناعة ، وطيب نفس ، وزهد في التوسع في المآكل والمشارب ، وقد جاور رسول الله ﷺ الرفيق الأعلى وله تسع نسوة عدا من توفيتا في حياته : السيدة خديجة ، والسيدة زينب أم المساكين ، ولا يخالف هذا الحديث الحديث الآخر الذي رواه البخاري في صحيحه في كتاب الرقاق من طريق هشام بن عروة عن أبيه عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ : (كَانَ يَأْتِي عَلَيْنَا الشَّهْرُ مَا نُوقِدُ فِيهِ نَارًا إِنَّمَا هُوَ التَّمْرُ وَالمَاءُ إِلا أَنْ نُؤْتَى بِاللُّحَيْمِ) . تصغير لحم ، والمراد التقليل ، وقد أخرجه ابن ماجه في سننه عن أبي سلمة عن عائشة بلفظ : (لقد كان يأتي على آل محمد الشهر ما يرى في بيت من بيوته الدخان) كناية عن عدم إيقاد النار ، لأن ذلك كان يختلف باختلاف الأزمان والأحوال ضيقًا وسعة ، ويسرًا وعسرًا .

فقد عانى المسلمون قبل الهجرة وبعدها ما عانوا من ضيق العيش والفقر ، ولا سيما النبي ﷺ وآله ، حتى فتحت عليهم الدنيا فتوسع في المعيشة من توسع والتزم القصد

والتحمل الكثيرون منهم ، ولم تغرهم متع الحياة وطيباتها ، وكانت حياة النبي وآل بيته والصفوة من صحابته الغاية في القصد ، والتوسط .

(فَقُلْتُ : يَا خَالَةُ ، مَا كَانَ يُعِيشُكُمْ ، قَالَتِ : الأَسْوَدَانِ : التَّمْرُ وَالمَاءُ) .

القائل : هو عروة بن الزبير ، (يُعِيشُكُمْ) : روي بضم الياء ، وفتح العين ، وكسر الياء المشددة من (عَيّشه) ، بتشديد الياء ، وروي بضم الياء وكسر العين من (أعاشه) ، فهو إما من عَيّش المضعف ، أو من أعاش المهموز ، أي : يقوم بعيشكم وقوتكم ، وفي بعض نسخ صحيح مسلم : (فماذا كان يقيتكم) ، يعني : من القوت ، والمعنى صحيح ، وفي رواية أخرى عن عائشة : (قلت : فما كان طعامكم) ، وهي أصرح وأظهر في المعنى المراد .

(الأَسْوَدَانِ : التَّمْرُ وَالمَاءُ) .

هو من باب التغليب ، إذ الماء ليس أسود ، فغلب التمر على الماء ، ولعل ذلك لأن أثره في التغذية أكثر من الماء ، والتمر ليس بأسود على التدقيق ، ولكن يميل لونه إلى السمرة ، وهذا مما يتسامح فيه العرب ، وذلك مثل ما أطلقوا الأبيضان : على اللبن ، والماء ، وهذا التغليب قد يراعى فيه الشهرة ، أو الخفة ، أو الشرف ، أو تغليب الذكورة على الأنوثة إلى غير ذلك ، ومن ذلك قولهم : (العمران) لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما مراعاة للخفة والشهرة ، والقمران : للشمس والقمر ، مراعاة للذكورة .

(إلا أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ جِيرَانٌ مِنَ الأَنْصَارِ لهُمْ مَنَايِحُ) .

(إلا أَنَّهُ) هو بمعنى لكن الاستدراكية ، وفي بعض الروايات : (جيران من الأنصار جازاهم الله خيرًا) .

(مَنَايِحُ) جمع مَنِيْحة : بفتح الميم ، وكسر النون ، وسكون الياء ، بعدها حاء مهملة .

والمنيحة : لها معنيان ، أولهما : ناقة أو شاة تعطيها غيرك لينتفع بها : بلبنها ، أو صوفها ، أو وبرها ، أو ركوبها ، ثم يردها إذا استغنى عنها ، ثانيهما : شاة أو ناقة أو بقرة يعطيها لغيره على سبيل التمليك والهبة المؤبدة ، والمراد هنا الأول .

(وَكَانُواْ يمْنَحُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ مِنْ أَلْبَانِهِمْ فَيَسْقِينَاه) .

يمْنَحُونَ : بفتح أوله وثالثه من باب فتح ، يفتح ، ويأتي أيضًا من باب ضرب يضرب من المنحة وهي العطية ، ويجوز ضم أوله وكسر ثالثه ، أي يجعلونها له منحة .

(فَيَسْقِينَاه) : أي : يشرب منه ويسقي أهل أبياته ﷺ ، والمعوزين من أصحابه .

وقد تحمل رسول الله ﷺ وأصحابه وآل بيته في سبيل عقيدتهم ودينهم وفي سبيل مقاومة أعدائهم من المشركين ، واليهود ما تنوء به الجبال حتى تم لهم الغلب والنصر على الأعداء . فهذا هو رسول الله ﷺ يقول : « لقد أخفت في الله وما يخاف أحد ، ولقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد ، ولقد أتت عَلَيّ ثلاثون من يوم وليلة ما لي ولبلال طعام يأكله أحد إلا شيء يواريه بلال تحت إبطه » . أخرجه الترمذي وصححه ، ولقد كان رسول الله ﷺ يفعل ذلك وكان يمكنه التوسع والتبسط في الدنيا ، ولا سيما بعد إجلاء اليهود ، وفتح خيبر ، وبعد أن دانت له الجزيرة العربية كلها ، ولكن كيف وهو محل القدوة والأسوة إلى يوم القيامة ، ولم يكن زهده ﷺ في الدنيا وزخارفها زهد العاجز ، ولكن كان زهد القادر والمستطيع ، ولو أراد أن يجعل الله له جبال مكة ذهبًا لفعل ، فقد روى الترمذي من حديث أَبي أُمَامَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « عَرَضَ عَلَيَّ رَبِّي لِيَجْعَلَ لي بَطْحَاءَ مَكَّةَ ذَهَبًا ، فَقُلْتُ : لا يَا رَبِّ ، وَلَكِنْ أَشْبَعُ يَوْمًا ، وَأَجُوعُ يَوْمًا ، فَإِذَا جُعْتُ تَضَرَّعْتُ إِلَيْكَ ، وَإِذَا شَبِعْتُ شَكَرْتُكَ » . ولكنه ﷺ كان يجوع ويشد على بطنه الحجر ليشبع الناس ويأخذ نفسه وآل بيته بالكفاف ليوسع على الناس ، ويلبس وآله الغليظ والرخيص من الثياب ليكتسي الناس ويرضى بالقليل من الطعام ، ومؤن الحياة ليخصب الناس ويشعروا بالرخاء .

ولم يكن تقلل رسول الله ﷺ وآل بيته واصحابه حرمانًا لأنفسهم من الطيبات ، ولا تحريمًا لها ولا تعذيبًا لأجسادهم كما يفعل بعض الناس : وكيف ؟ ! والإسلام لا يحرم الحلالات ، ولا يمنع المسلم من أخذ حظه من الطيبات ، وفي الكتاب الكريم : ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف : ٣٢] .

وقوله تعالى : ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأعراف : ٣١] .

وقد قال لأصحابه لما اعتزموا أن يترهبوا ويداوموا الصيام والقيام : « ولكني أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وآكل اللحم ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » ، ولكنهم أرادوا أن يكونوا القدوة لمن يأتي بعدهم ، وأن لا يذهبوا طيباتهم في حياتهم الدنيا ، فما عند الله خير وأبقى ، وأن لا يكونوا أسراء العادات ، ولا عبيد الشهوات ، ومن جاهد نفسه كان أقدر على جهاد أعدائه ، ومن أذل شهواته أذل الله له أعداءه .

لقد تحملوا في سبيل نصر دينهم، وحماية دعوتهم، وهزيمة أعدائهم ما تحملوا: أكلوا ورق الشجر حتى تقرحت شفاههم، ولفوا الخرق على أرجلهم لما تشققت من الحفاء، والمشي على الصخور وفي الصحراء، وكان الإثنان منهم والثلاثة في الغزوات يقتسمون التمرة فيما بينهم، وروى البخاري في صحيحه بسنده عن سيدنا سعد بن أبي وقاص قال: (إني لأَوَّلُ العَرَبِ رَمَى بِسَهْمٍ في سَبِيلِ اللهِ[١]، ورأيتنا نَغْزُو وَمَا لَنَا طَعَامٌ إلا وَرَقُ الحبلة، وهذا السمر[٢]، وإنَّ أَحَدَنَا لَيَضَعُ كَمَا تضع الشَّاةُ مَا لَهُ خِلْطٌ[٣]). ولكنهم مع هذا أذلوا اليهود، وأجلوهم عن بلاد العرب، وأسقطوا عروش القياصرة، والأكاسرة، وعاشوا أعزة العالم بضعة قرون.

وبعد: فيا أيها المسلمون والعرب، ليكن لكم في رسول الله ﷺ وآل بيته وصحابته قدوة حسنة في تقشفهم وترفعهم عن أن يكونوا أسراء عاداتهم وشهواتهم، وفي مراعاتهم القصد والتوسط في معيشتهم وحياتهم.

إن التوسع في المآكل والمشارب والمبالغة في الملابس ليس فضيلة، وإن أجدادكم العرب كانوا يتمدحون بالتقلل من الطعام، ويبغضون البطنة وكثرة الأكل، ولو كان التوسع في المعاش واللباس فضيلة لكان أولى بها رسول الله ﷺ وآله وأصحابه، وها أنتم أولاء رأيتم كيف كانوا، وكيف صاروا سادة الدنيا وأعزتها !!.

إننا اليوم مقبلون على معركة مريرة، معركة الشرف والكرامة، والثأر لما نيل منا، ومن أرضنا، ومن مقدساتنا، فلننبذ حياة الترف، والإسراف، وحب التظاهر الكاذب، ولنراع القصد، والاقتصاد، والتقشف، ولنترك الأثرة والطمع، وليكن ديدننا الإيثار، والتحاب في الله: «ولا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»، وليضع كل واحد منا نفسه موضع المسئولية، إنكم إن فعلتم فسيكون لنا- والله- النصر إن شاء الله: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

* * *

(١) في السرية التي خرج فيها مع عبيدة بن الحارث في ستين راكبًا وهي أول السرايا بعد الهجرة.

(٢) نوعان من الشجر.

(٣) يعني كانوا يتبرزون بعرًا جافًا من شظف العيش، وجفافه.

[٤] من حديث الهجرة النبوية

(1) حول الهجرة النبوية

روى الإمام البخاري في صحيحه قال : حَدَّثَنَا يحيى بْنُ بُكَيْرٍ قال : حَدَّثَنَا اللَّيْثُ عَنْ عُقَيْلٍ قَالَ ابْنُ شِهَابٍ فَأَخْبرَني عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ رضي الله عنه أَنَّ عَائِشَةَ رضي الله عنها زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ : - وهو من حديثها الطويل الممتع في الصحيح - « ... ثمَّ لَحِقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ بِغَارٍ فِي جَبَلِ ثَوْرٍ ، فَكَمَنَا فِيهِ ثَلاثَ لَيَالٍ يَبِيتُ عِنْدَهُمَا عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ ، وَهُوَ غُلامٌ شَابٌّ ثَقِفٌ لَقِنٌ ، فَيُدْلِجُ مِنْ عِنْدِهِمَا بِسَحَرٍ ، فَيُصْبِحُ مَعَ قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ كَبَائِتٍ ، فَلا يَسْمَعُ أَمْرًا يُكْتَادَانِ بِهِ إِلا وَعَاهُ حَتى يَأْتِيَهُمَا بِخَبَرِ ذَلِكَ حِينَ يَخْتَلِطُ الظَّلامُ ، وَيَرْعَى عَلَيْهِمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ مَوْلى أَبِي بَكْرٍ مِنْحَةً مِنْ غَنَمٍ ، فَيُرِيحُهَا عَلَيْهِمَا حِينَ تَذْهَبُ سَاعَةٌ مِنَ العِشَاءِ ، فَيَبِيتَانِ فِي رِسْلٍ وَهُوَ لَبَنُ مِنْحَتِهِمَا وَرَضِيفِهِمَا ، حَتى يَنْعِقَ بِهَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ بِغَلَسٍ يَفْعَلُ ذَلِكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ تِلْكَ اللَّيَالي الثَّلاثِ ، وَاسْتَأْجَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ رَجُلًا مِنْ بَنِي الدِّيلِ ، وَهُوَ مِنْ بَنِي عَبْدِ بْنِ عَدِيٍّ هَادِيًا خِرِّيتًا - وَالخِرِّيتُ : المَاهِرُ بِالهِدَايَةِ - قَدْ غَمَسَ حِلْفًا فِي آلِ العَاصِ بْنِ وَائِلٍ السَّهْمِيِّ ، وَهُوَ عَلَى دِينِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ فَأَمِنَاهُ فَدَفَعَا إِلَيْهِ رَاحِلَتَيْهِمَا ، وَوَاعَدَاهُ غَارَ ثَوْرٍ بَعْدَ ثَلاثِ ، لَيَالٍ بِرَاحِلَتَيْهِمَا صُبْحَ ثَلاثٍ وَانْطَلَقَ مَعَهُمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ وَالدَّلِيلُ ، فَأَخَذَ بِهِمْ طَرِيقَ السَّواحل ... » .

تخريج الحديث :

هذه قطعة من الحديث الطويل ، المفيد الذي خرجه إمام الأئمة محمد بن إسماعيل البخاري في صحيحه- باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة .

الشرح والبيان :

هذه حديث نبوي طويل ممتع رواه أمير المؤمنين في الحديث محمد بن إسماعيل البخاري في صحيحه الذي هو أوثق كتب الحديث وأصحها ، بهذا الإسناد المتصل بنقل الثقات العدول الضابطين عن أم المؤمنين وزوج النبي ﷺ عائشة الصديقة بنت الصديق

رضي الله تعالى عنهما وهو مركب من ثلاثة أحاديث ، ومدارها كلها على الإمام الكبير الزهري ، أحدهما : بهذا الإسناد الصحيح عن الزهري عن عروة بن الزبير عن خالته السيدة عائشة رضي الله عنها ، وثانيها : بهذا الإسناد الصحيح المتصل عن الزهري عن عبد الرحمن بن مالك المدلجي عن أبيه أنه سمع سراقة بن مالك بن جعشم في قصته ، وسنعرض لها في مثل هذه المناسبة إن شاء الله تعالى ، وثالثها : بهذا الإسناد الصحيح المتصل إلى الإمام الزهري عن عروة بن الزبير في قصة لقيا أبيه الزبير للنبي وهو مهاجر إلى المدينة ، وإهدائه للنبي ، والصديق ثيابه بيضاء ، وقصة مقدم النبي وصاحبه إلى المدينة ، وبناء مسجد قباء ، ثم بناء مسجد المدينة ، وسنعرض أيضًا لهذا الحديث في مثل هذه المناسبة إن شاء الله تعالى .

وهذا من أمير المؤمنين في الحديث من بديع صنعه في صحيحه ، وحسن تصرفه ، ودقة نظره ، وأحب من أبنائنا طلاب الحديث – ولا سيما طلاب الدراسات العليا – أن يكونوا على بينة من شأن هذا الإمام الكبير البخاري ، وتصرفاته البديعة في صحيحه .

وقد عرضت في المحرم من العام الماضي لشرح معظم الحديث الأول ، والآن أشرح ما بقي منه ، فأقول وبالله التوفيق .

(ثمَّ لَحِقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ بِغَارٍ فِي جَبَلِ ثَوْرٍ فَكَمَنَا فِيهِ ثَلاثَ لَيَالٍ يَبِيتُ عِنْدَهُمَا عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ وَهُوَ غُلامٌ شَابٌّ ثَقِفٌ لَقِنٌ ...) .

لقد كان للبيت البكري في الهجرة تضحيات جليلة ، فقد قدمت في المقال الماضي ما كان من السيدة أسماء رضي الله عنها في تجهيز المهاجرين الكريمين وشقها نطاقها نصفين ، فربطت فم الجراب بأحدهما وانتطقت بالآخر ، فمن ثم سميت بـ (ذات النطاقين) .

وما أبداه شيخ الإسلام أبو بكر في هذه الليلة ، وقبل نزول النبي ﷺ الغار من تضحيات وتفديات النبي بنفسه لم يعرفها الإسلام لشيخ إلا للصديق رضي الله عنه .

والآن نعرض لما أبداه من تضحيات غلام صغير من آل بيت الصديق وهو ابنه عبد الله ابن أبي بكر (وَهُوَ غُلامٌ شَابٌّ ، ثَقِفٌ ، لَقِنٌ ...) .

غلام : أي صغير لم يظهر شاربه بعد .

شاب : لم يبلغ مبلغ الرجال .

ثقف : بفتح الثاء المثلثة ، وكسر القاف ، ويجوز إسكانها وفتحها ، وبعدها فاء وهو الحاذق الواعي للشيء الذي يقيمه على وجهه المستقيم .

لَقِن : بفتح اللام وكسر القاف بعدها نون ، وهو السريع الفهم الذي فيه ذكاء وفطنة ، فكان يجيء هذا الغلام الصغير تحت جنح الظلام في كل ليلة ويسير في هذا الطريق الموحش حتى يصل إلى النبي وأبيه في الغار .

(فَيُدْلِجُ مِنْ عِنْدِهِمَا بِسَحَرٍ فَيُصْبِحُ مَعَ قُرَيْشٍ بمَكَّةَ كَبَائِتٍ) .

يدلج : بفتح الياء وفتح الدال المشددة ، وماضيه : أدلج ، بتشديد الدال المفتوحة ، أي : يخرج بسحر إلى مكة حتى لا يتفطن إليه أحد ، أما أدلج إدلاجًا ، مثل : أكرم إكرامًا ، فهو سير الليل كله ، فهو مدلج ، ومنه اسم القبيلة .

كبائت : أي : مثل البائت بها : وهذا التصرف لن يكون إلا لشاب فيه فطانة وحذق ، وثقافة ، وهذا هو السر في وصفه بهذه الأوصاف ليعلم الواقف عليها أنه كان أهلًا لهذه المهمة الشاقة التي تحفها المخاطر والتي هي مثار الظنون .

(فَلا يَسْمَعُ أَمْرًا يُكْتَادَانِ بِهِ إِلا وَعَاهُ حَتى يَأْتِيَهُمَا بخَبَرِ ذَلِكَ حِينَ يَخْتَلِطُ الظَّلامُ) .

يكتادان : بضم الياء وسكون الكاف على البناء للمجهول من الكيد وهو التفكير في إلحاق الشر بهما من قريش ، وقد كان إلى ذكائه ، ولقانته ، وفطنته ، له أذن واعية تعي كل ما تسمع مما تكيد به قريش المهاجرين الكريمين ، ومثل هذا لا يلحق بنفسه الريبة ، ولا يثير حوله الشكوك .

يختلط الظلام : أي : يشتد ويرخي الليل سدوله على كل شيء ، فلله درك يا عبد الله ابن أبي بكر ؟ وفي سبيل الله ما وعت أذناك ، وفي سبيل الله ما حفيت قدماك ، وفي سبيل الله ما لقيت من عناء وتعب وخوف وارتجاف ، لقد ذهب كل شيء يا سليل الصديق ، وبقيت لك المكارم والمفاخر مسطرة في صحائف الخلود والتضحية والفداء .

(وَيَرْعَى عَلَيْهِمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ مَوْلى أَبِي بَكْرٍ مِنْحَةً مِنْ غَنَمٍ) .

فهيرة : بضم الفاء اسم أمه ، مولى ، المولى : يطلق على السيد ، ويطلق على المملوك الذي أعتق ، والمراد هنا الثاني ، وقد ذكر موسى بن عقبة في مغازيه عن ابن شهاب أن أبا

بكر رضي الله عنه اشتراه من الطفيل بن سخبرة ، فأسلم ، فأعتقه لوجه الله .

المنحة : الغنم فيها لبن ، فقوله : من غنم بيان للمنحة ، أي : قطعة من غنم .

(فَيُرِيحُهَا عَلَيْهِمَا) . الرواح : الذهاب بها آخر النهار ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: ٦] .

(رِسْلٍ) : الرسل بكسر الراء وسكون السين : اللبن .

(وَرَضِيفِهِمَا) : بفتح الراء وكسر الضاد المعجمة بوزن رغيف : وهو اللبن المرضوف أي الذي وضعت فيه الحجارة المحماة بالشمس ، أو النار لينعقد وتزول رخاوته ، وهو بالرفع عطف على لفظ (لبن) ، وبالجر عطف على (منحتهما) .

و(يَنْعِقَ) : بكسر العين ، أي : يصيح بغنمه كي تذهب إلى المرعى ، والنعيق : صوت الراعي إذا زجر الغنم[1] .

والمراد بهذا بيان مكرمة من مكارم مولى الصديق عامر بن فهيرة ، فقد كان يرعى غنمًا للصديق ، فإذا أمسى واستجن الليل وأمن من الرقباء والعيون راح بغنمه نحو جبل ثور حيث يوجد الرسول والصديق ، فيحلب لهما ما يشاءان من لبن ثم يسقيهما ، فإذا ما طلع الفجر يسرح بها بغلس ، فيسبح في رعيان الناس ، فلا يفطن له أحد ، وأيضًا فقد كان برواحه وسراحه بالغنم يعفي على آثار الشاب اليافع عبد الله بن الصديق ، فلا يستدل أحد من القافة بآثاره على منزل المهاجرين الكريمين ، فانظر كيف يكون حسن التدبير من المؤمنين الصادقين .

وهكذا نرى أن الصديق وبنتيه وابنه عبد الله وعامرًا مولاه قد أسهموا في الهجرة النبوية مساهمة فعالة ، تذكر فتشكر ، وتحفظ فلا تنكر ، ففي الله وفي سبيل الله ما صنع البيت البكري !! .

(وَاسْتَأْجَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ رَجُلًا مِنْ بَنِي الدِّيلِ وَهُوَ مِنْ بَنِي عَبْدِ بْنِ عَدِيٍّ) .

الديل : بكسر الدال وسكون الياء التحتانية ، ويقال أيضًا بضم الدال ، وكسر ثانيه

---

(١) قال تعالى : ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة : ١٧١) .

المهموز (الدئل) . وهو من بني عبد بن عدي بن الديل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة ، ويقال من بني عدي بن عمرو بن خزاعة ، وهذا الدليل الأمين هو عبد الله بن أريقط- بضم الهمزة ، وفتح الراء ، وسكون الياء ، وكسر القاف والطاء ، وهو الأصح والأشهر- كما قال ابن سعد وغيره .

(هَادِيًا خِرِّيتًا) ، والخريت : الماهر بالهداية ، قد غمس حلفًا في آل العباس بن وائل السهمي .

هاديًا : أي : يدلهما على الطريق ، والخريت : الماهر بالهداية ، وهو مدرج في الحديث- أي زيد فيه من كلام الإمام الزهري الراوي للحديث عن عروة عن السيدة عائشة رضي الله عنها ، والإدراج للتفسير أمر جائز عند محققي علماء علوم الحديث ، والخريت مأخوذ من خرت الإبرة ، أي ثقبها ، لأنه يهدي إلى مثل خرت الإبل لشدة معرفته بالطريق .

وقيل : لأنه يهتدي لأخرات الصحراء وهي طرقها الخفية ، ومعنى : (غمس حلفًا في آل العباس ...) ، أي : كان حليفًا على ما هي عادة العرب ، وكانوا إذا تحالفوا غمسوا أيمانهم في دم ، أو خلوق- شيء ريحه طيب- أو شيء يكون فيه تلويث لليد اليمنى ، فيكون ذلك تأكيدًا للحلف ، وهو من الكنايات البديعية .

(وَهُوَ عَلَى دِينِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ[1] ، فَأَمِنَاهُ فَدَفَعَا إِلَيْهِ رَاحِلَتَيْهِمَا ، وَوَاعَدَاهُ غَارَ ثَوْرٍ بَعْدَ ثَلاثِ لَيَالٍ بِرَاحِلَتَيْهِمَا صُبْحَ ثَلاثٍ ، وَانْطَلَقَ مَعَهُمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ وَالدَّلِيلُ ، فَأَخَذَ بِهِمْ طَرِيقَ السَّاحِلِ) .

يعني أن عبد الله بن أريقط كان مشركًا ، ولكنهما أمناه وعاهداه اللقاء بالراحلتين بعد ثلاث ليال عند غار ثور صبح اليوم الذي خرجا فيه من الغار ، وكان الرجل أمينًا وفيًا ، وعند حسن ظن النبي وصاحبه به ، ثم انطلقا ومعهما عامر بن فهيرة يخدمهما ، وعبد الله بن أريقط يدلهما على الطريق ، حتى وصل الركب الكريم إلى المدينة .

ولا بد لنا هنا من وقفة عند قصة ابن أريقط هذا ، وأمانته ووفائه بالوعد ، وهذه القصة

---

(١) وقد اختلف في إسلامه بعد ، فقيل : أسلم ، وقيل : لم يسلم ، وهو الصحيح الذي عليه الأكثرون ، قال الحافظ ابن حجر : لم أر من ذكره من الصحابة إلا الذهبي في التجريد .

إن دلت على شيء فإنها تدل على مروءة العرب ووفائهم وأمانتهم ، وأخلاقهم الأصيلة التي لم تصل إليها أخلاق حضارة القرن العشرين اليوم ، وإلا فقد كان يمكنه – لو لم يكن عربيًّا أصيلًا– أن يدل المشركين على المهاجرين الكريمين ، ويحظى بالجعل الكبير ، ولكنهم العرب !! .

فهل يكون لكم يا قومي المسلمين والعرب فيما صنع البيت البكري من ألوان التضحية والفداء قدوة وأسوة حسنة ؟ !

وهل لكم فيما صنع ابن أريقط– وهو العربي الأصيل– عبرة وذكرى ! ؟ ذلك ما نرجو ، وما ذلك عليكم بعزيز .

❊ ❊ ❊

(2) من حديث الهجرة[1]

روى البخاري في صحيحه بسنده من حديث الهجرة النبوية الطويل وفيه :

« قَالَ ابْنُ شِهَابٍ فَأَخْبرَني عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَقِيَ الزُّبَيْرَ في رَكْبٍ مِنَ المُسْلِمِينَ كَانُواْ تِجَارًا قَافِلِينَ مِنَ الشَّامِ ، فَكَسَا الزُّبَيْرُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَأَبَا بَكْرٍ ثِيَابَ بَيَاضٍ ، وَسَمِعَ المُسْلِمُونَ بِالمَدِينَةِ مَخْرَجَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ ، فَكَانُواْ يَغْدُونَ كُلَّ غَدَاةٍ إلى الحَرَّةِ فَيَنْتَظِرُونَهُ حتى يَرُدَّهُمْ حَرُّ الظَّهِيرَةِ ، فَانْقَلَبُواْ يَوْمًا بَعْدَ مَا أَطَالُواْ انْتِظَارَهُمْ ، فَلَمَّا أَوَوْا إلى بُيُوتِهِمْ أَوْفى رَجُلٌ مِنْ يَهُودَ عَلَى أُطُمٍ مِنْ آطَامِهِمْ لأَمْرٍ يَنْظُرُ إِلَيْهِ ، فَبَصُرَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ مُبَيَّضِينَ يَزُولُ بِهِمُ السَّرَابُ ، فَلَمْ يمْلِكِ اليَهُودِيُّ أَنْ قَالَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ يَا مَعَشِرَ العَرَبِ هَذَا جَدُّكُمُ الَّذِي تَنْتَظِرُونَ ، فَثَارَ المُسْلِمُونَ إلى السِّلاحِ فَتَلَقَّوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ بِظَهْرِ الحَرَّةِ ، فَعَدَلَ بِهِمْ ذَاتَ اليَمِينِ حتى نَزَلَ بِهِمْ في بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ ، وَذَلِكَ يَوْمَ الاثْنَيْنِ مِنْ شَهْرِ رَبِيعٍ الأَوَّلِ ، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ لِلنَّاسِ وَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ صَامِتًا ، فَطَفِقَ مَنْ جَاءَ مِنَ الأَنْصَارِ مِمَّنْ لَمْ يَرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُحَيِّي أَبَا بَكْرٍ حتى أَصَابَتِ الشَّمْسُ رَسُولَ اللهِ ﷺ ، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ حتى ظَلَّلَ عَلَيْهِ بِرِدَائِهِ ، فَعَرَفَ النَّاسُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ ، فَلَبِثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ في بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ بِضْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً ، وَأُسِّسَ المَسْجِدُ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى وَصَلَّى فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثُمَّ رَكِبَ رَاحِلَتَهُ ، فَسَارَ يمْشِي مَعَهُ النَّاسُ حتى بَرَكَتْ عِنْدَ مَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ بِالمَدِينَةِ » .

تخريج الحديث :

الحديث رواه البخاري في صحيحه ، وهو جزء من حديث الهجرة الطويل ، وقد أخرجه مقطعًا- أي : مجزءًا- في مواضع من صحيحه في كتاب الصلاة ، وفي كتاب الإجارة ، وفي الكفالة ، وفي كتاب الأدب .

الشرح والبيان :

(قَالَ ابْنُ شِهَابٍ فَأَخْبرَني عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَقِيَ الزُّبَيْرَ في رَكْبٍ مِنَ المُسْلِمِينَ كَانُواْ تِجَارًا قَافِلِينَ مِنَ الشَّامِ) .

(١) مجلة الأزهر - ج١ سنة ٤٥.

الظاهر أن عروة سمعه من أبيه الزبير ، فقد وصله الحاكم من طريق معمر عن الزهري قال : أخبرني عروة أنه سمع الزبير به – يعني يحدث به – ، والزبير هو ابن العوام صاحب رسول الله ﷺ وحواريه ، وابن عمته السيدة صفية ، وقد هاجر إلى المدينة قبل رسول الله ﷺ .

الركب : بفتح الراء وسكون الكاف ، جمع راكب ، كتاجر وتجر .

قافلين : أي : راجعين من تجارة لهم كانوا يصرفونها في الشام ، وهو منصوب على الحال .

(فَكَسَا الزُّبَيْرُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَأَبَا بَكْرٍ ثِيَابَ بَيَاضٍ) .

أي : أعطاهما ثيابًا بيضاء على سبيل الهدية ، وقوله : (ثياب بياض) من إضافة الموصوف إلى الصفة .

وقد روى موسى بن عقبة وغيره من أصحاب السير أن المهدي هو طلحة بن عبيد الله الصحابي الجليل ، وكان قد هاجر إلى المدينة قبل مقدم النبي ﷺ ، ففي رواية موسى بن عقبة : (ويقال لما دنا من المدينة– أي النبي ﷺ – كان طلحة قد قدم من الشام ، فخرج عائدًا إلى مكة إما متلقيًا ، وإما معتمرًا ، ومعه ثياب أهداها لأبي بكر من ثياب الشام ، فلما لقيه– أي النبي– أعطاه فلبس منها هو وأبو بكر) .

وقد مال الدمياطي في سيرته إلى ترجيح أن المهدي طلحة بن عبيد الله كما هي عادته في ترجيح ما في كتب السير ، والأولى أن يجمع بينهما ، وذلك أمر يسير ، ويكون كل من الزبير وطلحة كساهما ثيابًا بيضاء ، ويشهد لهذا ما رواه ابن سعد في طبقاته حيث قال : (لما ارتحل النبي ﷺ من الحجاز في هجرته إلى المدينة لقيه طلحة بن عبيد الله من الغد جائيًا من الشام ، فكسا رسول الله ﷺ وأبا بكر من ثياب الشام ، وأخبر النبي ﷺ أن من بالمدينة من المسلمين يتلهفون على مقدمه شوقًا إليه ، فعجل رسول الله ﷺ السير ...)[1] .

وكذلك روى ابن عائذ في المغازي من حديث ابن عباس « خرج عمر والزبير وطلحة وعثمان وعياش بن أبي ربيعة نحو المدينة ، فتوجه عثمان وطلحة إلى الشام » ومن ثم يتبين أن القولين صحيحان وأن كلًّا من الصحابيين أهدى النبي والصديق .

(١) فتح الباري (ج٨ ص ٢٤٢، ٢٤٣) ، وعمدة القاري (ج٨ ص١١٠) .

(وَسَمِعَ المُسْلِمُونَ بِالمَدِينَةِ مَخْرَجَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ) .

وفي رواية معمر عن الزهري عن عروة : (فلما سمع المسلمون بالمدينة) .

مخرج : مصدر ميمي بمعنى الخروج ، وهو منصوب بنزع حرف الجر ، أي بمخرج رسول الله ﷺ من مكة ، وبه جاءت رواية آخرى .

(فَكَانُواْ يَغْدُونَ كُلَّ غَدَاةٍ إلى الحَرَّةِ فَيَنْتَظِرُونَهُ حتى يَرُدَّهُمْ حَرُّ الظَّهِيرَةِ) .

يغدون : بسكون الغين المعجمة ، والدال المهملة ، أي : يخرجون غدوة ، والحرة الأرض ذات الحجارة السود النخرة ، والمراد الحرة التي هي عند قباء ، وبالمدينة حرار غيرها ، والظهيرة : وقت اشتداد الحر .

وقد جاءت رواية الحاكم من طريق آخر عن عروة ، عن عبد الرحمن بن عويم بن ساعدة عن رجال من قومه قال : (لما بلغنا مخرج النبي ﷺ كنا نخرج فنجلس له بظاهر الحرة ، نلجأ إلى ظل المدر ، حتى تغلبنا عليه الشمس ثم نرجع إلى رحالنا) .

وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على مبلغ حب الأنصار لرسول الله ﷺ ، وتحرقهم شوقًا للقائه الكريم ، ووفائهم بما عاهدوه عليه في العقبتين من أنهم يمنعونه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم إن قدم عليهم المدينة .

(فَانْقَلَبُواْ يَوْمًا بَعْدَ مَا أَطَالُواْ انْتِظَارَهُمْ) .

انقلبوا : أي : رجعوا ، وفي الذكر الحكيم : ﴿فَانقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ [آل عمران : ١٧٤] .

حتى تغلبنا عليه الشمس : أي تغلبنا على انتظاره حر الشمس فنضطر إلى الرجوع إلى البيوت .

(فَلَمَّا أَوَوْا إلى بُيُوتِهِمْ أَوْفى رَجُلٌ مِنْ يَهُودَ عَلَى أُطُمٍ مِنْ آطَامِهِمْ لأَمْرٍ يَنْظُرُ إِلَيْهِ) .

أووا : أي : حلوا فيها واطمأنوا ، أوفى : أي : طلع إلى مكان عالٍ فأشرف منه ، والأطم – بضم الهمزة والطاء –: الحصن ، أي : على حصن من حصونهم ، وكان اليهود يساكنون الأوس والخزرج بالمدينة ، وهم يهود بني قينقاع ، وبني النضير ، وبني قريظة ، وكانت بيوتهم محاطة بالحصون ، ولا سيما بنو قريظة .

(فَبَصُرَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ مُبَيَّضِينَ يَزُولُ بِهِمُ السَّرَابُ) .

بصر : بفتح الباء وضم الصاد ، أي : رأى ، وفي الكتاب الكريم : ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص : ١١][1] .

مبيضين : أي : عليهم الثياب البيض التي كساهم بها الزبير أو طلحة ، والسراب : ما يرى في الظهيرة عند الحر كأنه ماء وليس بماء ، قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور : ٣٩] .

ومعنى يزول بهم السراب : أي : يزول السراب عن النظر بسبب عروضهم له ، وقيل : معناه ظهرت حركتهم للعين .

(فَلَمْ يمْلِكِ اليَهُودِيُّ أَنْ قَالَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ يَا مَعَشِرَ العَرَبِ هَذَا جَدُّكُمُ الَّذِي تَنْتَظِرُونَ) .

أي : فلم يملك اليهودي نفسه أن صاح بأعلى صوته ، وليس ذلك فرحًا بمقدمه ﷺ ، فإن ذلك مما ينغص بالهم ويقض مضاجعهم ، ولكن المرء إذا فوجئ بشيء فإنه يجد نفسه مدفوعًا من غير شعور وتعمد إلى أن يصنع ما صنع اليهودي ، أو لعله أراد أن تكون له يد عند المسلمين بهذا الإعلام .

(يَا مَعَشِرَ العَرَبِ) ، المعشر : الجماعة من الناس ، وفي رواية : يا بني قيلة- بفتح القاف وسكون الياء- وهي الجدة الكبرى للأنصار : الأوس ، والخزرج ، وهي قيلة بنت كاهل بن عذرة .

(هَذَا جَدُّكُمْ) ، أي : حظكم ، وصاحب دولتكم الذي تنتظرونه ، والجد- بفتح الجيم- من معانيه الحظ ، والنصيب .

(فَثَارَ المُسْلِمُونَ إِلى السِّلاحِ فَتَلَقَّوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ بِظَهْرِ الحَرَّةِ) .

وإنما ثاروا إلى السلاح ليكون وفاء للعهد بالعمل لا بالقول ، وليروا اليهود ومن على شاكلتهم من المشركين أن رسول الله ﷺ لايزال في عزة ومنعة من أنصار الله ، وأنصار رسوله ، وأنه وإن فارق أهله وبلده ووطنه في سبيل الله فقد وجد أهلًا بأهل ، وجيرانًا بجيران ، وبلدًا طيبًا محبًا له ، ببلد عاداه أهله ، وائتمروا بقتله ، فلله أنتم يا أنصار الله ، ويا

(١) ومعنى قصيه : تتبعي أثره وأخباره كي تطمأنيني عليه .

أنصار رسول الله .

(فَعَدَلَ بِهِمْ ذَاتَ اليَمِينِ حَتى نَزَلَ بِهِمْ في بَني عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ) .

عدل بهم : أي مال بهم جهة اليمين لينزل في بني عمرو بن عوف ، أي ابن مالك بن الأوس بن حارثة ، ومنازلهم بقباء[١] ، وهي على فرسخ من المسجد النبوي ، وقباء هي أول ما يستقبله القادم إلى المدينة .

وقد اختلف فيمن نزل عليه رسول الله ﷺ بالمدينة ، فقيل : كان نزوله على كلثوم بن الهدم ، وقيل أنه كان يومئذ مشركًا ، وبه جزم محمد بن الحسن بن زناته في أخبار المدينة ، وهذا إن صح يدل على ما كان يتصف به العرب من مروءة ورجولة ، وقيل : نزل على سعد بن خيثمة ، وهو الذي نزل عليه الصديق أبو بكر ، وعامر بن فهيرة مولاه ، لأنه كان أعزب ، فلا حرج في نزول بعض المهاجرين عليه ، ولعله ﷺ كان ينام عند كلثوم بن الهدم بالليل ، ويجلس نهاره عند سعد ، ليلتقي بأصحابه .

(وَذَلِكَ يَوْمَ الاثْنَيْنِ مِنْ شَهْرِ رَبِيعِ الأَوَّلِ) .

وقد اتفق العلماء على أن ذلك كان يوم الاثنين ، ولكنهم اختلفوا في تحديده ، فقيل لليلتين خلتا- أي : مضتا- منه ، وقيل : لاثنتي عشرة ليلة منه ، وهو ما روي عن ابن إسحاق ، وقيل : لثلاث عشرة ليلة ، وقيل غير ذلك .

(فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ لِلنَّاسِ وَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ صَامِتًا ، فَطَفِقَ مَنْ جَاءَ مِنَ الأَنْصَارِ مِمَّنْ لَمْ يَرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُحَيِّي أَبَا بَكْرٍ) .

فقام أبو بكر للناس : أي : لاستقبالهم ، فطفق : أي : فجعل ، وهي من أفعال الشروع في الشيء ، وإنما كانوا يحيون أبا بكر لأنهم كانوا يعرفونه لكثرة تردده عليهم في التجارة إلى الشام ، وأما النبي فلم يذهب إليها بعد أن كبر ، ولا ذهب إلى المدينة من يوم أن صحب السيدة والدته إليها وهو في سن السادسة .

(حَتى أَصَابَتِ الشَّمْسُ رَسُولَ اللهِ ﷺ ، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ حَتى ظَلَّلَ عَلَيْهِ بِرِدَائِهِ ، فَعَرَفَ النَّاسُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ) .

---

(١) قباء – بضم القاف وفتحها – وبالمد والقصر : قرية بجوار المدينة .

وهذا من الصديق أدب عال ، وحب أصيل ، ولكي يعلم القادم أن المظلل هو رسول الله ، فلله در الصديق ، ما أسمى أدبه ، وما أعظم خلقه .

(فَلَبِثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ في بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ بِضْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً) . وفي رواية أخرى في الصحيح : أربع عشرة ليلة .

هذا ما روي في الصحيح ، وفي كتب المغازي والسير لابن إسحاق وغيره أنه أقام فيهم أربعة أيام : الاثنين ، والثلاثاء ، والأربعاء ، والخميس ، ويمكن التوفيق بين القولين بأن المراد أنه أقام فيهم تتمة أربع عشرة ليلة بما فيها المدة التي قضاها بعد خروجه من الغار حتى وصوله إلى المدينة .

وفي هذا الأيام التي قضاها ﷺ أسس أول مسجد في الإسلام وهو مسجد قباء ، وهو المسجد الذي أسس على التقوى ، وهو الذي ذكره الله تبارك وتعالى في قوله : ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة : ١٠٨] . على ما هو الصحيح عند العلماء أنه مسجد قباء ، وهذا يدل على منزلة المساجد في الإسلام ، فهي بيوت الله ومهوى الملائكة ، ومثابة الصالحين ، وفيها كانت تعقد دروس العلم ، ومجالس القضاء والشورى في الإسلام ، وفيها كان يتم الخير الديني والدنيوي ، فأعظم برسالة المساجد من رسالة .

وفي يوم الجمعة خرج رسول الله ﷺ قاصدًا المدينة ذاتها ، فأدركته الصلاة في بني سالم بن عوف فصلى بهم الجمعة في وادي (رانوناء) وهي أول جمعة صلاها رسول الله ﷺ بأصحابه جماعة ، ثم أتاه رجال من بني سالم بن عوف فقالوا : يا رسول الله ، أقم عندنا في العدد والمدد ، والمنعة[1] ، ويتشبثون بزمام الناقة فيقول لهم : « خلوا سبيلها ، فإنها مأمورة »[2] .

ورسول الله واضع لها زمامها لا يثنيها به ، وصار كلما مر بدار من دور الأنصار المتناثرة على الطريق عرضوا عليه أن ينزل عندهم في العدد والمدد والمنعة ، فيقول لهم مثل ذلك ، حتى أتت موضع مسجده بالمدينة ، فبركت ، ثم لم تلبث أن قامت وسارت غير بعيد ، ثم

(١) العدد - بفتح العين والدال - : الكثرة والعدد بضم العين وفتح الدال : أدوات الحرب ، والمنعة : القوة .
(٢) نعم والله إنها مأمورة فالله تبارك وتعالى ملهمها ، وجبريل الأمين حاديها .

التفتت خلفها، ورجعت إلى مبركها أول مرة فبركت فيه وألقت بجرانها[١]، فنزل رسول الله ﷺ فتنازعه أشراف الأنصار ورؤساؤهم أيهم ينزل عليه، وهو الشرف الذي دونه كل شرف، والمجد الخالد الذي لا يساميه مجد، والعرب أحرص ما يكونون على المكارم والمآثر، فما بالك بهذه المكرمة التي ستبقى أبد الدهر.

وكان موقفًا محرجًا حقًّا، ومأزقًا لا يستطاع الخروج منه، ولكن صاحب القلب الكبير لا تضيق به المسالك، وصاحب العقل الواسع الفسيح الذي لو وزن عقله بعقول البشر جميعًا لرجحها تصرف هذا التصرف الحكيم، فقال: «إني أنزل على أخوال عبد المطلب، أكرمهم بذلك»، ومن ذا الذي يؤلمه أن ينزل على ذوي رحمة وقرباه؟!

فسأل: «أي دور أهلنا أقرب؟»، فقال السيد الجليل أبو أيوب الأنصاري: أنا، فاحتمل رحل رسول الله ﷺ إلى منزله، فقال الرسول الكريم المرهف الحس الرقيق الشعور: «المرء مع رحله»، وبذلك حلت المشكلة بسلام، ورضا، واقتناع.

ثم جاء أسعد بن زرارة وقد فاته شرف نزول الرسول عنده فأخذ بزمام ناقة رسول الله ﷺ فكانت عنده، فانظر أيها القارئ الكريم كيف كانت القيم الخلقية، والمعاني النفيسة، والمثل العالية عند القوم!! فلئن فاته شرف نزول رسول الله فلن يفوته شرف نزول ناقة رسول الله!!.

وكان يومًا مشهودًا في تاريخ الدنيا، يوم دخل رسول الله ﷺ المدينة، لم تر البشرية له مثيلًا، ولن ترى له مثيلًا، وخرجت المدينة كلها بشبابها وشيبها وصبيانها ونسائها وولائدها ترحيبًا بالقادم الكريم. يقول أنس رضي الله عنه: لقد رأيت رسول الله يوم دخل علينا ويوم قبض، فلم أر يومين شبيهًا بهما.

وخرجت جوار من بني النجار يضربن بالدفوف ويقلن:

نحن جوار من بني النجار يا حبذا محمد من جار

ويدنو منهن الرءوف الرحيم وكله حنان ورقة ويقول: «أتحببنني؟»، فقلن: أي والله يا رسول الله، فقال: «وأنا والله أحبكن»، ثلاثًا. وتضج المدينة كلها بهذا النشيد: الله أكبر جاء رسول الله، الله أكبر جاء رسول الله.

---

(١) الجران: مقدم العنق.

(3) الإخاء بين المهاجرين والأنصار[1]

روى الإمام البخاري في صحيحه بسنده عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال : لَمَّا قَدِمْنَا المَدِينَةَ آخَى رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنِي وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ ، فَقَالَ سَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ لِعَبْدِ الرَّحمَنِ : إِنِي أَكْثَرُ الأَنْصَارِ مَالًا ، فَأَقْسِمُ مَالي نِصْفَيْنِ ، وَلي امْرَأَتَانِ فَانْظُرْ أَعْجَبَهُمَا إِلَيْكَ ، فَسَمِّهَا لِي أُطَلِّقْهَا ، فَإِذَا انْقَضَتْ عِدَّتُهَا فَتَزَوَّجْهَا ، قَالَ : بَارَكَ اللهُ لَكَ في أَهْلِكَ وَمَالِكَ أَيْنَ سُوقُكُمْ ، فَدَلُّوهُ عَلَى سُوقِ بَنِي قَيْنُقَاعَ ، فَمَا انْقَلَبَ إِلا وَمَعَهُ فَضْلٌ مِنْ أَقِطٍ وَسَمْنٍ ثمَّ تَابَعَ الغُدُوَّ ، ثمَّ جَاءَ يَوْمًا وَبِهِ أَثَرُ صُفْرَةٍ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « مَهْيَمْ ؟ » ، قَالَ : تَزَوَّجْتُ ، قَالَ : « كَمْ سُقْتَ إِلَيْهَا » ، قَالَ : نَوَاةً مِنْ ذَهَبٍ أَوْ وَزْنَ نَوَاةٍ مِنْ ذَهَبٍ – شَكَّ إِبْرَاهِيمُ –.

ورواه أيضًا بسنده عن أنس رضي الله عنه أنه قال : قدم علينا عَبْدُ الرَّحمَنِ بْنُ عَوْفٍ وآخَى رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنه وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ ، وكان كثير المال ، فَقَالَ سَعْدُ : قد علمت أنّي أَكْثَرُ الأَنْصَارِ مَالًا فَأَقْسِمُ مَالي بيني وبينك شطرين ، ولي امرأتان ، فانْظُرْ أعجبهما إليك فأطلقها ، حتى إذا حلت تَزَوَّجْتَهَا !! ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحمَنِ : بارك الله لك في أهلك ومالك ، ولكن دلني على السوق .

فلم يرجع يومئذ حتى أفضل شيئًا من سمن وأقط ، فلم يلبث إلا يسيرًا حتى جاء رسول الله ﷺ وعليه وضر من صفرة ، فقال له رسول الله ﷺ : « مهيم ؟ » ، قال : تزوجت امرأة من الأنصار ، قال : « ما سقت فيها ؟ » ، قال : وزن نواة من ذهب أو نواة من ذهب ، قال : « أَوْلِم ولو بشاة » .

تخريج الحديث :

هذا الحديث مما انفرد به البخاري في صحيحه عن مسلم ، وقد رواه في أول كتاب البيوع ، وفي الفضائل – باب إخاء النبي بين المهاجرين والأنصار– وفي باب كيف آخى النبي ﷺ بين أصحابه قبيل كتاب المغازي ، وفي كتاب النكاح– باب : « أَوْلِم ولو بشاة » .

(١) مجلة الأزهر ج٤ – سنة ٤٥.

الشرح والبيان :

من هو عبد الرحمن بن عوف ؟

هو الصحابي الجليل عبد الرحمن بن عوف بن الحارث بن زهرة بن كلاب بن مرة القرشي ، الزهري ، يجتمع مع النبي ﷺ في جده كلاب ، كان اسمه في الجاهلية عبد عمرو ، وقيل : عبد الكعبة ، فسماه رسول الله : عبد الرحمن ، وأمه الشفاء بنت عوف ابن عبد الحارث بن زهرة ، ولد بعد الفيل بعشر سنين ، وأسلم قبل أن يدخل الرسول ﷺ دار الأرقم ، فهو من السابقين الأولين ، هاجر إلى الحبشة وإلى المدينة ، وآخى النبي بينه وبين سيدنا سعد بن الربيع ، وشهد بدرًا وأحدًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، وكان أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين جعل سيدنا عمر بن الخطاب الخلافة فيهم ، وجرح يوم أحد إحدى وعشرين جراحة ، وكان من أثرى الصحابة ، وكثير الإنفاق في سبيل الله عز وجل ، ولما توفي ورثت كل امرأة من نسائه الأربع ثمانين ألفًا[١] .

روى عن رسول الله ﷺ ، وروى عنه بنوه إبراهيم ، وحميد ، وأبو سلمة أحد الفقهاء المشهورين ، ومصعب . وغيرهم كابن عباس وابن عمر وجابر ، وتوفي سنة إحدى وثلاثين بالمدينة وهو ابن خمس وسبعين سنة ، وأوصى بخمسين ألف دينار في سبيل الله ، وقيل في سنة وفاته غير هذا ، وفرضي الله عنه وأرضاه .

مَن هو سعد بن الربيع ؟

هو سعد بن الربيع بن عمرو بن أبي زهير بن مالك الأنصاري الخزرجي . عقبي . بدري . شهد العقبة الأولى والثانية ، وكان أحد نقباء الأنصار[٢] ، وقتل يوم أحد شهيدًا ، وقد كان رسول الله ﷺ قال يوم أحد : « من يأتيني بخبر سعد بن الربيع ؟ » ، فقال رجل : أنا ، فذهب يطوف في القتلى حتى عثر عليه وهو في آخر رمق ، فقال للرجل : ما شأنك ؟ قال : بعثني رسول الله لآتيه بخبرك . قال : فاذهب فأقرئه مني السلام ، وقل لقومك : الله الله ، وما عاهدتم عليه رسول الله ﷺ ليلة العقبة ، فوالله ما لكم عند الله عذر إن خلص إلى

(١) رجح الحافظ ابن حجر في الفتح أنها بالدنانير لا بالدراهم .

(٢) جمع نقيب وهو الرئيس ، والكفيل على قومه بما عاهدوا اللّه ورسوله عليه .

نبيكم وفيكم عين تطرف ، ولم يبرح الرجل حتى مات ، فرجعت إلى النبي ﷺ فأخبرته ، فقال : « رحمه الله ، نصح لله ولرسوله حيًّا وميتًا » . فرضي الله عنه وأرضاه[١] .

(آخَى رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ عبد الرحمن بن عوف وسَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ) .

ذلك أنه لما استقر المسلمون بالمدينة بعد الهجرة ألهم الله سبحانه نبيه محمدًا بعمل يعتبر غاية في حسن السياسة ، وأصالة النظر ، وبعد النظر ، فقد عقد بين المهاجرين والأنصار أخوة بها يتعاونون ، ويترافقون ، ويتناصرون ، بل ويتوارثون ، وإنه لعمل بارع حقًّا .

وقد اختلف العلماء في وقت هذه المؤاخاة : فقيل بعد الهجرة بخمسة أشهر ، وقيل : بتسعة ، وقيل : وهو يبني المسجد ، وقيل : قبل بنائه ، والذي نرجحه أن ذلك كان بعد الهجرة بقليل ، فإن الحال كانت تدعو إلى الإسراع بهذا الإخاء جمعًا للشمل ، وتوثيقًا للأخوة الدينية ، وقطعًا لدسائس الأعداء ولا سيما اليهود ، وقد كانت هذه المؤآخاة في دار الصحابي الجليل أنس بن مالك كما في صحيح الإمام مسلم .

فكان رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب أخوين ، والصديق أبو بكر وخارجة بن زيد أخوين ، والفاروق عمر وعقبان بن مالك أخوين[٢] ، وحمزة وزيد بن حارثة أخوين[٣] ، وحاطب بن أبي بلتعة وعويم بن ساعدة أخوين ، وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع أخوين ، وابن مسعود ومعاذ بن جبل أخوين ، ومصعب بن عمير وأبو أيوب الأنصاري أخوين ، وأبوحذيفة بن عتبة وعباد بن بشر أخوين ، وبلال وأبو رويحة أخوين ، وأبو عبيدة ابن الجراح وأبو طلحة الأنصاري أخوين[٤] ، والزبير بن العوام وسلمة بن سلامة بن وقش أخوين ، وطلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك أخوين ، وسعد بن زيد وأُبي بن كعب أخوين ، وعمار وحذيفة بن اليمان أخوين ..... وهكذا .

قال ابن سعد : آخى بين مائة : خمسين من المهاجرين ، وخمسين من الأنصار ، وليس

(١) انظر ترجمة الصحابيين الجليلين في كتب الرجال كأسد الغابة ، والاستيعاب ، والإصابة .

(٢) نص على ذلك ابن إسحاق ، وجاء في صحيح البخاري غير صريح .

(٣) ثبت أخوتهما في صحيح البخاري في كتاب المغازي ، باب عمرة القضاء .

(٤) ثبت ذلك في صحيح مسلم ، كتاب الفضائل ، باب مؤاخاة النبي ﷺ بين أصحابه رضي الله عنهم ، وكذلك رواه الإمام أحمد .

معنى هذا أنه لم يكن التآخي إلا بين هذا العدد ، وإنما كان هذا أول ما آخى ، وصار يجددها بحسب من يأتي إلى المدينة مهاجرًا ، ومن دخل في الإسلام بعد ذلك .

أوهام لابن إسحاق :

ومما ينبغي أن يتنبه إليه أن الإمام محمد بن إسحاق وهم في بعض من ذكرهما أخوين ، وذلك مثل عده جعفر بن أبي طالب ومعاذ بن جبل أخوين .

والمعروف الثابت أن جعفر ما كان بالمدينة آنئذ ، بل كان بالحبشة ، ولم يقدم المدينة إلى عام خيبر سنة سبع ، وعده أبا عبيدة وسعد بن معاذ أخوين ، والصحيح ما ذكرته .

وقد أجاب الإمام الحافظ ابن كثير عن بعض هذه المآخذ : بأن النبي أرصد من كان حاضرًا بالمدينة لأخوة من لم يكن حاضرًا بها حتى يقدم[1] !! وهو جواب كما ترى .

وقد أنكر الإمام تقي الدين أحمد بن تيمية المؤاخاة بين مهاجري ومهاجري ، وقال : إنها كانت بين مهاجري وأنصاري ، وقد رد عليه الحافظ ابن حجر في الفتح فقال : وأنكر ابن تيمية في كتاب الرد على ابن المطهر الرافضي- يعني كتابه منهاج السنة- المؤاخاة بين المهاجرين ، وخصوصًا مؤاخاة النبي ﷺ لعلي ، قال : لأن المؤاخاة شرعت لإرفاق بعضهم بعضًا ، ولتأليف قلوب بعضهم على بعض ، فلا معنى لمؤاخاة النبي لأحد منهم ، ولا لمؤاخاة مهاجري لمهاجري ، إلى آخر ما قال .

قال الحافظ : وهذا رد للنص بالقياس وإغفال عن حكمة المؤاخاة ، لأن بعض المهاجرين كان أقوى من بعض ، بالمال والعشيرة ، والقوى ، فآخى بين الأعلى والأدنى ، ليرتفق الأدنى بالأعلى ، ويستعين الأعلى بالأدنى ، وبهذا نظر مؤاخاته ﷺ لعلي ، لأنه هو الذي كان يقوم به من عهد الصبا من قبل البعثة ، وكذا مؤاخاة حمزة وزيد بن حارثة ، لأن زيدًا مولاهم ، فقد ثبتت أخوتهما وهما من المهاجرين[2] .

التوارث بهذه الأخوة :

ولم تكن هذه الأخوة أخوة إسلام وتعاون فحسب ، وإنما كانت أخوة بها يتوارثون ،

(١) البداية والنهاية ج٣ ص ٢٣٦، ٢٣٧.

(٢) فتح الباري (ج٧ ص٢١٧) .

قال عز شأنه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ ﴾ [الأنفال : ٧٢] .

وقد استمر الأمر على ذلك حتى عز الإسلام ، واجتمع الشمل ، وذهبت آثار الغربة من وحشة وحاجة ، فنسخ الله تعالى حكم التوارث بهذه الأخوة بالحكم الثابت المستقر ، وهو التوارث بالقرابة والرحم ، وهو الذي تقتضيه الفطرة البشرية ، فمن ثم كان آخر التشريع في دين الفطرة ، قال عز شأنه : ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ [الأحزاب : ٦] . وقوله سبحانه : ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُۢ﴾ [الأنفال : ٧٥] .

(سأقسم مالي بيني وبينك شطرين) .

قال في القاموس : الشطر – بفتح الشين – نصف الشيء ، وجزؤه ، ومنه حديث الإسراء : « فوضع شطرها » أي : بعضها ، جمعه أشطر وشطور ، والجهة والناحية .

والمراد هنا الأول وهو النصف بدليل الرواية الأولى : (فأقسم مالي نصفين) .

(ولي امرأتان فانظر أعجبهما إليك ، فأطلقها حتى إذا حلت تزوجتها) .

أعجبهما : أحسنهما وأجملهما ، حلت : أي : انتهت عدتها ، وقد جاء ذلك صريحًا في الرواية الأولى ، وهو أعلى أنواع الإيثار لأن الإنسان قد يؤثر غيره بماله ، وهذا أمر معهود ، أما أن يؤثره بأحسن زوجتيه وأجملهما على نفسه فهذا أمر لا يكاد يعرف إلا نادرًا جدًّا ، ولكنه الإيمان الحق الصادق فعل فعله في نفوس الأنصار رضوان الله عليهم حتى آثر سعد أخاه عبد الرحمن بأحسن زوجتيه وأجملهما .

وهكذا ضرب سيدنا سعد بن الربيع مثلًا فريدًا في تاريخ البشر !!.

(فقال عبد الرحمن : بارك الله في أهلك ومالك) .

لئن كان سيدنا سعد قد ضرب مثلًا أعلى في الإيثار فقد ضرب سيدنا عبد الرحمن بن عوف على عوزه وحاجته مثلًا عاليًا لعزة النفس ، والمروءة ، والعفة ، والرغبة في العمل والاكتساب ، وهكذا يجب أن يكون المسلم ، عزيزًا ، عفيفًا ، يأكل من عمل يده .

(أين سوقك ؟ فدلوه على سوق بني قينقاع) .

بفتح القاف ، وسكون الياء ، وضم النون ، وفتح القاف ، وهم قوم من اليهود الذين كانوا يسكنون بالقرب من المدينة ، فذهب إلى السوق فباع واشترى وعاد بفضل من ربح ، وكان من أقط وسمن ، الأقط : بفتح الهمزة وكسر القاف : الجبن المصنوع من اللبن بعد نزع زبده ، والسمن : معروفة ، وهي ما تؤخذ من لبن الحيوان كالبقر والغنم ونحوهما .

(ثم تابع الغدو) : الذهاب إلى السوق والبيع والشراء ، والاكتساب .

(ثم جاء يومًا وبه أثر صفرة) وفي الرواية الأخرى (وعليه وضر من صفرة) .

الوضر : بفتح الواو والضاد المعجمة وآخره راء مهملة هو الأثر ، وفي رواية (وعليه ردع زعفران) الردع بفتح الراء وسكون الدال آخره عين مهملة : هو أثر الزعفران ، والمراد بالصفرة : صفرة الخلوق ، والخلوق : طيب يصنع من زعفران وغيره ، وقد استدل به على جواز التزعفر للعروس وخص به عموم النهي عن التزعفر للرجال ، وأما الذين منعوه مطلقًا فأجابوا عن الحديث بأن ذلك كان قبل النهي ، أو أن النهي ليس على التحريم ، وإنما هو للتنزيه ، فيكون جائزًا ولا سيما للعروس .

(مهيم) كلمة معناها : ما شأنك ؟ أو : ما هذا ؟ فهي كلمة استفهام مبنية على السكون ، وأهي بسيطة ، أم مركبة ؟ قولان لأهل اللغة ، وقال ابن مالك : هي اسم فعل بمعنى أخبر .

ووقع في بعض الروايات بلفظ : ما هذا ؟ وهو يدل على أنها للاستفهام عن شأنه وحاله .

(قال : تزوجت ، قال : كم سقت إليها ؟ قال : نواة من ذهب أو وزن نواة من ذهب) .

وقد قيل أن اسم هذه المرأة من الأنصار أم إياس بنت أبي الحيسر ، واسمه أنس بن رافع الأوسي ، (نواة من ذهب أو وزن نواة من ذهب) شك من الراوي أي اللفظين قاله عبد الرحمن . وهنا يدل على شدة تحري الرواة في الألفاظ وإلا فالمعنى متقارب ، ووزن النواة قدره خمسة دراهم ، وقيل : ربع دينار ، وأيًا كان المراد فالحديث دليل على عدم الغلو في المهور ، واستحباب القصد فيها ، ولو كان ذلك مكرمة لكان أولى بها رسول الله ﷺ والصحابة .

« أَوْلِم ولو بشاة » ، يدل على مشروعية الوليمة في العرس واستحبابها ، وأنه يكفي شاة ، بل ما هو دون الشاة ، والأمر متروك لحالة الزوج ، فإن استطاع أن يولم بأكثر من شاة فليفعل .

وبعد ، فقد كان لهذه الأخوة آثارها البعيدة المدى في الحب والارتفاق والتعاون والتناصر ، وقاموا بحقوقها خير قيام ، وضرب الأنصار في هذا الباب مثلًا عليا لم تعرف لغير هؤلاء السادة الكرام الأبرار ، وهذا ما سأحدثك عنه في الحديث الآتي إن شاء الله تعالى .

❊ ❊ ❊

(4) من مآثر الأنصار رضوان الله عليهم(١)

روى الإمام البخاري في صحيحه بسنده عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَتِ الأَنْصَارُ لِلنَّبِيِّ ﷺ : اقْسِمْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا النَّخِيلَ : قَالَ : « لا » ، فَقَالُواْ : تَكْفُونَا الـمَئُونَةَ وَنَشْرَكْكُمْ في الثَّمَرَةِ ، قَالُواْ : سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا .

وروى البخاري بسنده عَنْ يحيى بْنِ سَعِيدٍ أنه سَمِعَ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رضي الله عنه حِينَ خَرَجَ مَعَهُ إِلى الوَلِيدِ قَالَ : دَعَا النَّبِيُّ ﷺ الأَنْصَارَ إِلى أَنْ يُقْطِعَ لَهُمُ البَحْرَيْنِ فَقَالُواْ : لا ، إِلا أَنْ تُقْطِعَ لإِخْوَانِنَا مِنَ المُهَاجِرِينَ مِثْلَهَا ، قَالَ : « إِمَّا لا فَاصْبِرُواْ حَتى تَلْقَوْني فَإِنَّهُ سَيُصِيبُكُمْ بَعْدِي أَثَرَةٌ » .

تخريج الحديث :

روى البخاري الحديث الأول في كتاب الفضائل- باب إخاء النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار ، وفي كتاب المزارعة – باب إذا قال : أكفني مؤنة النخل أو غيره ، وتشركني في الثمر ، وذكره موجزًا في كتاب الهبة ، باب المنيحة .

وروى الثاني في الفضائل- باب قول النبي ﷺ للأنصار : اصبروا حتى تلقوني على الحوض ، وفي كتاب المزارعة- باب القطائع ، وباب كتابة القطائع .

الشرح والبيان :

أما أبو هريرة وأنس رضي الله عنهما فقد تقدمت ترجمتهما فلا داعي لإعادتها ، والوليد هو ابن عبد الملك بن مروان ، وكان السبب في ذهاب أنس إلى الوليد بن عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي أن الحجاج بن يوسف الثقفي المبير الظالم قد آذى أنسًا رضي الله عنه وهو بالبصرة ، فخرج برفقة تلميذه يحيى بن سعيد الأنصاري حتى قدم دمشق ، فشكاه إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك بن مروان ، فأنصفه منه ، وأزال شكايته .

(قالت الأنصار للنبي ﷺ) .

الأنصار جمع نصير ، كشريف وأشراف ، وشهيد وأشهاد ، وهو علم على قبيلة الأوس والخزرج ، والأوس ينسبون إلى الأوس بن حارثة ، والخزرج ينسبون إلى الخزرج بن حارثة ،

(١) مجلة الأزهر : ج٥ سنة ٤٥.

وهما ابنا قيله – بفتح القاف وسكون الياء ، وفتح اللام ، آخره هاء – وهو اسم أمهم ، وأبوهم حارثة بن عمرو بن عامر الذي يجتمع إليه أنساب الأزد .

والأنصار اسم إسلامي ، سمى به النبي ﷺ الأوس والخزرج[١] لأنهم نصره وآووه وأصحابه وآثروهم على أنفسهم ، ومنعوا النبي مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم ، ووفوا له بما عاهدوه عليه في العقبة الأولى والثانية .

وإن المتأمل فيما قام به السادة الأخيار الأنصار رضي الله عنهم وأرضاهم تجاه النبي ﷺ وأصحابه المهاجرين ليعجب مما فعله هؤلاء القوم ، ولو ذهب يتلمس الأسباب فلن يجد إلا سبب الأسباب وهو أن ذلك كان بفضل الله ورحمته ، لابصنع بشر ، وحكمته ، وسياسته ، وصدق الله تبارك وتعالى في قوله : ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٢ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال : ٦٢ – ٦٣] .

ذلك أنه لم يلتق النبي ﷺ بالأنصار في العقبة إلا سويعات تحت جنح الليل ، واكتفى منها بعرض الإسلام ، وأخذ العهود والمواثيق عليهم ، ولم يطل لقاؤه معهم قبل الهجرة حتى يكون هذا الذي فعلوه بسبب تربية النبي ﷺ إياهم ، وطول تعهده لهم كما فعل مع المهاجرين حتى كون منهم رجالًا أبطالًا ، ولم يكن بين دخولهم في الإسلام ، وقيامهم بهذه المآثر إلا أقل من عام ، وقد سمعت فيما مضى طرفًا من لقائهم للرسول وإكرام وفادته ، وذلك في حديث الهجرة[٢] .

ولم يكن شعورهم تجاه إخوانهم المهاجرين بأقل من هذا ، فقد فتحوا لهم قلوبهم قبل أن يفتحوا لهم بيوتهم ، ووسعوهم بصدورهم قبل أن يسعوهم بأموالهم ، وتسابقوا إلى لقائهم وإكرامهم حتى لم يجدوا بدًا في بعض الأحيان من تحكيم القرعة بينهم ، وضربوا في باب الإيثار وسخاء النفس وكرم الطبع مثلًا عليا لا تزال تذكرها لهم الأجيال المتعاقبة بالإكبار ، والإعظام ، وأقرب شاهد على هذا ما ذكرناه في المقال الماضي مما كان بين

(١) صحيح البخاري ، باب مناقب الأنصار ، ففيه أنه : سئل أنس : أرأيت اسم الأنصار كنتم تسمون به ، أم سماكم الله به ؟ قال : بل سمانا الله به .

(٢) انظر عدد المحرم ١٣٩٣ – مجلة الأزهر .

سعد بن الربيع الانصاري وأخيه في الله عبد الرحمن بن عوف المهاجري ، واعتقد أن القراء الكرام على ذكر منه ، ومن هذه المثل العليا ما رواه أبو هريرة في هذا الحديث : (اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل) .

النخيل : جمع نخل ، كعبد وعبيد ، وهو جمع نادر كما قال صاحب الفتح . والمراد بإخوانهم المهاجرون ، وقد جاءوا يعرضون ذلك على النبي ﷺ عن طواعية واختيار ، بل عن حب وإيثار وما كانوا – علم الله – إلا صادقين فيما يقولون ، مخلصين فيما يعرضون .

قال : « لا » .

القائل : « لا » ، هو النبي ﷺ بالنيابة عن المهاجرين ، لأنه ﷺ يعلم أن الأنصار قد قاموا لإخوانهم المهاجرين بالكثير من الإرفاق والبذل والعطاء والإيثار ، وأن الدنيا ستفتح على المسلمين ، وسينال المهاجرين منها الخير الكثير من الأموال والعقار ، فآثر أن يبقى للأنصار عقارهم ولا سيما والنبي ﷺ يعلم أيضًا أن المهاجرين لا تطيب أنفسهم باقتسام العقار والبساتين مع إخوانهم الأنصار ، فمن ثم قال : « لا » .

فلما فهم الأنصار ذلك جمعوا بين المصلحتين : امتثال ما أمرهم به النبي ﷺ وهو الإبقاء على نخيلهم ، وتعجيل مواساة إخوانهم المسلمين ، فسألوهم أن يساعدوهم في العمل . ويشركوهم في الثمر ، وهو أمر وسط ، وفيه رفق بالطرفين .

(فقالوا : تكفونا المؤنة ، ونشرككم في الثمرة) .

القائل : هم الأنصار رضوان الله عليهم . المؤنة : هو ما يحتاج النخيل من حرث وسقي وعمل ورعاية . نشرككم : هو بفتح النون ، وسكون الشين، وفتح الراء ، أي : نقتسم معكم ثمر النخيل .

(قالوا : سمعنا وأطعنا) .

القائل هم المهاجرون ، أي : سمعنا لما عرضتم ، وأطعنا ما عرضتم ، وهذا من أدب المهاجرين مع إخوانهم الأنصار ، وهكذا نجد أنهم بادلوهم حبًا بحب ، وأدبًا بأدب ، فرضي الله عن الجميع .

قوله في الحديث الثاني : (دَعَا النَّبِيُّ ﷺ الأَنْصَارَ أَنْ يُقْطِعَ لَهُمُ البَحْرَيْنِ) .

البحرين : إقليم من أقاليم الجزيرة العربية على الخليج العربي ، وأشهر مدنه البحرين ، والنسبة إليها بحراني ، والبحرين من البلاد التي أسلم أهلها قديمًا بعد الهجرة ، وكان أميرها العلاء بن الحضرمي ، وكان النبي ﷺ أراد أن يكافئهم على ما قدموا له وللمهاجرين من بر ومواساة وإيواء ، ولكن القوم سموا ، وأبوا إلا أن يكون عملهم لوجه الله لا يريدون عليه من أحد جزاء ولا شكورا ، وهذا هو الظن بالأنصار ، وهذا هو معنى قولهم : لا ، إلا أن تقطع لإخواننا المهاجرين مثلنا .

قَالَ : « إِمَّا لا فَاصْبِرُواْ حَتى تَلْقَوْني ، فَإِنَّهُ سَيُصِيبُكُمْ بَعْدِي أَثَرَةٌ » .

« إما لا » ، أصلها إن مكسورة الهمزة ساكنة النون المخففة ، وهي الشرطية ، وما زائدة ، ولا نافية ، فأدغمت النون في الميم ، وفعل الشرط محذوف وتقديره (تقبلوا) ، أو (تفعلوا) ، والمعنى إما لا تقبلوا ما عرضته عليكم فاصبروا حتى تلقوني ، وفي رواية : « حتى تلقوني على الحوض فإنه سيصيبكم بعدي أثرة » .

الضمير في « فإنه » ضمير الشأن ، يعني فإن الحال والشأن أنه سيصيبكم بعد موتي أثرة ، والأثرة بفتح الهمزة والثاء ، وفتح الراء ، وهي الاستئثار ، وهو خلاف الإيثار ، وضده ، وروي بضم الهمزة ، وسكون الثاء وهو بمعنى الأثرة ، والمراد الاستئثار عليهم بالإمارة ، وبالأموال ، وقد أشار رسول الله ﷺ بهذا إلى أن الأمر كما وصف ﷺ ، وهو معدود فيما أخبر به من الأمور الآتية ، فوقع كما قال ، فكان من معجزاته ﷺ .

وإن شئت أروع من ذلك في باب الإيثار وأعجب ، فإليك ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ يوم النضير للأنصار : « إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وتشاركونهم في هذه الغنيمة ، وإن شئتم كانت لكم أموالكم ودياركم ولم تقسم لكم شيئًا من الغنيمة » ، فقالت الأنصار : بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم الغنيمة ولا نشاركهم فيها !!! . ذكره البغوي في تفسيره .

يالله لهذه النفوس الكريمة الأبية ، المؤثرة غيرهم على أنفسهم ، حتى ولو كانت بهم حاجة وفقر ، فلا عجب أن أنزل الله في الأنصار قرآنًا يتلى إلى يوم الدين ، وصدق الله حيث يقول : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ

نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩][١]، [٢].

ولا عجب أن قال فيهم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه مشيدًا بمناقبهم وفضلهم: « لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار »، وأن جعل حبهم علامة الإيمان، وبغضهم علامة النفاق، فقال: « آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار »، وقال: « الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق، فمن أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله »، روى الثلاثة البخاري. وأن أوصى بهم المسلمين بعده خيرًا، فقد حدث أنس بن مالك قال: مر أبو بكر والعباس رضي الله عنهما بمجلس من مجالس الأنصار وهم يبكون، فقال: ما يبكيكم؟ قالوا: ذكرنا مجلس النبي ﷺ منا، فدخل على النبي ﷺ فأخبره بذلك قال: فخرج النبي ﷺ وقد عصب على رأسه حاشية بردة، فصعد المنبر، ولم يصعده بعد ذلك، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: « أوصيكم بالأنصار فإنهم كرشي، وعيبتي[٣]، وقد قضوا الذي عليهم، وبقي الذي لهم، فأقبلوا من محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم ». رواه البخاري. فرضي الله عن الأنصار وأرضاهم كفاء ما قدموا للإسلام والمسلمين من عون ونصرة.

❊ ❊ ❊

(١) الدار والإيمان: أي وأحبوا الإيمان.

(٢) خصاصة: فقر.

(٣) بطانتي وخاصتي وقوتي، وموضع سري، وهذا من الكلام البديع الذي لم يسبق إليه ﷺ.

[٥] من هدي السنة في النبوءة الصادقة

(1) نبوءة صادقة

روى البخاري في صحيحه بسنده عن ابن شهاب من حديث الهجرة الطويل قَالَ ابْنُ شِهَابٍ : وَأَخْبرَني عَبْدُ الرَّحمَنِ بْنُ مَالِكٍ المُدْلِجِيُّ[١] وَهُوَ ابْنُ أَخِي سُرَاقَةَ بْنِ جُعْشُمٍ أَنَّ أَبَاهُ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ سُرَاقَةَ بْنَ جُعْشُمٍ يَقُولُ : « جَاءَنَا رُسُلُ قُرَيْشٍ يجعَلُونَ في رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ دِيَةَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَنْ قَتَلَهُ أَوْ أَسَرَهُ ، فَبَيْنَمَا أَنَا جَالِسٌ في مجْلِسٍ مِنْ مجَالِسِ قَوْمِي بَني مُدْلِجٍ أَقْبَلَ رَجُلٌ مِنْهُمْ حتى قَامَ عَلَيْنَا ، وَنحنُ جُلُوسٌ فَقَالَ : يَا سُرَاقَةُ إِني قَدْ رَأَيْتُ آنِفًا أَسْوِدَةً بِالسَّاحِلِ أُرَاهَا محَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ قَالَ سُرَاقَةُ فَعَرَفْتُ أَنَّهُمْ هُمْ فَقُلْتُ لَهُ : إِنَّهُمْ لَيْسُواْ بِهِمْ ، وَلَكِنَّكَ رَأَيْتَ فُلانًا وَفُلانًا انْطَلَقُواْ بِأَعْيُنِنَا ، ثمَّ لَبِثْتُ في المجْلِسِ سَاعَةً ، ثمَّ قُمْتُ فَدَخَلْتُ ، فَأَمَرْتُ جَارِيَتِي أَنْ تَخْرُجَ بِفَرَسِي وَهِيَ مِنْ وَرَاءِ أَكَمَةٍ ، فَتحْبِسَهَا عَلَيَّ ، وَأَخَذْتُ رُمْحِي ، فَخَرَجْتُ بِهِ مِنْ ظَهْرِ البَيْتِ ، فَخَطَطْتُ بِزُجِّهِ الأَرْضَ ، وَخَفَضْتُ عَالِيَهُ حتى أَتَيْتُ فَرَسِي فَرَكِبْتُهَا ، فَرَفَعْتُهَا تُقَرِّبُ بي حَتى دَنَوْتُ مِنْهُمْ ، فَعَثَرَتْ بي فَرَسِي ، فَخَرَرْتُ عَنْهَا ، فَقُمْتُ فَأَهْوَيْتُ يَدِي إِلى كِنَانَتي فَاسْتَخْرَجْتُ مِنْهَا الأَزْلامَ ، فَاسْتَقْسَمْتُ بهَا أَضُرُّهُمْ أَمْ لا ؟ فَخَرَجَ الَّذِي أَكْرَهُ ، فَرَكِبْتُ فَرَسِي وَعَصَيْتُ الأَزْلامَ تُقَرِّبُ بي ، حَتى إِذَا سَمِعْتُ قِرَاءَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ لا يَلْتَفِتُ ، وَأَبُو بَكْرٍ يُكْثِرُ الالتِفَاتَ سَاخَتْ يَدَا فَرَسِي في الأَرْضِ حَتى بَلَغَتَا الرُّكْبَتَيْنِ ، فَخَرَرْتُ عَنْهَا ، ثمَّ زَجَرْتُهَا فَنَهَضَتْ ، فَلَمْ تَكَدْ تُخْرِجُ يَدَيْهَا ، فَلَمَّا اسْتَوَتْ قَائِمَةً إِذَا لأَثَرِ يَدَيْهَا عُثَانٌ سَاطِعٌ في السَّمَاءِ مِثْلُ الدُّخَانِ ، فَاسْتَقْسَمْتُ بِالأَزْلامِ ، فَخَرَجَ الَّذِي أَكْرَهُ !! فَنَادَيْتُهُمْ بِالأَمَانِ ، فَوَقَفُواْ فَرَكِبْتُ فَرَسِي حتى جِئْتُهُمْ ، وَوَقَعَ في نَفْسِي حِينَ لَقِيتُ مَا لَقِيتُ مِنَ الحَبْسِ عَنْهُمْ أَنْ سَيَظْهَرُ أَمْرُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ لَهُ : إِنَّ قَوْمَكَ قَدْ جَعَلُواْ فِيكَ

---

(٤) المدلجي – بضم الميم وسكون الدال ، وكسر اللام ثم جيم – من بني مدلج بن مرة بن عبد مناف بن كنانة ، وعبد الرحمن بن مالك هذا اسم جده مالك بن جعشم أيضًا ، وأبوه مالك بن جعشم له إدراك ، ولم يذكره أحد في الصحابة ، وعده ابن حبان في التابعين ، وأما سراقة فصحابي قطعًا .

الدِّيَةَ ، وَأَخْبَرْتُهُمْ أَخْبَارَ مَا يُرِيدُ النَّاسُ بِهِمْ ، وَعَرَضْتُ عَلَيْهِمُ الزَّادَ وَالمَتَاعَ فَلَمْ يَرْزَآني ، وَلَمْ يَسْأَلاني ، إلا أَنْ قَالَ : أَخْفِ عَنَّا ، فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَكْتُبَ لي كِتَابَ أَمْنٍ ، فَأَمَرَ عَامِرَ بْنَ فُهَيْرَةَ فَكَتَبَ في رُقْعَةٍ مِنْ أَدِيمٍ ثمَّ مَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ » .

تخريج الحديث :

رواه البخاري في صحيحه بهذا السند عن سراقة- باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة- وروى نحوه عن أنس في هذا الباب .

الشرح والبيان :

(سُرَاقَةَ بن جُعْشُمٍ) .

سُراقة بضم السين وفتح الراء الخفيفة ، جعشم : بضم الجيم ، والشين المعجمة ، بينهما عين مهملة وهو سراقة بن مالك بن جعشم ، هكذا ورد في رواية أبي ذر في الصحيح ، فيكون هنا قد نسب إلى جده اختصارًا ، فجعشم جده لا والده ، وقد أسلم وحسن إسلامه بعد حنين والطائف ، وكان للنبي معه قصة تعتبر من معجزات النبي ﷺ وستأتي ، وقد عاش إلى خلافة سيدنا عثمان رضي الله عنه .

(جَاءَنَا رُسُلُ كُفَّارِ قُرَيْشٍ يجْعَلُونَ في رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَبي بَكْرٍ دِيَةَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا على قَتَلَهُ أَوْ أَسَرَهُ) .

وقد كان ذلك لما خرج النبي ﷺ وصاحبه الصديق ليلًا مهاجرين إلى المدينة ، حتى وصلا إلى غار ثور ، واختبئا فيه ، فلما أصبح الصباح ، ودخلوا المنزل الذي كانوا يراقبون فيه رسول الله ﷺ وينتظرونه طول الليل جن جنونهم ، فجعلوا جُعلًا لمن يأتي برسول الله ﷺ أو صاحبه حيًّا أو ميتًا ، فله عن كل واحد مائة ناقة ، وهذا الجعل ليس بالشيء اليسير في هذا الزمن ، فمن ثم سعى الكثيرون في الحصول على هذا الجعل ، ولكن الله سبحانه حال بينهم وبين ما يريدون ، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال : ٣٠] . فجازاهم الله بمكرهم مكرًا ، ورد كيدهم في نحرهم .

(فَبَيْنَمَا أَنَا جَالِسٌ في مجْلِسٍ مِنْ مجَالِسِ قَوْمِي بَني مُدْلِجٍ أَقْبَلَ رَجُلٌ مِنْهُمْ حتى قَامَ عَلَيْنَا وَنحْنُ جُلُوسٌ) .

هذا قول سراقة ، وفي رواية : « إذ أقبل ... » ، وجلوس : جمع جالس ، والجملة

حالية ، قام علينا : أي وقف .

(فَقَالَ : يَا سُرَاقَةُ إِني قَدْ رَأَيْتُ آنِفًا أَسْوِدَةً بِالسَّاحِلِ أُرَاهَا محَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ) .

أسودة : أي أشخاصًا ، أُراها : بضم الهمزة ، أي : أظنها محمدًا ومن معه ، وفي رواية موسى بن عقبة وابن إسحاق : (لقد رأيت ركبة ثلاثة ، إني لأظنه محمدًا وأصحابه) ، وركبة : جمع راكب .

(قَالَ سُرَاقَةُ فَعَرَفْتُ أَنَّهُمْ هُمْ فَقُلْتُ لَهُ : إِنَّهُمْ لَيْسُواْ بهِمْ ، وَلَكِنَّكَ رَأَيْتَ فُلانًا وَفُلانًا انْطَلَقُواْ بِأَعْيُنِنَا) .

بأعيننا : أي : في نظرنا معاينة يبتغون ضالة لهم ، وفي رواية موسى بن عقبة وابن إسحاق : (فأومأت إليه : أن اسكت وقلت : إنهم بنوا فلان يبتغون ضالة لهم ، قال : لعل ، وسكت) . وغرض سراقة بهذا ؛ التعمية والتضليل ، حتى يذهب هو ويحصل على هذا الجعل الكبير الذي يجعل صاحبه من أهل الثراء .

(ثمَّ لَبِثْتُ في المجْلِسِ سَاعَةً) .

أي : مدة من الوقت ، لأنها في لغة العرب لمطلق الوقت ، وليس المراد الساعة الفلكية التي هي ستون دقيقة .

(ثمَّ قُمْتُ فَدَخَلْتُ فَأَمَرْتُ جَارِيَتِي أَنْ تَخْرُجَ بِفَرَسِي وَهِيَ مِنْ وَرَاءِ أَكَمَةٍ فَتحْبِسَهَا عَلَيَّ) .

الأكمة : هي الرابية المرتفعة من الأرض ، فتحبسها علي : أي : تقف بها وراء الأكمة حتى يحضر إليها ، وغرضه بهذا المبالغة في التخفي والتستر عن الأعين حتى لا يلحق به أحد فيشاركه في هذا الصيد الثمين .

(وَأَخَذْتُ رُمْحِي فَخَرَجْتُ بِهِ مِنْ ظَهْرِ البَيْتِ) .

أي : من خلفه حتى لا يشعر به أحد ، وفي الروايات الأخرى أنه أخذ سلاحه ولبس لأْمَته[١] .

(فَخطَطْتُ بِزُجِّهِ الأَرْضَ وَخَفَضْتُ عَالِيَهُ حتى أَتَيْتُ فَرَسِي فَرَكِبْتُهَا) .

---

(١) اللأمة : ما يلبسه المحارب من درع ، وبيضة على الرأس ونحوهما .

الزج : الحديدة في أسفل الرمح ، وخفضت عاليه : يعني : حتى لا يلمح فيراه بعض الناس فيتبعه فيشركه في الجعل .

(فَرَفَعْتُهَا تُقَرِّبُ بي حتى دَنَوْتُ مِنْهُمْ ، فَعَثَرَتْ بي فَرَسِي فَخَرَرْتُ عَنْهَا فَقُمْتُ) .

رفعتها : أي : أسرعت بها السير ، تقرب بي : هو السير دون العدو ، وفوق العادة ، وقيل : أن ترفع الفرس يديها معًا ، وتضعهما معًا ، فخررت عنها ، أي : سقطت .

(فَأَهْوَيْتُ يَدِي إلى كِنَانَتِي فَاسْتَخْرَجْتُ مِنْهَا الأَزْلامَ فَاسْتَقْسَمْتُ بها أَضُرُّهُمْ أَمْ لا ؟ فَخَرَجَ الَّذِي أَكْرَهُ) .

أهويت يدي : أي : بسطتها للأخذ من الكنانة ، والكنانة الكيس من الجلد توضع فيه القداح ، والأزلام : جمع زلم وهي قطعة من خشب كالسهم إلا أنها لا ريش لها ولا نصل ، والاستقسام : طلب القسمة والحظ والنصيب ، وكانت الأزلام ثلاثة : واحد كتب عليه : إفعل ، والثاني : لا تفعل ، والثالث : غفل ، فإذا أرادوا سفرًا أو تجارة أو هربًا أو غير ذلك استقسموا بها ، فإذا خرج الذي عليه (إفعل) مضى لسبيله ، وإذا خرج : (لا تفعل) امتنع ، وإذا خرج : الغفل– الذي ليس عليه شيء– ضرب مرة أخرى ، وهذا من خرافات الجاهلية وعقائدهم التي أبطلها الإسلام ، فلما استقسم بالأزلام خرج الذي يكره ، وهو ما ينهاه عن الضرر .

ولم ير سراقة في عثرة فرسه ولا في خروج سهمه بالذي يكره زاجرًا ، فتابع السير عسى أن يحصل على الدية الكبيرة المغرية .

قال : (فَرَكِبْتُ فَرَسِي وَعَصَيْتُ الأَزْلامَ تُقَرِّبُ بي ، حتى إِذَا سَمِعْتُ قِرَاءَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ لا يَلْتَفِتُ ، وَأَبُو بَكْرٍ يُكْثِرُ الالتِفَاتَ سَاخَتْ يَدَا فَرَسِي في الأَرْضِ حتى بَلَغَتَا الرُّكْبَتَيْنِ ، فَخَرَرْتُ عَنْهَا) .

وهذا يدل على مبلغ ثقة رسول الله بربه ، وتوكله عليه ، وثبات قلبه في هذا الموقف الحرج ، وهو غاية الشجاعة في مثله ، ولم يكن الصديق رضي الله عنه ليخاف على نفسه بكثرة التفاته ، وإنما كان يخاف على رسول الله ، أما نفسه فهي هينة عليه في سبيل الله ، ومعنى ساخت : أي غاصت ، فخررت عنها : أي : فسقطت ، تقرب بي : أي : تسرع ، والجملة حالية من (فرسي) ، وفي هذه الرواية إيجاز قد بينته الروايات الأخرى في البخاري وغيره ، ففي حديث البراء بن عازب : « اللهم اكفناه بما شئت » ، وفي حديث أنس عند

البخاري : « فالتفت النبي ﷺ فقال : « اللهم اصرعه » فصرعه فرسه .

(ثُمَّ زَجَرْتُهَا فَنَهَضَتْ فَلَمْ تَكَدْ تُخْرِجُ يَدَيْهَا) .

يعني : لم تقرب أن تخرج يديها ، وهذا بيان لغوص قدميها في الأرض ، وما عانته فرسه في هذا ، وهذا من معجزات النبوة ، والفرس قد تعثر ، أما أن يغوص قدماها إلى بطنها فهذا أمر وراء العادة .

قال : (فَلَمَّا اسْتَوَتْ قَائِمَةً إِذَا لأَثَرِ يَدَيْهَا عُثَانٌ سَاطِعٌ في السَّمَاءِ مِثْلُ الدُّخَانِ) .

عثان : هو الغبار الذي يشبه الدخان ، في السماء : يعني : في الجو ، وفي رواية أخرى : غبار وهي تفسر هذه .

(فَاسْتَقْسَمْتُ بِالأَزْلامِ فَخَرَجَ الَّذِي أَكْرَهُ) .

لم يعتبر سراقة بما جرى ، فأغراه عظم الجُعل أن يضرب القداح مرة أخرى فخرج الذي يكره ، فلم يجد بدًّا من المسالمة .

قال سراقة : (فَنَادَيْتُهُمْ بِالأَمَانِ ، فَوَقَفُواْ فَرَكِبْتُ فَرَسِي حَتى جِئْتُهُمْ) .

هكذا في الصحيح أنه ناداهم بالأمان بعد المرتين : العثرة ، والغوص ، وفي السيرة لابن إسحاق أنه واصل طلبهم بعد الغوص ، وأنه غاصت قدما فرسه في المرة الثالثة أيضًا ، فلم يجد بدًّا من أن يناديهم بالأمان[1] ، فلعل في رواية الصحيح اقتصارًا على المرتين .

قال : (وَوَقَعَ في نَفْسِي حِينَ لَقِيتُ مَا لَقِيتُ مِنَ الحَبْسِ عَنْهُمْ أَنْ سَيَظْهَرُ أَمْرُ رَسُولِ اللهِ ﷺ) .

لقد تأكد سراقة أن رسول الله ممنوع ، وأن الله حافظه وعاصمه من الناس ، فهي شهادة من عدو ، والفضل ما شهدت به الأعداء ، ولو كان في الأمر أدنى شبهة لما وقع في نفس سراقة ما وقع ، وقد حاول الرجل النيل منهم مرارًا فلم يفلح وحبسه الله عنهم ، وحال بينه وبين إيذائهم فلم يجد بدًّا من أن يفضي إلى الرسول بما جعلت قريش لمن قتله أو أسره هذا الجعل الكبير ، وأخبرهم بما يريد الناس من اللحاق بهم والظفر بهم .

(وَعَرَضْتُ عَلَيهِمُ الزَّادَ وَالمَتَاعَ فَلَمْ يَرْزَآني ، وَلَمْ يَسْأَلاني ، إلا أَنْ قَالَ : أَخْفِ عَنَّا) .

وقد عرض عليهم سراقة بعد ما رأى– وهو العربي الكريم– الزاد والمتاع فلم يقبلا ،

---

(١) سيرة ابن هشام (ج١ ص٤٨٩) .

ومعنى فلم يرزآني ، أي : فلم ينقصاني مما معي شيئًا ، ولم يسألاني إلا أن قال – أي النبي ﷺ – : أخف عنا ، أي : أخف أخبارنا عمن يقابلك ممن يطلبنا ، وفي حديث أنس في الصحيح : (فقال : يا رسول الله ، مرني بما شئت ، فقال : « فقف مكانك فلا تترك أحدًا يلحق بنا » ، قال– أي : أنس– : فكان أول النهار جاهدًا على رسول الله ﷺ ، وكان آخر النهار مسالمًا له) . أي : حارسًا له بسلاحه ، وهكذا نرى أنه قد جاء محاربًا فإذا به يرجع مسالمًا ، وجاء يبغي شرًا ، فإذا به يدفع الشر عن النبي وصاحبه ، فسبحان الله الذي يسخر الكون لمن يشاء من عباده المخلصين الصالحين !! ، وقد وفى سراقة بما عاهد عليه خير الوفاء ، فجعل لا يلقي أحدًا من الطالبين إلا صده ، وقال له : قد كفيتم ما ها هنا حتى اطمأن إلى أن النبي وصحبه قد وصلوا إلى المدينة ، فصار يحدث بما رأى وما سمع .

(فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَكْتُبَ لي كِتَابَ أَمْنٍ فَأَمَرَ عَامِرَ بْنَ فُهَيْرَةَ فَكَتَبَ في رُقْعَةٍ مِنْ أَدِيمٍ ، ثُمَّ مَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ) .

لقد تأكد سراقة أن أمر رسول الله سيظهر ، وسينشر دينه ، فرغب إلى النبي أن يكتب له كتاب أمان وموادعة ليكون عصمة له يوم يضطر إليه ، فأمر الرسول عامر بن فهيرة فكتب له الكتاب في أدم وهو الجلد المدبوغ وهو جمع أديم ، ومضى رسول الله ﷺ وصحبه لسبيلهم إلى المدينة ، ورجع سراقة بكتاب الأمارة .

« ستلبس سواري كسرى »

ولم تقف قصة سراقة عند هذه المعجزة الظاهرة ، وهي غوص قدمي فرسه غير مرة ، ورجوعه سلمًا بعد أن كان حربًا ، بل تعدى ذلك إلى نبوءة أخرى صادقة ما كان يجول مصداقها بخلد إنسان قط إلا أن يكون نبيًا يوحى إليه من ربه .

ذلك أنه لما هم سراقة بالرجوع التفت إليه النبي وقال : « كأني بك يا سراقة تلبس سواري كسرى » ، فقال سراقة متعجبًا : سواري كسرى بن هرمز ؟ ! ، قال : « نعم » ، فرجع سراقة وهو في حيرة من أمر هذه النبوءة ، وتواردت على نفسه شتى الهواجس والخواطر والخلجات النفسية ، محمد الذي خرج مستخفيًا مطاردًا من قومه يخشى الطلب ويخاف الرصد ولا يكاد يأمن على نفسه يعدني سواري كسرى !! كسرى أنوشروان ، ملك الملوك !! يا للعجب !! .

إسلام سراقة :

وتسير الأيام في صالح الدعوة الإسلامية بعد جهاد وكفاح مريرين ، وتضحية وصبر نادرين ، ويدخل النبي ﷺ مكة فاتحًا منتصرًا ، وتدول دولة الشرك والأصنام ، ويقابل سراقة رسول الله ﷺ مرجعه من حنين والطائف فيطلعه على الكتاب فيقول له سيد الأوفياء : « اليوم يوم الوفاء والبر ، ادن » ، قال : فدنوت منه وأسلمت .

صدق النبوءة :

وتدور عجلة تاريخ الفتوحات الإسلامية مسرعة ، ويأتي زمن الخليفة العبقري الملهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فيفتح الله على المسلمين بلاد فارس ، ومنها المدائن ، ويثل عرش كسرى ، ويؤتى بالغنائم وفيها سواري كسرى ، وتاجه ، وبساطه ، وجواهره الغالية التي قدرت بألوف الألوف من الدراهم والدنانير ، ويقف الفاروق متعجبًا من أمانة القواد والجنود فيقول : (إن قومًا أدوا هذا لذوو أمانة !!) ، فيقول له أبو الحسن علي رضي الله عنه : (إنك عففت فعفت الرعية !!) ، ويقسم الفاروق عمر الغنائم بين المسلمين ، ويتعفف عنها فلم ينله منها شيء !! .

ويتذكر عمر والمسلمون نبوءة رسول الله وكلمته لسراقة فأتى به وألبسه سواري كسرى ، وكان رجلًا أزب- كثير شعر الذراعين- وقال له : (قل : الله أكبر ، الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز ، وألبسهما سراقة بن جعشم ، أعرابيًا من بني مدلج) ، ثم أركب سراقة وطيف به المدينة ، والناس حوله ، وهو يرفع صوته مرددًا قوله : (الله أكبر ، الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز ، وألبسهما سراقة بن جعشم ، أعرابيًا من بني مدلج) !! .

وكان يومًا مشهودًا من أيام المدينة الخالدة ، وهكذا صدق الله نبوءة رسوله محمد ﷺ يوم الهجرة ، ونصر جند الإسلام المتقين المخلصين ، وجعل وراثة الأرض لعباده الصالحين ، وصدق الله تعالى : ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص : ٥] .

***

(2) من النبوءات النبوية الصادقة[1]

روى الشيخان- البخاري ومسلم- في صحيحيهما بسندهما عن عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ رضي الله عنهما أن رَسُولَ اللهِ ﷺ قال : « تُقَاتِلُكُمُ اليَهُودُ فَتُسَلَّطُونَ عَلَيْهِمْ ، حتى يَقُولُ الحَجَرُ : يَا مُسْلِمُ هَذَا يَهُودِيٌّ وَرَائِي فَاقْتُلْهُ » . وفي رواية للبخاري : « تقاتلون اليهود ...» ، وفي رواية لمسلم : « لتقاتلن اليهود فلتقتلنهم ...» .

وروى الشيخان في صحيحيهما بسندهما عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ : « لا تَقُومُ السَّاعَةُ حتى تُقَاتِلُواْ اليَهُودَ حَتى يَقُولَ الحَجَرُ وَرَاءَهُ اليَهُودِيُّ : يَا مُسْلِمُ هَذَا يَهُودِيٌّ وَرَائِي فَاقْتُلْهُ » . وهذا لفظ البخاري .

وفي رواية مسلم بلفظ : « لا تَقُومُ السَّاعَةُ حتى يُقَاتِلَ المُسْلِمُونَ اليَهُودَ فَيَقْتُلُهُمُ المُسْلِمُونَ حَتى يخْتَبِئَ اليَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الحَجَرِ وَالشَّجَرِ ، فَيَقُولُ الحَجَرُ أَوِ الشَّجَرُ : يَا مُسْلِمُ يَا عَبْدَ اللهِ هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ ، إلا الغَرْقَدَ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ اليَهُودِ » .

تخريج الحديثين :

روى الإمام البخاري الحديث الأول في « كتاب أحاديث الأنبياء- باب علامات النبوة » ، وفي « كتاب الجهاد- باب قتال اليهود » ، وروى الثاني في هذا الكتاب والباب أيضًا[2] .

وروى مسلم هذين الحديثين في « كتاب الفتن وأشراط الساعة »[3] .

الشرح والبيان :

نبوءتان نبويتان .

هذان الحديثان يشتملان على نبوءتين لنبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه :

« الأولى » : اقتتال اليهود والمسلمين ، وليس المراد ما حدث في عهد النبي ﷺ وغلبة المسلمين عليهم حتى قتل منهم من قتل جزاء غدرهم وخيانتهم ونقضهم للعهود وأجلى من

---

(١) الأزهر ذو الحجة سنة ١٣٨٩ - فبراير سنة ١٩٧٠ الجزء العاشر - سنة ٤١.

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري (ج٦ ص٧٨، ٤٧٦- ط البهية) .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (ج١٨ ص٤٤، ٤٥ ط حجازي) .

أجلى منهم عن البلد الطيب – المدينة – إلى خيبر ، وإلى أذرعات من أرض الشام ، وما كان من إجلائهم عن الجزيرة العربية كلها في عهد الفاروق عمر رضي الله عنه وأراح منهم العباد والبلاد .

لأن أسلوب الحديثين وفحواهما يدلان على أن ذلك بعد عهد النبوة ، وأن ذلك من أعلام نبوته ﷺ ، ولذلك ذكر أولهما الإمام البخاري في « باب علامات النبوة » ، وذكرهما مسلم في « باب الفتن وأشراط الساعة » ، وهو تصرف منهما – رضي الله عنهما – جيد ، يدل على بعد في النظر ، وأصالة في الفكر .

أما هذه النبوءة الأولى فقد صدقت من يوم أن اغتصب اليهود بمساعدة أعوانهم من الإنجليز والأمريكان قطعة عزيزة من أرض المسلمين والعرب ، وهي فلسطين السليبة الشهيدة ، فمن منذ عشرين سنة والحرب لا تكاد تنقطع بين العرب واليهود ، وإذا فترت في بعض الأحيان ، فإنما هي فترة استعداد وتوثب لتعود الحرب جذعة كما كانت ، حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولا .

« الثانية » : غلبة المسلمين على اليهود ، وتسلطهم عليهم ، وهذا أمر لا يكاد يشك فيه بعد ثبوته بالأحاديث الصحيحة التي رواها الإمامان الجليلان : البخاري ومسلم في صحيحيهما .

أما متى يكون هذا ؟!

فإنصافًا للحقيقة ، والبحث المتئد البصير ، والتفكير المتروي لا المتعجل أقول :

إن الحديث الشريف لم يحدد زمان هذا النصر ، ولا مكانه كما هو شأنه ﷺ في إخباره بالمغيبات المستقبلة ، فكلامه ﷺ في مثل هذا يسلك مسلك التلويح والإشارة ، لا مسلك التنصيص والعبارة ، وهذا سر من أسرار المعجزات الغيبية .

فقد يكون هذا النصر قريبًا إن شاء الله تعالى ، وقد يكون بعيدًا ، وإن كان الذي نرجوه ويرجوه كل مسلم وعربي أن يكون قريبًا بإذن الله تعالى ، فاللهم عجل لنا بالنصر على اليهود ومن وراءهم يا ناصر المؤمنين ، ويا خاذل الكافرين ، ولكن الشيء المقطوع به أن الغلبة والنصر في النهاية إنما هو للمسلمين والعرب ، وهذه سنة الله تبارك وتعالى ، أن العاقبة للمتقين ، وأن الله يديل لأهل الحق من أهل الباطل ، وصدق الله : ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى

ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨]، ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

وهذا الذي رجحناه من أن ذلك القتال والنصر قبل يوم القيامة هو ما عليه المحققون من العلماء، وذهب بعض شراح الحديث إلى أن ذلك قبيل يوم القيامة حينما ينزل الدجال في آخر الزمان، فيجد له أعوانًا وأنصارًا من اليهود، وبعد نزول عيسى عليه السلام فيطهر الأرض من الدجال وأتباعه من اليهود.

فقد أخرج الإمام أحمد عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه- يعني عبد الله-: «ينزل الدجال هذه السبخة- أي خارج المدينة- ثم يسلط الله عليه المسلمين، فيقتلون شيعته حتى أن اليهودي ليختبئ تحت الشجرة والحجر، فيقول الحجر والشجرة للمسلم: هذا يهودي فاقتله».

ووقع صريحًا في حديث أبي أمامة في قصة خروج الدجال، ونزول عيسى، وفيه: «... وراء الدجال سبعون ألف يهودي، كلهم ذو سيف محلى، فيدركه عيسى عند باب «لد» فيقتله وينهزم اليهود، فلا يبقى شيء مما يتوارى به يهودي إلا أنطق الله ذلك الشيء، فقال: يا عبد الله - للمسلم - هذا يهودي فتعالى فاقتله، إلا الغرقد[١] فإنها من شجرهم». أخرجه ابن ماجه مطولًا، وأصله عند أبي داود، ونحوه في حديث سمرة عند أحمد بإسناد حسن، وأخرجه ابن منده في كتاب الإيمان عن حذيفة بإسناد صحيح[٢].

والذي نرجحه أن ذلك القتال والنصر لا يتقيد بقتال اليهود مع الدجال في آخر الزمان، إذ لا مانع من وقوع ذلك النصر مرتين، مرة قبل آخر الزمان - وعسى أن يكون في أيامنا هذه -، ومرة في آخر الزمان حتى يكثر إفساد اليهود بزعامة الدجال الأكبر فيقتلهم المسلمون، وينتصرون عليهم ثانيًا كما انتصروا عليهم أولًا.

وحديث الصحيحين الذي ذكرناه لم يقيد ذلك بآخر الزمان بعد وجود الدجال الأكبر- لعنه ولعنهم الله- ولا بعد نزول عيسى عليه السلام، وحينئذ يكون شاملًا لما قبل

---

(١) شجر ذو شوك مؤذ، فهو جدير بأن يكون من شجر اليهود الذين أسرفوا في الإيذاء والإفساد في الأرض الطيبة: فلسطين.

(٢) فتح الباري (ج٧ ص٤٧٧، ٤٧٨).

نزوله ، وما بعده حيث أراد الله ذلك إن شاء الله تعالى .

وفي هذه الأحاديث التي ذكرناها آنفًا ما يدل دلالة واضحة على أن اليهود الصهاينة وراء كل مبطل وكل مفسد ، وأنهم لا ينفكون عن شرورهم وإفسادهم حتى آخر الزمان ، وأن الدجال الأكبر سيجد منهم أنصارًا وأعوانًا ، وفي هذه الإشارة النبوية المعبرة ما يدعونا إلى أخذ الحيطة والحذر منهم والقضاء على أساليبهم الغادرة .

والآن وقد فرغت من شرح الحديث إجمالًا ، وبيان مراميه ومغازيه ، فلنأخذ في شرح الحديث التفصيلي ، فأقول وبالله التوفيق :

« تقاتلكم اليهود فتسلطون عليهم » ، ليس المراد بالخطاب الموجودون في عهد النبي ، بل من سيوجدون بعد من المسلمين من هذه الأمة المحمدية ، ففيه جواز مخاطبة الشخص أو الجماعة والمراد غيرهم ممن يعتقد اعتقادهم ويدين بدينهم ، ويتبع نهجهم وطريقتهم لأن الوقت الذي أشار إليه الرسول لم يأت بعد ، وإنما أراد مخاطبة المسلمين عمومًا ، فيستفاد منه أن الخطاب الشفاهي يعم المخاطبين ومن بعدهم ، قال الحافظ ابن حجر في الفتح : (وهو متفق عليه من جهة الحكم ، وإنما وقع الاختلاف فيه في حكم الغائبين ، هل وقع بتلك المخاطبة نفسها أو بطريق الإلحاق ، وهذا الحديث يؤيد من ذهب إلى الأول ...) .

وفي قوله : « تقاتلكم اليهود » ما يشير إلى أنهم البادئون بالعدوان ، وإن كانت مادة المفاعلة تقتضي المشاركة من الجانبين ، وقد صدقت الأحداث ذلك ، فما من عدوان إلا وهم البادئون به ، لأنهم قوم غلاظ الرقبة سيئو الأخلاق ، سيئو الطباع كما وصفهم بذلك سيدنا موسى عليه السلام في توراتهم التي يقرؤونها .

« فتسلطون عليهم » ، أي : تقتلونهم وتغلبونهم وتنتصرون عليهم .

« حتى يقول الحجر : يا مسلم هذا يهودي ورائي فاقتله » ، وفي رواية مسلم : « حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر ، فيقول الحجر أو الشجر » ، « أو » إما للشك من الراوي أهو الحجر أم الشجر ؟ وإما أن تكون للتنويع والتقسيم ، أي : يقول الحجر هذا القول حينًا ، ويقوله الشجر حينًا آخر ، وإما أن تكون (أو) بمعنى الواو ، ولعله الأولى بدليل رواية الإمام أحمد السابقة : « فيقول الحجر والشجر للمسلم ...» .

وأما القول فهو بلسان الحال ، ويكون من قبيل المجاز بأن يكون المراد أنهم لا يفيدهم الاختباء وراء الشجر والحجر ، وماذا يفيد الاختباء وراء شيء سيرشد ويدل المسلم عمن وراءه من يهودي ، وإذا كان الجماد فما بالك بغير الجماد ممن يعقل ويفكر ويدبر ، وهذا من الأساليب النبوية البديعة الدالة على المراد .

ويحتمل أن يكون المراد به الحقيقة ، وذلك بأن ينطق الله الشجر والحجر بهذه المقالة ، ولا استحالة عند العقل في مثل هذا ، ولعل الأول أولى .

وبعد ؛ فليتخذ المسلمون والعرب في حربهم مع إسرائيل من هذا الحديث مبشرات بالنصر والغلب مع أخذهم في الأسباب ، واتباع سنن الله في الأكوان حسبما أمرنا الله في قوله : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال : ٦٠] . صدق الله العظيم .

* * *

(١) بل الأَوْلى حمله على حقيقته كما هو الأصل ، وعدم صرفه عن ذلك إلا بدليل ، والله أعلم . [الناشر] .

[٦] من هدي السنة في بناء الأمة

(1) الرضا بحكم الله ورسوله[1]

روى البخاري في صحيحه قال : حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ يُوسُفَ قال : حَدَّثَنَا اللَّيْثُ قَالَ : حَدَّثَني ابْنُ شِهَابٍ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ – رضي الله عنهما – أَنَّهُ حَدَّثَهُ : « أَنَّ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ خَاصَمَ الزُّبَيْرَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ في شِرَاجِ الحَرَّةِ الَّتي يَسْقُونَ بهَا النَّخْلَ فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ : سَرِّحِ المَاءَ يَمُرُّ ، فَأَبى عَلَيْهِ ، فَاخْتَصَمَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِلزُّبَيْرِ : « أَسْقِ يَا زُبَيْرُ ثمَّ أَرْسِلِ المَاءَ إِلى جَارِكَ » ، فَغَضِبَ الأَنْصَارِيُّ فَقَالَ : أَنْ كَانَ ابْنَ عَمَّتِكَ ، فَتَلَوَّنَ وَجهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ ثمَّ قَالَ : « اسْقِ يَا زُبَيْرُ ثمَّ احْبِسِ المَاءَ حَتى يَرْجِعَ إِلى الجَدْرِ » ، وفي رواية أخرى : ثم أرسل الماء إلى جارك ، فَقَالَ الزُّبَيْرُ : وَاللهِ إِني لأَحْسِبُ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ في ذَلِكَ : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء : ٦٥] .

وفي رواية أخرى للبخاري– في كتاب التفسير : زيادة : (وَاسْتَوْفى النَّبِيُّ ﷺ لِلزُّبَيْرِ حَقَّهُ في صَرِيحِ الحُكْمِ حِينَ أَحْفَظَهُ الأَنْصَارِيُّ ، وكَانَ أَشَارَ عَلَيْهِمَا بِأَمْرٍ لَهُمَا فِيهِ سَعَةٌ) .

تخريج الحديث :

روى هذ الحديث الإمام البخاري في صحيحه : كتاب المساقاة – باب سكر الأنهار– ، وباب : شرب الأعلى قبل الأسفل ، وباب : شراب الأعلى إلى الكعبين ، وفي كتاب الصلح– باب : إذا أشار الإمام بالصلح فأبى ، وفي كتاب التفسير– سورة النساء– باب : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾

ورواه مسلم في صحيحه أيضًا ، ورواه الإمام أحمد في مسنده من مسند عبد الله بن الزبير ، ورواه النسائي في سننه عن عروة عن أخيه عبد الله عن أبيه الزبير .

---

(١) مجلة الأزهر ج٧ سنة ٤٣ رمضان ١٣٩١هـ – أكتوبر ١٩٧١م .

ما يتعلق بالسند :

هذا الحديث رواه البخاري في صحيحه عن عروة بن الزبير ، عن عبد الله بن الزبير من طريق الليث بن سعد ، ورواه غيره عن عبد الله عن أبيه ، ورواه أيضًا عن عروة من غير ذكر أخيه عبد الله ، ولا ذكر أبيه الزبير ، وصورته صورة المرسل ، وقد اختلف الرواة عن عروة ، فمنهم من وقف به عند عروة ، ومنهم من قال : عن عروة عن الزبير أبيه ، ومع هذا فقد صححه الإمام البخاري ، قال الحافظ في الفتح[١] : (قلت : وإنما صححه البخاري مع هذا الاختلاف اعتمادًا على صحة سماع عروة عن أبيه ، وعلى صحة سماع عبد الله بن الزبير من النبي ﷺ ، فكيفما دار فهو على ثقة ، ثم الحديث ورد في شيء يتعلق بالزبير ، فداعية ولده متوفرة على ضبطه ...) .

الشرح والبيان

من هو عبد الله بن الزبير ؟

هو أبو خبيب[٢] ، عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي القرشي الأسدي ، ويكنى أيضًا بأبي بكر .

أبوه الزبير بن العوام من السابقين الأولين للإسلام ابن عمة رسول الله ﷺ السيدة صفية بنت عبد المطلب ، وحواري[٣] رسول الله ﷺ ، المضحي بنفسه في سبيل طاعته وأحد أبطال المسلمين المغاوير .

وأمه السيدة أسماء بنت الصديق رضي الله تعالى عنهما ، ذات النطاقين ، فقد نعتها بذلك رسول الله ﷺ ، وجدته لأبيه : السيدة صفية بنت عبد المطلب ، وعمة أبيه الزبير السيدة الطاهرة خديجة رضي الله عنها ، وخالته أم المؤمنين السيدة عائشة .

وهو أول مولود ولد في الإسلام بعد الهجرة للمهاجرين ، فحنكه رسول الله بتمرة لاكها في فيه ، ثم دلك حنكه بها ، فكان ريق رسول الله ﷺ أول شيء دخل جوفه ، وسماه عبد الله ، ولما وُلِدَ كبر المسلمون وفرحوا به ، لأن اليهود كانوا يزعمون أنهم

---

(١) فتح الباري (ج٥ ص٢٧ ط عبد الرحمن محمد) .
(٢) بضم الخاء على صورة المصغر ، أكبر أولاده .
(٣) المخلص له ، والناصر له .

سحروهم فلا يولد لهم ولد ، فكذبهم الله سبحانه وتعالى .

روى عن النبي ﷺ ، وعن أبيه ، وعن عمر ، وعثمان ، وغيرهم ، وروى عنه أخوه عروة وابناه : عامر وعباد ، وعبيدة السلماني ، وعطاء بن أبي رباح وغيرهم .

وكان صوامًا قوامًا ، طويل الصلاة ، عظيم الشجاعة ، وأحضره أبوه الزبير عند رسول الله ﷺ ليبايعه وعمره سبع سنين أو ثمان سنين ، فلما رآه النبي ﷺ مقبلًا تبسم وبايعه .

وكانت له مواقف بطولية في الفتوحات الإسلامية ، وقد بويع له بالخلافة بعد موت يزيد بن معاوية حتى ولى عبد الملك بن مروان ، فسير له الحجاج ثم حاصره الحجاج بمكة حتى قتل شهيدًا بعد قتال مرير ، وذلك في النصف من جمادى الآخرة سنة ثلاث وسبعين للهجرة ، فرضي الله عنه .

عروة بن الزبير :

أما عروة بن الزبير فهو أحد الفقهاء السبعة المشهورين بالمدينة ، وأحد علماء التابعين وأجلتهم ، روى عن أبيه ، وخالته عائشة ، وأخيه عبد الله وأمه أسماء ، وعلي بن أبي طالب ، وغيرهم ، وروى عنه أولاده : (عبد الله ، وعثمان ، وهشام ، ومحمد ، ويحيى) ، وابن ابنه عمر بن عبد الله بن عروة ، وسليمان بن يسار ، وعطاء بن أبي رباح ، وغيرهم ، وقد استفاد من خالته السيدة عائشة في الرواية فائدة كبيرة ، وقد ذكره ابن سعد في الطبقة الثانية من أهل المدينة ، وقال : كان ثقة كثير الحديث ، فقيهًا ، عالمًا ، ثبتًا ، مأمونًا ، ولد في خلافة عثمان سنة تسع وعشرين ، وقيل في آخر خلافة عمر سنة ثلاث وعشرين ، ومات وهو صائم سنة إحدى أو اثنتين أو ثلاث أو خمس وتسعين .

(أَنَّ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ) .

وفي رواية البخاري في الصلح زيادة : (قد شهد بدرًا) .

الأنصار : هم أصحاب رسول الله ﷺ من قبيلتي الأوس والخزرج ، وقد اختلف في تعيين اسم هذا الرجل ، فقيل : ثابت بن قيس بن شماس ، ورد بأنه ليس بدريًا ، وقيل : حاطب بن أبي بلتعة ، ورد بأنه ليس من الأنصار وإنما هو مهاجري ، وقيل : ثعلبة بن حاطب ، فقد ذكر ابن إسحاق في أهل بدر ثعلبة بن حاطب ، وهو من بني أمية بن زيد ،

وهو غير ثعلبة بن حاطب الذي نزل فيه قوله تعالى : ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ...﴾ [التوبة : ٧٥] . ولم يكن بدريًا ، وقيل غير ذلك[١] ، ويهون من الأمر أنه لا يتوقف على العلم به كبير فائدة .

(خَاصَمَ الزُّبَيْرَ عِنْدَ النَّبيِّ ﷺ في شِرَاجِ الحَرَّةِ الَّتي يَسْقُونَ بهَا النَّخْلَ) .

وفي رواية أخرى : (خاصم الزبير رجلًا) ، والروايتان بمعنى ، لأن المخاصمة مفاعلة من الجانبين ، فكل منهما مخاصم للآخر ، فإيهما يصلح أن يكون فاعلًا ، وأيهما يصلح أن يكون مفعولًا .

(شِرَاجِ) . بكسر الشين المعجمة وبالجيم جمع شرج- بفتح أوله وسكون الراء- مثل بحر ، وبحار ، ويجمع على شروج أيضًا ، وقيل مفرده شرجة .

و(الحَرَّةِ) . موضع معروف بالمدينة ، وهي خمسة مواضع المشهور منها اثنتان : حرة واقم ، وحرة ليلى ، وقال أبو عبيد : كان بالمدينة واديان يسيلان بماء المطر ، فيتنافس الناس فيه ، فقضى رسول الله ﷺ للأعلى ، فالأعلى .

(فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ : سَرِّحِ المَاءَ يَمُرُّ) .

(سَرِّحِ) : فعل أمر من التسريح ، أي : أطلقه ، والمأمور الزبير ، وإنما قال له ذلك لأن الماء كان يمر بأرض الزبير قبل أرض الأنصاري ، فيحبسه الزبير لأجل سقي أرضه ، ثم يرسله إلى أرض جاره ، فالتمس منه الأنصاري تعجيل ذلك ، فأبى الزبير .

(فَاخْتَصَمَا عِنْدَ النَّبيِّ ﷺ) .

كان الخلاف في مثل هذا في الجاهلية ربما يوقع حربًا طويلة بين قبيلتين ، ولكن الله لما هدى العرب إلى الإسلام لم يعد هناك مجال لمثل ذلك ، وصار الكل يحتكمون إلى رسول الله ﷺ ليحكم بينهم بما أراه الله من القرآن والسنة ، وبذلك أبدلهم الله بالاحتكام إلى السيف والقوة ؛ الاحتكام إلى شريعة الله ، وصار الخضوع لسلطان الشريعة الإسلامية شعار معظم المسلمين إن لم يكن كلهم .

(فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِلزُّبَيْرِ : « أَسْقِ يَا زُبَيْرُ ثمَّ أَرْسِلِ المَاءَ إِلى جَارِكَ » .

---

(١) فتح الباري (ج٥ ص٢٧) .

(اشقِ) : بهمز وصل من الثلاثي ، وبهمزة قطع من الرباعي ، يقال : سقى ، وأسقى ، وفي رواية أخرى : « اسق يا زبير- فأمره بالمعروف- ثم أرسل ...» .

أمره : على صيغة الماضي ، وجملة (فأمره) من الرواي ، وهي معترضة لبيان أن رسول الله أمره بأمر فيه يسر وسهولة للطرفين ، وضبطه الكرماني بفتح الهمزة وكسر الميم وتشديد الراء ، على أنه فعل أمر من الإمرار ، وعلى هذا يكون من كلام الرسول ، وما ذكره الكرماني محتمل ، كما قال الحافظ بن حجر .

(فَغَضِبَ الأَنْصَارِيُّ فَقَالَ : أَنْ كَانَ ابْنَ عَمَّتِكَ) .

الفاء الأولى للعطف ، والثانية في : (فَقَالَ) تفسيرية لبيان مظهر غضبه ، (أَنْ كَانَ) جملة تعليلية ، أي : حكمت له لأن كان ابن عمتك ، لأن الزبير هو ابن السيدة صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ، ويحذف حرف الجر في مثل هذا قياسًا ، وهو مثل قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العَلَق : ٦- ٧] . وقوله : ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ [القَلَم : ١٤] . أي : لا تطعه لأجل ذلك . و(ابْنَ عَمَّتِكَ) : منصوب على أنه خبر كان ، وفي رواية أبي ذر عن الكشميهني : (آن كان ...) ، بهمزة مفتوحة ممدودة ، وأصلها : (أأن ...) ، على الاستفهام ، ثم سهلت الهمزة ، وهي للاستفهام الإنكاري[١] ، وقد قال الحافظ في الفتح : ولم يقع لنا في الرواية مد ، ولا أدري كيف غاب ذلك عن الحافظ الكبير ، مع أن رواية البخاري في- باب شرب الأعلى إلى الكعبين- جاءت بالمد[٢] ، وحكى الكرماني : (إن كان ...) بكسر الهمزة على أنها شرطية ، والجواب محذوف ، قال الحافظ : ولا أعرف هذه الرواية ، أقول : وليس كل ما صح عربيةً يجوز أن يكون رواية .

(فَتَلَوَّنَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ) .

أي : تغير ، وهو كناية عن الغضب ، وكان إذا غضب ﷺ تمعر وجهه ، وحق لرسول الله ﷺ أن يغضب ، فإن رسول الله ﷺ كان قد راعى بحكمه هذا مصلحة الخصمين ، وهي أن يسقي الزبير سقيًا خفيفًا ثم يرسل الماء إلى جاره ، فالحكم كان فيه

(١) إرشاد الساري للقسطلاني ج٨ ص ٩٦.

(٢) انظر صحيح البخاري ج٣ ص١٤٦ ط الشعب المأخوذة عن نسخة صحيح البخاري القديمة المحققة.

رفق ، ويسر ، وسهولة ، ولكن الخصم لما لم يقبل واتخذ من ذلك وسيلة للطعن في الحكم لم يكن بد لرسول الله ﷺ من أن يحكم بالحكم الظاهر الواضح ، وأن يستوفي للزبير حقه ، لأن الأنصاري أبان باعتراضه أنه ليس أهلًا للمساهلة والمصالحة على ما هو أرفق وأصلح .

ثمَّ قَالَ : « اسْقِ يَا زُبَيْرُ ثُمَّ احْبِسِ المَاءَ حَتى يَرْجِعَ إِلى الجَدْرِ » .

(الجَدْرِ) : بفتح الجيم ، وسكون الدال المهملة ، هو ما يوضع بين شرابات النخل كالجدار ، وقيل : هي الحواجز التي تحبس الماء بين الحيضان ، والشربات بمعجمة ، وفتحات ، هي الحفر التي تحفر في أصول النخل ، والمراد أن يسقي نخله سقيًا كاملًا حتى يصل الماء إلى الجدر ، ولما كان الجدر يختلف بالطول والقصر ، قاس الصحابة ما وقعت فيه القصة فوجدوه يبلغ الكعبين ، فجعلوا ذلك معيارًا لاستحقاق الأول فالأول ، فانظر إلى فقه الصحابة ، ودقة فهمهم ، رضي الله عنهم ، وقد جاءت رواية البخاري في التفسير موضحة لهذا ، ففيها : (وَاسْتَوْفى النَّبيُّ ﷺ لِلزُّبَيْرِ حَقَّهُ في صَرِيحِ الحُكْمِ حِينَ أَحْفَظَهُ الأَنْصَارِيُّ كَانَ أَشَارَ عَلَيْهِمَا بِأَمْرٍ لَهُمَا فِيهِ سَعَةٌ) . يعني : الصلح على ترك بعض حق الزبير ، فلما لم يرض الأنصاري استقصى عليه الصلاة والسلام للزبير حقه ، وحكم له به على الأنصاري .

(فَقَالَ الزُّبَيْرُ : وَاللهِ إِني لأَحْسِبُ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ في ذَلِكَ : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ [النساء : ٦٥] .

هكذا وردت هذه الرواية بالشك وغلبة الظن ، وكذلك جاءت معظم الروايات وجاءت بعض الروايات بالقطع ، ففي رواية البخاري– باب شرب الأعلى إلى الكعبين– ما نصه : (فَقَالَ الزُّبَيْرُ : وَاللهِ إِنَّ هَذِهِ الآيَةَ أُنْزِلَتْ في ذَلِكَ : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ . وفي رواية عبد الرحمن بن إسحاق : (ونزلت : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ...﴾) قال الحافظ في الفتح : والراجح رواية الأكثر ، وأن الزبير كان لا يجزم بذلك[1].

أقول : ولعله كان غير جازم أو لا ، ثم جزم وقطع بذلك أو الأمر بالعكس .

---

(١) فتح الباري ج٥ ص ٢٩.

أقوال أخرى في سبب نزول هذه الآية :

وهناك أقوال أخرى في سبب نزول هذه الآية ، فقد جزم مجاهد والشعبي بأن الآية نزلت فيمن نزلت فيهم الآية قبلها ، وهي قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا...﴾ [النساء : ٦٠] الآيات وما بعدها.

فقد روى إسحاق بن راهويه في تفسيره بإسناد صحيح عن الشعبي قال : كان بين رجل من اليهود ، ورجل من المنافقين خصومة ، فدعا اليهودي المنافق إلى النبي ﷺ ، لأنه علم أنه لا يقبل الرشوة ، ودعا المنافق اليهودي إلى حكامهم ، لأنه علم أنهم يأخذونها فأنزل الله هذه الآيات إلى قوله : ﴿وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق أبي نجيح عن مجاهد نحوه ، وروى الطبري عن ابن عباس أن حاكم اليهود يومئذ كان أبا برزة الأسلمي قبل أن يسلم ويصير صحابيًا ، وروى بإسناد صحيح إلى مجاهد أنه كعب بن الأشرف .

وروى الكلبي في تفسيره عن أبي صالح عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية في رجل من المنافقين كان بينه وبين يهودي خصومة ، فقال اليهودي : انطلق بنا إلى محمد ، وقال المنافق : بل نأتي كعب بن الأشرف وأنهما احتكما إلى النبي فحكم لليهودي ، فأبى المنافق إلا أن يذهبا إلى عمر ليقضي بينهما ، فكان قضاؤه بينهما أن قتل المنافق ، وقال : هذا حكم الله فيمن لم يقبل حكم رسول الله ﷺ فكان ذلك سبب نزول الآيات وتسمية عمر بالفاروق .

قال الحافظ ابن حجر : وهذا الطريق وإن كان ضعيفًا ، لكن تقوى بطريق مجاهد ، ولا يضره الاختلاف لإمكان التعدد .

أقول : يعني أن يكون السبب متعددًا ، والآيات نزلت لكل ذلك ، وقد رجح الطبري في تفسيره وعزاه إلى أهل التأويل أن سبب نزولها هذه القصة ليتسق نظام الآيات كلها في سبب واحد ، ولم يعرض بينها ما يقتضي خلاف ذلك ، ثم قال : (ولا مانع أن تكون قصة الزبير وخصمه وقعت في أثناء ذلك ، فيتناولها عموم الآية)[١] .

(١) فتح الباري ج٥ ص ٢٩.

أقول : لو جاءت روايات قصة الزبير كلها بالجزم بأن هذا سبب نزول قوله تعالى : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ...﴾ فهذا لا يمنع أن تكون هناك أحداث أخرى ، ثم جاءت الآية بعد ذلك مبينة حكم الله فيمن لا يرضى بحكم رسول الله ﷺ ، وكون المنزل واحد والأسباب متعددة له أمثلة كثيرة ذكرها علماء علوم القرآن[١] .

ما يستنبط من الحديث من الأحكام والآداب :

١ - حكم الشرع فيما إذا كان هناك مسيل ماء (نهر ، أو ترعة ، أو قناة ، أو ماء عين جارية) ، يمر على قطع من الأراضي المزروعة لأشخاص متعددين أن الحق في السقي إنما هو للأول فالأول وهكذا . والمراد بالأول من يكون مبدأ الماء من ناحيته على الصحيح ، فله أن يسقي حتى يبلغ الماء الكعبين ثم يرسل الماء إلى جاره ، وهذا فيما إذا كان الماء قليلًا لا يكفي إلا واحدًا ، فإن كان كثيرًا ، فالحق للجميع أو كان قليلًا ولكن لا حاجة له فيه ، فليس له أن يحبسه عمن بعده .

٢ - أن الرضا بحكم الله ورسوله من شروط الإيمان الكامل ، وأن الاحتكام إلى القرآن والسنة من شروط الإيمان أيضًا ، وفي الحديث الشريف : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به » . رواه أبو داود .

٣ - أن هذا الحديث الشريف يكشف اللثام عن دقة نظر رسول الله ﷺ وسعة فقهه ، وحسن تصرفه في الأمور ، وعن مواهبه ﷺ في القضاء ، وعلى رجال القضاء أن يعنوا بدراسة أقضية الرسول ، كي يستفيدوا منها في قضائهم ، وحتى تحصل لهم ملكة فقهية أصيلة في معالجتهم للقضايا ، ويوفقوا ما استطاعوا بين مصلحة الخصمين ، وإن باب القضاء لباب واسع في كتب الأحاديث والسنن .

٤ - أن للقاضي أن يشير بالصلح بين الخصمين مراعاة للتيسير والمساهلة بينهما ، فإن أبى أحد الخصمين فليحكم بينهما بالحكم الظاهر الواضح ، مهما كان فيه شدة على أحدهما ، ولا ضير عليه في هذا ، ومن يسر يسر له ، ومن عسر عسر عليه .

٥ - لا منافاة بين هذا الحديث وحديث النهي عن الحكم في حال الغضب ، وهو

---

(١) الإتقان في علوم القرآن مبحث سبب النزول ، المدخل لدراسة القرآن الكريم لكاتب المقال ص١١٠ - ١١٢.

قوله ﷺ : « لا يقضين حكم بين اثنين وهو غضبان » . رواه الشيخان ، لأن النهي عن ذلك لما يخشى على الحاكم من أن يستبد به الغضب ، فيقسو أو يغلظ ، أو يحكم بغير الحق ، وهو ﷺ معصوم من ذلك ، فهو لا يغضب إلا لله ، وهو حكم عدل في حال الغضب ، وفي حال الرضا ، وسيرته ﷺ وأقضيته أكبر شاهد على ذلك .

٦- ما كان عليه الصحابة الكرام من فقه واسع وبعد نظر ، وحسن تصرف ، ولا عجب ، فقد تخرجوا في مدرسة النبوة ، ذلك أنهم لما رأوا أن الحواجز التي تكون بين الحيضان ، أو بين الحفر التي تحفر للنخيل ونحوها غير منضبطة ، وليست واحدة قدروا ذلك بوصول الماء إلى الكعبين ، وهو الخيار والأمر الوسط في سقي النخيل والأعناب ونحوها ، فلا هو قليل مجحف ، ولا كثير مفسد ، ففي الحديث : (فقدرت الأنصار والناس قول النبي ﷺ : « اسْقِ يَا زُبَيْرُ ثمَّ احْبِسِ المَاءَ حَتى يَرْجِعَ إِلى الجَدْرِ » . وكان ذلك إلى الكعبين .

والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

* * *

(2) الرضا بشرائع الإسلام من الإيمان[١]

روى الإمام مسلم في صحيحه قال : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيى بْنِ أَبِي عُمَرَ الْمَكِّيُّ وَبِشْرُ ابْنُ الحَكَمِ قَالا حَدَّثَنَا عَبْدُ العَزِيزِ – وَهُوَ ابْنُ مُحَمَّدٍ الدَّرَاوَرْدِيُّ – عَنْ يَزِيدَ بْنِ الهَادِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدٍ عَنِ العَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : « ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا وَبِالإِسْلامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا »[٢] .

تخريج الحديث :

هذا الحديث مما انفرد به مسلم ، ولم يخرجه البخاري- رحمه الله- في صحيحه[٣] .

ورواه أبو داود في سننه عن أبي سعيد الخدري مرفوعًا بلفظ : « من قال رضيت بالله تعالى ربًّا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمد ﷺ رسولًا وجبت له الجنة » .

الشرح والبيان :

من هو العباس بن عبد المطلب ؟

راوي هذا الحديث عن النبي ﷺ هو العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي ، عم النبي ﷺ ، أسلم ليلة الفتح ، وقد كان هواه مع رسول الله ﷺ قبل إسلامه ، وكان بمثابة العين له عليهم ، وقيل إنه أسلم قبل ذلك ، وإنما لم يعلن عن إسلامه ، ولم يهاجر لمصلحة الدعوة الإسلامية ، والصحيح الأول ، وكان رسول الله يحبه ويكرمه ، وفي صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال لعمر : « يَا عُمَرُ أَمَا شَعَرْتَ أَنَّ عَمَّ الرَّجُلِ صِنْوُ أَبِيهِ » . أي مثل أبيه في التجلة والإكرام وحسن المعاملة .

وفي غزوة بدر كان من الأسارى فسمع النبي أنينه وهو في القيد ، فأرق النبي لذلك ، وبقي أول الليل ساهرًا ، فقال له أصحابه : مالك لا تنام يا رسول الله ، فقال : « سمعت أنين عمي العباس في وثاقه » ، فأطلقوه فسكت ، فنام رسول الله ﷺ .

ومع هذه المعاملة الرحيمة قد أبى رسول الله إلا أن يأخذ منه الفداء عن نفسه وابني

(١) مجلة الأزهر - ج٦ - سنة ٤٣ شعبان ١٣٩١هـ .
(٢) صحيح مسلم : باب ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربًا .
(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (جـ٢ ص٣) .

أخويه عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب ، وعن حليف له ، وكان الفداء مائة أوقية من الذهب .

ولما قال للنبي ﷺ إنه كان أسلم حتى يتخلص من الفداء قال له المشرع الحكيم : « أما ظاهرك فكان علينا ، والله أعلم بإسلامك ويجازيك » !! ، ولما قال رجال من الأنصار للنبي ﷺ : إئذن لنا فلنترك لابن أختنا العباس فداءه[1] قال : « لا والله ، لا تذرون له درهمًا » !!

ولما قال للنبي : إنه لا مال له قال : « فأين المال الذي دفنته أنت وأم الفضل ، وقلت لها : إن أصبت في سفري فهذا لبني : الفضل ، وعبد الله ، وقثم » ، فقال العباس : إن هذا شيء ما أعلمه إلا أنا وأم الفضل يا رسول الله !! .

وهذا غاية العدل والإنصاف في المعاملة ، فرسول الله مع رحمته بعمه وإشفاقه عليه وتخوفه عليه أن يقتل وهو يرجى منه للإسلام خير كثير ، تأبى عليه نفسه السامية ، وعدالته الفائقة أن يفرق بينه وبين الأسارى في الفداء ، أو أن يقبل أن يمن عليه الأنصار أخواله ، خشية أن يكون عملهم هذا لمكانه من قرابة رسول الله ، مع أنه ﷺ من على بعض الأسارى دون فداء ؛ وليس هذا بعجيب ممن خاطبه الله بقوله : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القَلَم : ٤] .

وقد روي عن النبي الحديث ، وروى عنه بعض الصحابة والتابعين ، فرضي الله عنه وأرضاه .

(ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ) .

الذوق : إدراك طعم الشيء بواسطة الأعصاب المنبثة في اللسان ، يقال : ذقت الطعام أذوقه ذوقًا ، وذوقانًا ، وذواقًا ، ومذاقًا ، إذا عرفته بتلك الواسطة .

والمراد الشعور بحلاوة الإيمان ، وهو من الأساليب العربية البديعة ، والاستعارات اللطيفة ، فقد شبه الإيمان بطعام حلو شهي ، ثم حذفه ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الذوق ، وهذا الذوق أمر معنوي يدرك بالقلب والوجدان ، كما أن الشيء المطعوم

---

(١) الظاهر أنهم من بني النجار أخوال أبيه عبد المطلب ؛ لأن هاشمًا كان تزوج سلمى بنت عمرو النجارية شريفة قومها ولدت له عبد المطلب فلما مات هاشم تربى في حجر أمه حتى أخذه أعمامه شرفاء مكة .

المحسوس يدرك باللسان ، فهو مثل قوله ﷺ في الحديث الصحيح الآخر : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان » .

والطعم يكون بمعنى الأكل ، ومنه قوله تعالى : ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ﴾ [الأحزاب : ٥٣] . وبمعنى الشرب ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ﴾ [البقرة : ٢٤٩] .

والإيمان : هو التصديق بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره ، وهو بمعناه الشرعي الكامل : اعتقاد بالقلب ، ونطق باللسان ، وعمل بالجوارح ، وعلى هذا دلت الدلائل المتكاثرة من القرآن والسنة .

(مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا) .

رضيت بالشيء ، ورضيت به رضًا : اخترته ، وارتضيته مثله ، فالرضا يشعر بمعنى الاختيار للشيء والاقتناع به ، والاطمئنان القلبي إليه ، وهذا الرضا بهذا المعنى لا بد منه في الإيمان ، فلا يكفي في الإيمان العلم والمعرفة من غير رضا ، واطمئنان قلبي ، ولو كان العلم بصدق الرسول وصدق دينه كافيًا في الإيمان لكان أبو طالب مؤمنًا بقوله :

ولقد عَلِمْتُ بأن دينَ مُحَمَّد من خير أديان البريةِ دينًا
لولا الملامة أو حذاري سُبَّة لوجدتني سمحًا بذاكَ مُبِينًا

لأنه لم يطمئن إلى ذلك قلبه ، ولم ترض به نفسه ، والمراد بالرضا بالله سبحانه وتعالى ربًا أن يعتقد أن لا إله إلا الله ، وأنه لا رب سواه ، فهو الخالق ، وهو المبدئ ، وهو المعيد ، وهو الرازق ، وهو النافع ، وهو الضار ، فلا يعبد إلا الله ، ولا يستعين إلا به : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة : ٥] . وأن كل من عداه سبحانه وتقدست أسماؤه وصفاته هو مربوب له ، ولا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا ، وأن كل من عبد دونه سبحانه فهو بمعزل عن ذلك وصدق عز شأنه حيث يقول : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج : ٧٣] .

وأن يعتقد أنه لو اجتمع أهل السماوات والأرضين على أن ينفعوا أحدًا لم ينفعوه إلا بشيء قد كتبه الله له ، ولو اجتمع أهل السماوات والأرض على أن يضروا أحدًا لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه ، وأن ما أصاب أحدًا لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن

ليصيبه ، وفي رواية أبي داود ما يدل على أنه ينبغي أن يقترن الاعتقاد بالقول حتى يصير ذلك شعارًا من شعارات أهل الإيمان والإسلام .

(وَبِالإِسْلامِ دِينًا) .

الإسلام في اللغة معناه : الانقياد ، وإسلام الوجه لله تعالى .

وفي لسان الشرع معناه : الانقياد والخضوع لكل ما جاء به نبينا محمد ﷺ تفصيلًا فيما جاء مفصلًا ومجملًا فيما جاء مجملًا .

والمراد بالإسلام هنا الدين العام الخالد الذي جاء به نبينا محمد ﷺ ، والذي هو خاتم الأديان ، وشريعته خاتمة الشرائع ، فلا نبي بعد نبينا محمد ، وصدق الله حيث يقول : ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب : ٤٠] .

وقد جاءت الآية محكمة غاية الإحكام ، فإن نفي النبوة بعده يلزم منه قطعًا نفي الرسالة ، ولو جاءت الآية بأنه خاتم الرسل لوجد المارقون في ذلك ثغرة ينفذون منها إلى باطلهم ؛ وهو وجود أنبياء بعده كما ادعت بعض الطوائف الضالة ، وهذا من الأدلة على أن القرآن من عند علام الغيوب ، الذي يعلم كل ما كان ، وكل ما يكون ، فتبارك الله منزل القرآن على أحكم وجه ، وأدق بيان . وكذلك لا دين بعد دينه ، ولا شريعة بعد شريعته ، ولا مثل شريعته ، وكيف ؟ ! وقد جاء دينه أكمل الأديان وخاتمها ، وقد جاءت شريعته أكمل الشرائع السماوية – بله القوانين الوضعية – وأوفاها بكل ما يحتاج إليه البشر في دينهم ودنياهم ، ويحقق لهم السعادة الدنيوية والأخروية ، فما الداعي إذا لدين آخر ؟ ! ، وما الداعي لشريعة آخرى ؟ ! ما دام الكمال من ذاتهما .

وهذا الإسلام هو الدين الذي ألزم الله البشر جميعًا به حينما قال : ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران : ١٩] . وهو الدين الذي ارتضاه الله للناس كافة عربًا وعجمًا ، فلا نجاة لأحد إلا به ، قال عز شأنه : ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران : ٨٥] .

والآيتان نصان قاطعان في أن المراد بهما هو هذا الدين الذي جاء به خاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ ، فلا نجاة لأحد من أهل الأديان السماوية الأخرى– بل الأرضية– إلا باتباع هذا الدين عقيدة ، وشريعة ، وسلوكًا ، وأخلاقًا ، وسياسة ، واقتصادًا ، و ... و ... ، فمن

فهم غير هذا فقد حرف كتاب الله واتبع طريق الجاحدين .

إن هذا الدين أصلاه الأصيلان هما القرآن والسنة النبوية ، وقد جاء على غاية من الوفاء والكمال ، ومعظم الأحكام الشرعية نص عليها فيهما ، وما لم ينص عليه فيهما فيعرف حكمه إما بالقياس عليهما ، أو بالاجتهاد في حدود القواعد الشرعية التي استنبطت منهما ، مثل قاعدة : (التيسير ورفع الحرج) ، أو قاعدة : (لا ضرر ولا ضرار) ، وقاعدة : (الضرورات تبيح المحظورات) ، وكل ذلك بشرط أن لا يصادم الاجتهاد نصًّا ، إذ من المتفق عليه بين العلماء قاطبة أن (لا اجتهاد مع النص) ، والاجتهاد ليس كلأً مباحًا لكل أحد ، فله أهله وله رجاله ، ومقتضى هذا الحديث أنه لا بد من الرضا بكل شرائع الله وأحكامه ، والعمل على الأخذ بها في كل جوانب الحياة الإسلامية ، بل جاء الحديث الآخر بأوكد منها ، فقد قال النبي ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به »[1] . فعلى المؤمن أن يهذب من طباعه ، ويطوع من فطرته حتى تصير أحكام الله هوى ومحبوبة له ، وهكذا كان المسلمون الأولون يجدون في أحكام الشريعة روحًا ، وراحة نفسية ، وطهرًا وطهارة ، وإن كان ذلك بالموت حدًّا . وكذلك جاءت الآيات القرآنية مؤكدة وجوب العمل بشرائع الإسلام ، وأن لا يجد في نفسه حرجًا منها ، لا شكًّا فيها ، ولا ضيقًا بأحكامها العادلة ، قال عز شأنه : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء : ٦٥] . وقال عز شأنه : ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة : ٤٩ - ٥٠] .

(وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ رَسُولًا) .

فلا بد من اعتقاد أن سيدنا محمدًا هو خاتم الأنبياء والرسل ، وأنه هو المكمل لهيكل

---

(١) إسناده ضعيف : أورده ابن رجب في « جامع العلوم والحكم » برقم (٤١) ، والخطيب في التاريخ (٣٦٩/٤) ، والبغوي في « شرح السنة » (٢١٢/١) ، وابن أبي عاصم في « السنة » (١٢/١) ، وفيه نعيم بن حماد ضعيف لكثرة خطئه ، وقد اتهمه بعضهم ؛ كما قال الألباني رحمه الله في « ظلال الجنة » ، وللحديث علل أخرى ذكرها ابن رجب في « جامعه » فراجعها . [الناشر] .

الرسل الكرام من لدن آدم إليه عليه الصلاة والسلام، وأنه نبي حق مرسل من ربه للبشر جميعًا : ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف : ١٥٨] . ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ : ٢٨] . ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] . وأنه لولا رسالته لبقيت الرسالات السماوية ناقصة غير تامة .

روى الشيخان في صحيحيهما أن النبي ﷺ قال في تصوير هذه الحقيقة : « إِنَّ مَثَلي وَمَثَلَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ من زواياه ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ ، وَيَقُولُونَ : هَلا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ ، قَالَ : فَأَنَا اللَّبِنَةُ ، وَأَنَا خَاتِمُ الأَنْبِيَاءِ » .

ألا ما أعظم وما أصدق أن يكون شعارنا معاشر المسلمين جميعًا عن اقتناع ورضى ، وأن ننشئ على ذلك أبنائنا وبناتنا ، الله ربنا ، والإسلام ديننا ، وسيدنا محمد نبينا ورسولنا .

❊ ❊ ❊

(3) الحث على تآخي المسلمين وتناصرهم[١]

عن عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ ، لا يَظْلِمُهُ وَلا يُسْلِمُهُ ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ القِيَامَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ » . رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما[٢] .

الشرح والبيان :

(عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ) .

هو الصحابي الجليل عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشي العدوي المدني ، أحد الأئمة الأعلام ، وأحد السبعة المكثرين من الرواية عن رسول الله ﷺ وعلى آله وصحابته ، هاجر مع أبيه وهو ابن عشر سنين ، فشب وترعرع في ظل الإسلام .

عرض على النبي ﷺ بغزوة بدر الكبرى فاستصغره ، ثم بأحد فرده أيضًا ، ثم بالخندق فأجازه ، وكان سنه يومئذ خمس عشرة سنة كما ثبت في الصحيح ، وشهد بيعة الرضوان والغزوات بعدها ، وقد أثنى عليه النبي – عليه صلوات الله وسلامه – ووجهه إلى الازدياد من العبادة فقال : « نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللهِ لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِن اللَّيْلِ » ، فَكَانَ لا يَنَامُ بعد ذلك مِنَ اللَّيْلِ إلا قَلِيلًا .

روى عن النبي ﷺ وعن كثير من الصحابة ، منهم الخلفاء الأربعة ، وروى عنه كثير من الصحابة والتابعين ، وكان من المتصدرين للفتوى والرواية ، ومن أشد الناس اتباعًا لسنة رسول الله ﷺ وآثاره ، ينزل حيث نزل ، ويصلي حيث صلى ، ويقف حيث وقف ، وكان كأبيه زاهدًا في الدنيا ، ولم تفتنه زهرتها ، توفي سنة ثلاث ، أو أربع ، أو سبع وسبعين عن سبع وثمانين عامًا ، فرضي الله عنه وأرضاه .

« المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ » .

---

(١) مجلة الأزهر : الجزء التاسع – السنة التاسعة والثلاثون .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب المظالم ، باب لا يظلم المسلم المسلم ، وصحيح مسلم ، كتاب الأدب ، باب تحريم الظلم .

المسلم : هو المعتنق لدين الإسلام ، وهو الدين العام الخالد الذي جاء به نبينا محمد ﷺ ، والذي يعتبر خاتم الأديان وأكملها وأوفاها : ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران : ١٩] .

والمراد بالأخوة : الأخوة في الإسلام ، وهذه الأخوة الدينية فوق الأخوة النسبية ، وسواء فيها الحر والعبد ، والرجل والمرأة ، والصغير والكبير ، والغني والفقير ، والعربي وغير العربي ، وعلى هذه الأخوة قام الإسلام ، ولما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة كان أول عمل قام به أنه آخى بين المهاجرين والأنصار ، وكان عملًا أوفى على الغاية في الحكمة والحنكة السياسية ، فقد كان لهذا العمل الفذ آثاره البعيدة في تاريخ الدعوة الإسلامية ، وبهذه الأخوة كانوا يترافقون ، ويتعاونون ، ويتناصرون على الأعداء ، بل وكانوا بها يتوارثون حتى نسخ ذلك فيما بعد لما استقر المسلمون ، وعز الإسلام فصار التوارث بالقرابة ، قال عز شأنه : ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ [الأنفال : ٧٥] . ولهذه الأخوة حقوقها المؤكدة ، وقد ذكر النبي ﷺ بعض هذه الحقوق بقوله : « لا يَظْلِمُهُ وَلا يُسْلِمُهُ » .

الظلم : نقص الحقوق أربابها ، ويطلق على وضع الشيء في غير موضعه ، فمن حق المسلم على أخيه المسلم أن لا يتنقصه حقه ، ولا ينتهك حرمته في دين ، أو نفس ، أو عرض ، أو مال ، وفي حجة الوداع صدع النبي ﷺ بهذه الحقوق فقال : « فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا في بَلَدِكُمْ هَذَا في شَهْرِكُمْ هَذَا ، وَسَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ فَسَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ ، أَلا فَلا تَرْجِعُواْ بَعْدِي كفارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ » ، ثمَّ قَالَ : « أَلا هَلْ بَلَّغْتُ ؟ » ، قلنا : نعم ، قال : « اللهم اشهد » . رواه البخاري ومسلم .

وبذلك قرر الإسلام حقوق الإنسان قبل أن يعرف العالم الحديث ذلك ببضعة عشر قرنًا .

(وَلا يُسْلِمُهُ) .

بضم الياء ، يقال : أسلم فلان فلانًا ، إذا ألقاه إلى الهلكة ، ولم يحمه من عدوه ، أي : لا يسلمه لأعدائه ، أو يدعهم ينكلون به ، بل يجب عليه أن ينصره ولا سيما إذا استنصر به ، ويدفع عنه ظلم الأعداء ما استطاع إلى ذلك سبيلًا ، وكذلك لا يسلمه فيما ينزل به من

غوائل ومصائب وكرب ، بل عليه أن يساعده ويأخذ بيده حتى ينقذه مما ألم به ، وفي رواية أخرى لمسلم : « ولا يخذله » ، أي : لا يترك نصره ومعونته إذا احتاج إليه ، وذلك في كل ما هو حق ، وفيها أيضًا : « ولا يحقره » ، فاحتقار المسلم للمسلم حرام ويتنافى مع حقوق هذه الأخوة ، روى مسلم في صحيحه بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « لا تَحَاسَدُواْ وَلا تَنَاجَشُواْ[1] وَلا تَبَاغَضُواْ وَلا تَدَابَرُواْ ، وَلا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ ، وَكُونُواْ عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا ، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لا يَظْلِمُهُ وَلا يَخْذُلُهُ وَلا يَحْقِرُهُ ، التَّقْوَى هَاهُنَا »- وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ- « بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَعِرْضُهُ وَمَالُهُ » . وإنما اقتصر النبي ﷺ على هذه الحقوق لأنها الأهم ، فهي رمز إلى وحدة المسلمين وتعاونهم في السراء والضراء ، وبها تكون العزة والغلبة على الأعداء ، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المُنَافِقُون : ٨] .

(وَمَنْ كَانَ في حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ في حَاجَتِهِ) .

هذا حق آخر من حقوق الأخوة الدينية ، فمن سعى في قضاء حاجة أخيه في الله وفي الوطن قضى الله سبحانه له حاجته ، وهو في معنى قوله في حديث لمسلم : « والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه » ، وهو مظهر من مظاهر التعاون على الخير ، وهذه عدة من رسول الله صادقة لا محالة ، ومن أصدق قيلًا من الله ورسوله ؟

(وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ) .

الكُربة بضم الكاف : الغُمة ، والكرب : الغم الذي يأخذ بالنفس - كما في القاموس - وكربات بضم الكاف والراء جمع كربة ، ويجوز فتح الراء ، وسكونها ، والكربة تجمع على كرب أيضًا ، وبها جاءت رواية الإمام مسلم ، والكرب يجمع على كروب .

وهذا حق آخر من حقوق الأخوة وهو مظهر من مظاهر التعاون في الضراء والتكافل بين المسلمين ، وسواء أكان تفريجه الكربة بماله ، أو مساعدته ، أو جاهه ، أو أزالها بإشارته ورأيه أو نحو ذلك كإبلاغها لمن يقدر على تفريجها ، وكان رسول الله ﷺ يقول

(١) هو أن يزيد في ثمن السلعة ولا رغبة له في شرائها بل ليغر غيره ويخدعه .

لأصحابه : « أبلغوني حاجة من لا يستطيع إبلاغها ، فإن من أبلغ سلطانًا حاجة من لا يستطيع إبلاغها ثبت الله قدميه على الصراط يوم القيامة »[1] .

(وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ) .

وفي حديث أبي هريرة عند الترمذي : « ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة » . وهو أعم من الأول وأشمل ، وهذا حق آخر من حقوق الأخوة وهو الستر على أخيه المسلم ، وهو أمر مندوب إليه إلا أن الحديث ليس على إطلاقه وظاهره ، فالمراد به الستر على ذوي الهيئات ونحوهم ممن ليس معروفًا بالأذى والإفساد ، وإنما صدر ذلك منه على سبيل الهفوة والذلة ، أما المعروف بالإفساد والأذى والذي مرن على المعاصي والفسق والفجور والاستهتار بالقيم الدينية الخلقية فالمستحب أن لا يستر عليه بل ترفع قضيته إلى ولي الأمر ليقيم عليه العقوبة ، لأن الستر على مثل هذا يجرئه على الاسترسال في الإيذاء والإفساد وانتهاك الحرمات ، ويجعل غيره يتجاسر على مثل فعله .

وهذا كله في ستر معصية وقعت وانقضت ، أما معصية رآه عليها وهو بعد متلبس بها ، فتجب المبادرة إلى إنكارها عليه ، ومنعه منها إن قدر على ذلك امتثالًا لقول الرسول الكريم ﷺ : « من رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ » . رواه مسلم في صحيحه . وقوله : « ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي هم أعز وأكثر ممن يعملون ثم لم يغيروه إلا عمهم الله بعقاب » . رواه الإمام أحمد في مسنده ، وقد جاءت الأجزية في الثلاثة من جنس العمل ، وليس في الحديث مخالفة لقوله تعالى : ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام : ١٦٠] . وقول النبي ﷺ : « الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة » . رواه الشيخان . لأن التفاوت حاصل بالكيفية ، وشتان ما بين كربة الدنيا وكربة الآخرة ، وما بين ستر العبد على أخيه وستر الله عليه .

وقد تكفل هذا الحديث الشريف بالإفصاح عن بعض الحقوق التي تقتضيها الأخوة

---

(١) أخرجه الترمذي في « الشمائل المحمدية » (٣٣٧) ، والطبراني في « الكبير » (٢٢/١٥٥) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (١٤٣٠) وغيرهم ، وقال الهيثمي في « المجمع » (٢٧٨/٨) : وفيه من لم يسم ، وضعفه الألباني في « الضعيفة » (١٥٩٤) . [الناشر] .

في الله وفي الدين ، وتكفلت الأحاديث الأخرى ببيان غيرها ، فمن ذلك ما ورد في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « حَقُّ المُسْلِمِ عَلَى المُسْلِمِ خَمْسٌ : رَدُّ السَّلامِ ، وَعِيَادَةُ المَرِيضِ ، وَاتِّبَاعُ الجَنَائِزِ ، وَإِجَابَةُ الدَّعْوَةِ ، وَتَشْمِيتُ العَاطِسِ » . رواه البخاري ومسلم .

وروى مسلم في صحيحه بسنده أن النبي صلوات الله وسلامه عليه قال : « حَقُّ المُسْلِمِ عَلَى المُسْلِمِ سِتٌّ ... » فذكر هذه الخمسة ، وزاد : « وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ » . إلى غير ذلك من الحقوق .

وبعد ، فيا أيها المسلمون في مشارق الأرض ، هذا هو نبيكم صلوات الله وسلامه عليه يدعوكم إلى هدي من هديه ، ويذكركم بالأخوة الإسلامية التي تميزتم بها عن غيركم من أهل الملل والشعوب ، أخوة لا تنحاز في زمان ولا مكان ، وإنما هي أخوة عامة شاملة ، وصدق الله حيث يقول : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات : ١٠] . أخوة جمعت بيننا في الآلام ، والآمال ، والمشاعر ، والأهداف ، وفي الحديث الصحيح قال النبي ﷺ : « تَرَى المُؤْمِنِينَ في تَوَادِّهِمْ وتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنه عُضْو تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالحُمَّى » . رواه البخاري ومسلم .

ألا ما أشد حاجتنا في هذا العصر الذي تكالبت علينا فيه عوامل الشر والفساد والهدم والتخريب إلى أن نكون يدًا واحدة ، وعلى قلب رجل واحد ، وأن نتناصر ونتعاون على الأعداء من إسرائيل ومن وراءها ، حتى نجليهم عن أرض الإسلام والعروبة ، ونعيد الأرض المغتصبة إلى أبنائها الشرعيين الذين شردوا في الصحاري والقفار ، بينما الصهاينة يتمتعون بخيرات الأرض الطيبة المباركة ، أرض فلسطين الشهيدة .

يا أيها المسلمون ، إن بيت المقدس ثاني مسجد وضع في الارض ، وثالث المساجد المشرفة التي تشد إليها الرحال ، وأولى القبلتين ، ومهاجر الأنبياء ، ومسرى خاتم المرسلين ، يستصرخ بكم ، ويستغيث ، فهلموا إليه خفافًا وثقالا ، وشيبًا وشبابا ، حتى تستخلصوه من قبضة السفاحين الأفاكين ، وما ذلك على عزيمتكم بعزيز .

* * *

(4) من حقوق الإنسان[(١)]

روى الإمامان الجليلان أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ، وأبو الحسين مسلم ابن الحجاج القشيري في صحيحيهما بسندهما– واللفظ للبخاري– عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : خَطَبَنَا النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ النَّحْرِ قَالَ : « أَتَدْرُونَ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا ؟ » قُلْنَا : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ فَسَكَتَ حتى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ ، قَالَ : « أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ ؟ » ، قُلْنَا : بَلَى ، قَالَ : « أَيُّ شَهْرٍ هَذَا ؟ » ، قُلْنَا : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، فَسَكَتَ حتى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ ، فَقَالَ : « أَلَيْسَ ذُو الحَجَّةِ ؟ » ، قُلْنَا : بَلَى ، قَالَ : « أَيُّ بَلَدٍ هَذَا ؟ » ، قُلْنَا : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، فَسَكَتَ حتى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ ، قَالَ : « أَلَيْسَتْ بِالبَلْدَةِ الحَرَامِ ؟ » ، قُلْنَا : بَلَى ، قَالَ : « فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وأعراضكم عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا إِلَى يَوْمِ تَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ ، أَلا هَلْ بَلَّغْتُ ؟ » ، قَالُواْ : نَعَمْ ، قَالَ : « اللَّهُمَّ اشْهَدْ ، فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ ، فَلا تَرْجِعُواْ بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ »[(٢)] .

وقد روى البخاري نحو هذا الحديث عن ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهما .

الشرح والبيان :

من هو أبو بكرة ؟

هو الصحابي الجليل أبو بكرة نفيع بن الحارث بن كلدة الثقفي ، وكني بأبي بكرة لأن النبي ﷺ لما حاصر ثقيفًا بالطائف في السنة الثامنة للهجرة أمر مناديًا ينادي : (من خرج إلينا من العبيد فهو حر) ، فكان ممن أجاب وسارع إلى دعوة الإسلام نفيع هذا ، فقد تسور حصن الطائف من الداخل ثم تدلى ببكرة من الخارج فكني بذلك ، وكان ثالث ثلاثة وعشرين خرجوا إلى النبي ﷺ مسلمين ، منهم : المنبعث ، وكان عبدًا لعثمان بن عامر بن

---

(١) مجلة الأزهر : ج١٠ – سنة ٣٩.

(٢) صحيح البخاري – كتاب العلم – باب قول النبي ﷺ : « رب مبلغ أوعى من سامع » ، وكتاب الحج – باب الخطبة أيام منى ، وفي كتاب الأضاحي – باب من قال : الأضحى يوم النحر ، صحيح مسلم ، كتاب القسامة ، والمحاربين ، والقصاص ، والديات ، باب تغليظ تحريم الدماء ، والأعراض ، والأموال .

معتب ، وكذا مرزوق ، والأزرق زوج سمية والدة زياد بن عبيد الذي صار يقال له : زياد بن أبيه ، والأزرق أبو عقبة وكان لكلدة الثقفي ، ثم حالف بني أمية لأن النبي ﷺ دفعه لخالد بن سعيد بن العاص ليعلمه الإسلام ، ووردان وكان لعبد الله بن ربيعة ، وآخرون[1] .

ولما جاءوا إلى رسول الله ﷺ دفع كل واحد منهم إلى من يعوله ويعلمه شرائع الإسلام ، ولما أسلم أهل الطائف فيما بعد وجاءوا إلى النبي طائعين طالبوا بعبيدهم هؤلاء ، فقال لهم رسول الله : « هؤلاء عتقاء الله » ، وقد خرج لأبي بكرة البخاري ومسلم وغيرهما ، فرضي الله عنه وأرضاه .

(خَطَبَنَا النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ النَّحْرِ) .

كان ذلك في حجة الوداع ، وسميت كذلك لأن النبي ﷺ ودع الناس فيها بقوله : « خذوا عني مناسككم ، فلعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا » . رواه الإمام مسلم ، وتسمى حجة الإسلام ، لأن النبي ﷺ لم يحج بعد الهجرة غيرها ، وتسمى أيضًا حجة البلاغ ، لأن النبي بلغ الناس فيها شرع الله في الحج قولًا وعملًا ، وذكرهم بالمهم من شرائع الإسلام وحقوق الإنسان مما ذكر في هذا الحديث وغيره ، وأشهد الله والناس على ذلك .

وقد دلت الأحاديث الصحيحة على مشروعية الخطبة يوم النحر ، وإلى هذا ذهب بعض كبار الأئمة الفقهاء ، وإذا صح الحديث وجب المصير إليه ، ولا يلتفت لقول من خالف ، والحق أحق أن يتبع ، وقد ثبت عن الأئمة الأربعة أنهم قالوا : إذا صح الحديث فهو مذهبي ، واضربوا بقولي عرض الحائط . وهذا المبدأ هو الجدير بأئمتنا الأعلام الأجلاء .

وقد بينت الروايات الأخرى أن النبي ﷺ كان راكبًا ناقته ليسمع الناس ، وأن أحد الصحابة كان آخذًا بخطامها كيلا تتحرك أو تضطرب ، قيل أنه بلال ، وقيل أبو بكرة راوي القصة ، وهو الذي صوبه ورجحه الحافظ ابن حجر في الفتح .

قَالَ : « أَتَدْرُونَ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا ؟ » .

الدراية : العلم ، أي : أتعلمون جواب هذا السؤال ؟ وهذا لون من ألوان الخطاب ، وأسلوب من أساليب التربية المحمدية ، يقصد به استحضار فهومهم ، وجذب انتباههم لما

---

(١) فتح الباري (ج٨ ص٣٧) .

سيلقي عليهم من الجواب ، فيتمكن من نفوسهم غاية التمكن ، وأيضًا فيه تفخيم وتنبيه إلى عظم المسئول عنه ، وهذا ليس بعجيب ممن أنزل الله عليه القرآن الذي أوفى على الغاية في البيان والإعجاز وأساليب الخطاب .

(قَالوا : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ) .

هذا من حسن أدب الصحابة – رضوان الله عليهم– لأنهم علموا أنه ﷺ لا يخفى عليه ما يعرفونه من الجواب ، وأنه ليس مراده مطلق الإخبار بما يعرفونه بدليل قولهم : فَسَكَتَ حتى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ .

(فَسَكَتَ حتى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ) .

وكان سكوته ﷺ مبالغة في التشويق لما سيلقي إليهم ، وإعطائهم فرصة لإعمال الفكر ، وإشحاذ الفهم ، وقد روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس أنهم لم يفوضوا في الجواب ، وأنهم أجابوا بعد كل سؤال ، ونصها عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم النحر فقال : « يا أيها الناس ، أي يوم هذا ؟ » ، قالوا : يوم حرام ! ، قال : « فأي بلد هذا ؟ » ، قالوا : بلد حرام ! ، قال : « فأي شهر هذا ؟ » ، قالوا : شهر حرام ! ، قال : « فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وأعْرَاضَكُم عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا في بَلَدِكُمْ هَذَا في شَهْرِكُمْ هَذَا ...» .

ثم رفع رأسه فقال : « اللهم هل بلغت ، اللهم هل بلغت ؟ » .

وقد أجاب بعض العلماء بأنهما واقعتان ، وأنهم فوضوا في أحداهما ، وأجابوا في الآخرى ، وهذا الجواب ليس بشيء ، لأن الخطبة في يوم النحر إنما تشرع مرة واحدة ، والصحيح في الجواب أن نقول : أنهم فوضوا أولًا بقولهم : الله ورسوله أعلم ، فلما سكت ﷺ بادر بعضهم بالجواب دون البعض ، فاقتصر أبو بكرة في روايته على الأول ، واقتصر ابن عباس على الثاني ، وقد يكون المحيطون بأبي بكرة فوضوا فنقل ذلك ، والمحيطون بابن عباس أجابوا فنقل ذلك .

(قَالَ : « أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ ؟ » قُلْنَا : بَلَى) .

روي بنصب لفظ (يوم) ، على أنه خبر ، أي : أليس اليوم يوم النحر ، ويجوز الرفع على أنه اسم ليس ، أي : أليس يوم النحر هذا اليوم ؟ وبلى : حرف يجاب به النفي ، فهي تنفي

النفي ، فيصير مثبتًا ، كأنهم قالوا : إنه يوم النحر .

(فقَالَ : « أَيُّ شَهْرٍ هَذَا ؟ » ، قُلْنَا : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ... فَقَالَ : « أَلَيْسَ ذُو الحَجَّةِ ؟ » ، قُلْنَا : بَلَى) .

ما قلناه في السؤال والجواب آنفًا يقال هنا كذلك ، وقد جاء لفظ (ذو الحجة) بالرفع على أنه اسم ليس ، والخبر محذوف ، أي : أليس ذو الحجة هذا الشهر ؟ وقد جاءت رواية الإمام مسلم : « أليس ذا الحجة ؟ » ، على أنه خبر واسم ليس محذوف ، أي : أليس الشهر ذا الحجة ؟ وما قلناه في (بلى) ، يقال هنا ، وفيما بعده قال : « أَيُّ بَلَدٍ هَذَا ؟ » ....، إلى قوله : « أَلَيْسَتْ بِالبَلْدَةِ الحَرَامِ ؟ » ، قُلْنَا : بَلَى .

وفي رواية الإمام مسلم : « أليس البلدة ؟ » ، والمراد بها مكة ، شرفها الله تعالى وهي المرادة بقول الحق تبارك وتعالى : ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ [النمل : ٩١] . وهو علم عليها بالغلبة ، كما أن البيت علم بالغلبة على الكعبة المشرفة ، ومعنى : (الحرام) ، أن الله حرمها من يوم أن خلق السماوات والأرض ، فلا يسفك فيها دم إنسان ، ولا يصاد صيدها ، ولا يقطع شجرها كما ورد ذلك في الصحيحين[1] وغيرهما .

وإنما وصف البلد بالحرام وهي مؤنثة لأن اسم الحرام اضمحل منه معنى الوصفية وصار اسمًا .

(قَالَ : « فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وأَعْرَاضَكُم عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا في شَهْرِكُمْ هَذَا في بَلَدِكُمْ هَذَا إلى يَوْمِ تَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ » .

العرض بكسر العين : هو موضع المدح والذم من الإنسان ، سواء أكان في نفسه أم في سلفه ، ومعنى حرام : محرم ، وفي الكلام محذوف يصحح الكلام ، أي : فإن سفك دمائكم وأخذ أموالكم ، وثلب أعراضكم ، والتعدي عليها حرام ، لأن الحل والحرمة لا يتعلقان بذوات الأشياء ، والمعنى : لا يسفك بعضكم دماء بعض ، ولا يأخذ بغير وجه حق بعضكم أموال بعض ، ولا يتعدى بعضكم على عرض بعض ، وقد جاء التعبير النبوي الكريم على أبلغ ما يكون لأنه جعل دماء الناس واحدة ، وأموالهم واحدة ، وأعراضهم واحدة ، فمن

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الحج ، باب لا يحل القتال بمكة ، وباب لا يعضد شجر الحرم ، صحيح مسلم ، كتاب الحج ، باب تحريم مكة وتحريم صيدها ، وخلاها ، وشجرها ، ولقطتها إلا لمنشد على الدوام .

سفك دم غيره ؛ فكأنما سفك دم نفسه ، ومن أفسد مال غيره ؛ فكأنما أفسد مال نفسه ، ومن تعدى على عرض غيره ؛ فكأنما تعدى على عرضه ، وتكاد تجمع الروايات عل توسيط الأموال بين الدماء والأعراض مع أن الإنسان قد يغار على عرضه أكثر مما يغار على أخذ ماله ، ولذلك سر وهو بيان أن حرمة التعدي على الأموال لن تقل عن حرمة التعدي على الأعراض ، ولو أنه أخرها لربما توهم البعض أن ذلك لعدم الاهتمام بها .

وفي تشبيهه حرمة الحقوق الثلاثة بحرمة اليوم ، والشهر ، والبلد ، توكيد وتغليظ لهذه الحرمة ، وهذا التشبيه ليس من تشبيه الأدنى بالأعلى ، أو الأضعف بالأقوى ، وإنما الأمر على العكس ؛ إذ أن مناط التشبيه في قوله ﷺ ظهوره عند المخاطبين ، لأن تحريم البلد والشهر واليوم كان ثابتًا في نفوسهم ، مقررًا عندهم في جاهليتهم ، بخلاف الأنفس ، والأموال ، والأعراض ، فكانوا يستبيحونها في الجهلية ، فجاء الشارع الحكيم فبين لهم أن تحريم دم المسلم وماله وعرضه أعظم من تحريم البلد والشهر واليوم ، وليس أدل على هذا مما رواه ابن ماجه عن عبد الله بن عمر قال : رأيت النبي ﷺ يطوف بالكعبه ويقول : « ما أطيبك وأطيب ريحك ، ما أعظمك وأعظم حرمتك ، والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله تعالى منك ، ماله ودمه وأن يظن به خيرًا » . وقد قرر النبي ﷺ حرمة هذه الأشياء في حديث آخر رواه مسلم وفيه : « كل المسلم على المسلم حرام ، دمه وماله وعرضه » . كما قرره بخلقه وسيرته وزاد الأمر تأكيدًا بهذه الخطبة في حجة الوداع ، في يوم النحر الذي هو يوم الحج الأكبر عند فريق من العلماء .

ومثل المسلم في هذه الحقوق والحرمة الذمي والمعاهد ، وفي الحديث الذي رواه البخاري : « من ظلم معاهدًا أو كلفه فوق طاقته لم يرح رائحة الجنة » . وقد صير الإسلام العظيم من هذه المبادئ السامية أسلوبًا عمليًا وواقعيًا حينما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية لكل الأجناس والطوائف ، وقد كانت هذه الحقوق مصانة غاية الصيانة ، ولاسيما في عصور الإسلام الأولى يوم أن كان الوازع الديني قويًا في النفوس ، ويوم كان المسلمون حكامًا ورعية وقافين عند حدود الله وتشريعاته ، على حين كانت أوروبا آنذاك في بربرية همجية لا تصان فيها دماء ، ولا أعراض ، ولا أموال ، ولا حقوق ، وهكذا نجد أن الإسلام سبق إلى تقرير حقوق الإنسان قبل أن يقرر العالم الحديث ذلك بقرابة أربعة عشر قرنًا !!

« أَلا هَلْ بَلَّغْتُ ؟ » ، قَالُواْ : نَعَمْ ، قَالَ : « اللَّهُمَّ اشْهَدْ » .

تقرير من النبي العظيم للناس أن يشهدوا له ويقروا له بالبلاغ ، وهو الصادق المصدوق عند الله وعند الناس ، حتى تنقطع المعذرة ، ولا يكون لأحد حجة ، وحتى يكون أسوة حسنة لكل من يأتي بعده من الخلفاء ، والملوك ، والرؤساء ، والرعاة .

« فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ » .

يوم من حضر معي من غاب فإن هذا البلاغ واجب ، ثم علل ذلك بأن بعض من يبلغ قد يكون أوعى للنص ، وأشد فهمًا له ، واستفادة واستنباطًا للحكم والأحكام منه من السامع ، ورب حامل فقه ليس بفقيه !! .

وبعد ، فلعلك أيها القارئ المنصف ازددت إيمانًا بعظمة الإسلام ، ونبي الإسلام ، ومبادئ الإسلام .

* * *

(5) تضامن الأمة في الإصلاح ودرء الفساد[1]

روى الإمام البخاري في صحيحه بسنده عن النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ وَالوَاقِعِ فِيهَا ؛ كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُواْ عَلَى سَفِينَةٍ ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا ، فَكَانَ الَّذِينَ في أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ المَاءِ مَرُّواْ عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ ، فَقَالُواْ : لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا في نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا ، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُواْ هَلَكُواْ جمِيعًا ، وَإِنْ أَخَذُواْ عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جمِيعًا » .

تخريج الحديث :

أخرجه البخاري بهذا اللفظ في صحيحه ، (كتاب الشركة – باب هل يقرع في القسمة ؛ والاستهام فيه –) ، وفي (كتاب الشهادات – باب القرعة في المشكلات –) ، مع المغايرة في بعض الألفاظ . وأخرجه الترمذي في (الفتن) ، عن النعمان بن بشير أيضًا ، وقال : حسن صحيح .

الشرح والبيان :

من هو النعمان بن بشير ؟

هو النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة الأنصاري الخزرجي ، وهو صحابي ابن صحابي ، وأمه السيدة عمرة بنت رواحة أخت الصحابي البطل شهيد مؤتة عبد الله بن رواحة ، ولد قبل وفاة النبي ﷺ بثمان سنين ، وقيل بست ، والأول أصح ، قال الواقدي : كان أول مولود في الإسلام من الأنصار بعد الهجرة بأربعة عشر شهرًا ، كما كان عبد الله بن الزبير أول مولود في الإسلام للمهاجرين بعد الهجرة إلى المدينة .

روى عن النبي ﷺ ، وعن خاله عبد الله بن رواحة ، وعن عمر ، وعائشة رضي الله عنهم . وروى عنه ابنه محمد ، ومولاه سالم ، وعروة ، والشعبي ، وسماك بن حرب ، وآخرون .

وكان كريمًا جوادًا شاعرًا ، ولعله ورث هذه الشاعرية من خاله عبد الله بن رواحه ، وقد تولى القضاء بدمشق بعد فضالة بن عبيد ، وقال سماك بن حرب : استعمله معاوية على

(١) مجلة الأزهر – الجزء الخامس – سنة ٤٣.

الكوفة ، وكان من أخطب من سمعت ، ثم نقله معاوية من إمرة الكوفة إلى إمرة حمص ، وضم الكوفة إلى عبيد الله بن زياد ، وكان بالشام لما مات يزيد بن معاوية ، ولما استخلف معاوية بن يزيد ، ومات عن قرب دعا لعبد الله بن الزبير ، ثم دعا لنفسه ، فواقعه مروان بن الحكم بعد أن واقع الضحاك بن قيس ، فقتل النعمان بن بشير ، وقيل أنه دعا لعبد الله بن الزبير في حياة يزيد ، فخرج عليه أهل حمص فقتلوه ، وذلك سنة خمس وستين[١] ، فرضي الله عنه وأرضاه .

الشرح والبيان :

« مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ وَالوَاقِعِ فِيهَا » .

هذا الحديث النبوي الشريف من الأحاديث الرائعة البليغة ، وليست روعته في فصاحته وبلاغته ودقة التمثيل فيه فحسب ، ولكن في أنه إلى ذلك كله يؤصل قاعدة من القواعد الإصلاحية في الإسلام ، إن لم تكن أهم هذه القواعد وأجلها ، وأعظمها أثرًا ، وأحسنها عاقبة ، وهي تكافل الأمة وتضامنها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أو بمعنى آخر : مسئولية كل مواطن في تثبيت دعائم الهداية ، والحق ، والخير ، والصلاح في الأمة والقضاء على بذور الضلال ، والباطل ، والشر ، والفساد فيها ، فهو يخلق في الأمة روح الإيجابية ، ويقضي على الروح السلبية التي تؤدي إلى أوخم العواقب ، وإشاعة الفساد ، الذي يؤدي إلى الضعف والانحلال ، ثم إلى الفناء والزوال .

ومن روعة التمثيل تمثيل الوطن بالسفينة العائمة في خضم واسع عميق عرضة للأعاصير الهوج ، والأمواج المتلاطمة ، المتدافعة ، وما أدق التمثيل وما أروعه !! ، فالأوطان في الحقيقة عرضة للتأثر باختلاف الأهواء والأغراض ، وتباين النزعات والاتجاهات ، واصطراع الأفكار والآراء ، وأي تفريط من الربان وأعوانه يؤدي بالسفينة إلى الغرق والغوص في متاهات الأعماق ، وكذلك الأوطان أي خطأ في الحساب والتقدير أو إفراط أو تفريط في التصرف قد يؤدي بها إلى الهلاك والرسوب ، والذل والتخلف أحقابًا من الزمان ، هذا إلى ما في التمثيل بالسفينة من بيان الحساسية البالغة ، وحتمية التأثر بما يجري حولها ، وفوقها ، وفيها !!

---

(١) الإصابة في تاريخ الصحابة (ج٣ ص٥٥٩) ، والاستيعاب .

وكذلك مثل المواطنين بركاب السفينة ، وربط حياتهم ببقائها ، وهلاكهم بهلاكها ، ولهذا من التأثير النفسي ما له في الحفاظ عليها ، والتضحية بكل شيء في سبيلها ، ومن ذا الذي لا يرغب في الحياة ولا يكره الهلاك ؟ فكما أن الربابنة يحرصون على السفينة لارتباط حياتهم بحياتها ، وسيرها ، فكذلك المواطنون يجب أن يحرصوا على الأوطان حرصهم على حياتهم ، وليس هذا- وهو قل من كثر مما يمكن استشفافه من الحديث- بكثير على من أوتي جوامع الكلم ، واختصر له الكلام اختصارًا ، صلوات الله وسلامه عليك يا سيدي يا رسول الله ، ما أسمى توجيهاتك ، وما أروع تمثيلاتك ، وما أشد إشراق بيانك ، وما أغزر معاني أحاديثك .

المثل ؛ والمثل ؛ والمثيل كالشبه ؛ والشبه ؛ والشبيه وزنًا ومعنى ، ثم قيل للقول السائر المشبه مضربه بمورده مثل ، ومن شأن العرب أنهم لم يضربوا مثلًا إلا قولًا فيه غرابة ، ولهذا حوفظ على الأمثال ، فلا تغير ، ولا يخرج بها عن صيغتها الأولى ، ثم توسع فيه فاستعير المثل للحال أو الصفة أو القصة إذا كان لها شأن وفيها غرابة ، المعنى صفة القائم ، على حدود الله ، والواقع فيها ، وحالهم العجيبة كحال قوم استهموا على سفينة .

الحدود : جمع حد ، قال الزجاج : أصل الحد في اللغة المنع ، ومنه حد الدار ، وهو ما يمنع غيرها من الدخول فيها ، والحداد : الحاجب ، والبواب .

وأما في الشرع : فالمراد بالحدود الشرائع التي شرعها الله من الحلال والحرام ، وتطلق الحدود ويراد بها نفس المعاصي ، ومنه قوله تعالى : ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البَقَرَة : ١٨٧] . وتطلق ويراد بها فعل فيه شيء مقدر ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطَّلاق : ١] . وتطلق ويراد بها العقوبات المقدرة من الشارع ، وذلك كحد السرقة ، والزنا ، وشرب الخمر ، ونحوها ، فإن لم تكن مقدرة محددة من الشارع فهي التعازير .

والمراد في الحديث المعنى الأول وهو شرائع الله ، فيشمل فعل المأمورات واجتناب المنهيات .

ومعنى « القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ » الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر ، وقيل معناه : المستقيم على الشريعة وعلى ما منع الله ، ولا تنافي بين المعنيين ، بل هما- في نظري-

متلازمان غالبًا ، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر رأس الاستقامة على الدين بعد الإيمان ، والمستقيم على الشريعة لا بد أن يكون آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر ، فلا يترك هذا الغرض ولا يداهن فيه .

« وَالوَاقِعِ فِيهَا » .

أي : التارك للمعروف المرتكب للمنكر أو يشمله ، ويشمل المتساهل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وفي رواية الترمذي : « مثل القائم على حدود الله تعالى والمداهن فيها » وهو في معنى هذه الرواية ، لأن المداهن والمدهن هو المتلين لمن لا ينبغي التلين له ، وهو بمعنى التارك للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وجاءت رواية البخاري في (كتاب الشهادات) بلفظ : « مثل المدهن في حدود الله والواقع فيها ...» ، وهو غير مستقيم ؛ لأن المدهن ليس مقابلًا للواقع في الحدود ، وإنما هو داخل معه وفي حكمه ، فلا يكون هنا توافق بين الممثل له والممثل به .

والأصوب والأصح الرواية الأخرى التي سقناها أولًا ، والظاهر أن هذه وهم من بعض الرواة ، أو اقتصار . والمدهن من الإدهان وهو المحاباة في غير حق ، وهو الذي يرائي ويضيع الحقوق ولا يغير المنكر ، وقيل المداهنة المصانعة والمساهلة على حساب الحق ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القَلَم : ٩] .

وقد جاءت رواية الإسماعيلي في مستخرجه في كتاب الشركة : « مثل القائم على حدود الله والواقع فيها والمدهن فيها » ، وهذه ثلاث فرق وجودها في المثل المضروب ، أن الذين أرادوا خرق السفينة بمنزلة الواقع في حدود الله ، ثم من عداهم : إما منكر وهو القائم على حدود الله ، وإما ساكت وهو المداهن .

والظاهر أن بعض الرواة - كما قال الحافظ في الفتح - اقتصر على ذكر المدهن والقائم ، وبعضهم اقتصر على ذكر الواقع في الحدود والقائم عليها ، وبعضهم ذكر الثلاثة ، أما الجمع بين المدهن والواقع دون ذكر القائم فلا يستقيم ، وعلى هذا فتكون هذه الرواية التي في كتاب الشهادات إما وهم من بعض الرواة ، وإما اقتصار بذكر البعض وترك البعض[1] .

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري (ج٥ ص٢٢٥) .

« اسْتَهَمُواْ عَلَى سَفِينَةٍ » .

أي : أخذ كل منهم نصيبه من السفينة على سبيل الاقتراع ، وفي الرواية الأخرى : « استهموا سفينة » ، أي : اقترعوا على أنصبتهم فيها ، فالمعنى واحد ، وهذا إنما يكون في السفينة ونحوها كالقطار ، والسيارة مثلًا فيما إذا نزلوا معًا ، أما لو سبق بعضهم بعضًا فالسابق أحق بموضعه ، وسواء أكان الحق بالتملك أم بالاستئجار .

« فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ المَاءِ مَرُّواْ عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ » .

استقوا : أي : أرادوا السقيا ، أي : الشرب ، والسين والتاء للتأكيد ، ويجوز أن تكونا للطلب ، أي : طلب بعضهم من بعض السقيا ، وفي الكلام محذوف دلت عليه الرواية الأخرى « فتأذوا به » ، والضمير في « به » إما عائد على المار أو المرور المفهوم من الكلام ، وإما عائد على الماء الذي يكون مع المار عليهم .

« فَقَالُواْ : لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا » .

لو : إما للتمني فلا جواب لها ، وإما أن تكون للشرط وجوابها محذوف ؛ لكان أولى وليس فيه إيذاء للمرور بهم ، وكأنهم ظنوا أنه ما دام ملكًا لهم فلهم التصرف فيه ، حتى ولو ضر ذلك بمصلحة الغير ، أو بمصلحة الجماعة ، فوضع لهم النبي الأمور في نصابها .

« فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُواْ هَلَكُواْ جمِيعًا » .

ما : مصدرية ، والواو بمعنى (مع) ، أي : إن يتركوهم وتحقيق إرادتهم ، والواو في يتركوهم عائد على البعض الذي اختار أعلى السفينة ، واستقر فيها ، أي : إن يترك الذين في علو السفينة الذين هم في أسفلها ليخرقوها هلكوا جميعًا ، أي : الخارقون والتاركون للإنكار ، ولم يحولوا بينهم وبين ما يريدون ، وفي هذه الرواية إجمال بينته الرواية الأخرى : « فأخذ فأسًا فجعل ينقر أسفل السفينه ، فأتوه فقالوا : مالك ؟ ! ، قال : تأذيتم بي ، ولا بد من الماء » .

« وَإِنْ أَخَذُواْ عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جمِيعًا » .

وفي الرواية الأخرى : « فإن أخذوا على يديه » ، بالإفراد لأنهم إن شاركوه في الخرق وائتسوا به فالجمع ظاهر ، وإن كان الذي تولى الخرق واحد فموافقتهم له ورضاهم عن عمله يجعلهم في حكمه .

« نَجَوْا » أي : المنكرون عليهم ، « وَنَجَوْا جميعًا » ، أي : الناهون المنكرون والشارعون في الخرق وإحداث الثغرة ، وقد يظن ظان بادئ الرأي أنه لا داعي لقوله : « وَنَجَوْا جميعًا » ، وأنه تكرار لما قبله ، ولكن عند التحقيق والتأمل وإعمال الفكر والروية يتبين لنا أنه لا غنى عنه قط ، لأنه لو لم يذكره ﷺ لتوهم أن النجاة خاصة بالمنكرين دون الشارعين في الخرق ، ولكن بذكره كان تنصيصًا على نجاتهم أيضًا ، وفي هذا ما فيه من التأثير النفسي ، فإن الشارع في الخرق إذا علم أن في تنفيذ ما يريد الهلاك وفي تركه النجاة كان ذلك أدعى إلى تهيب الإقدام عليه ، والإصاخة لصوت الحق ، وقد جاءت الرواية بأوضح من هذا : « فإن أخذوا على يديه نجوه[1] ونجوا أنفسهم ، وإن تركوه أهلكوه وأهلكوا أنفسهم » .

وقد جاءت هذه الرواية بتقديم تركهم وشأنهم على الأخذ على أيديهم ، وجاءت الرواية الأخرى بالعكس ، فإن كانت القصة واحدة فيجاب عنه بأن الواو لا تفيد ترتيبًا ولا تعقيبًا ، ويكون من تصرف الرواة ويكون داخلًا تحت جواز الرواية بالمعنى بشروطها ، ولا سيما أنه لا يترتب عليه أي تغير في حكم شرعي ، وإن كانت القصة متعددة أي أن النبي ذكر الحديث غير مرة فيكون من باب التفنن في القول ، والأول هو الذي يترجح عندي والله أعلم .

وقد حاولت أن أعرف اللفظ الذي يكون نطق به النبي على أن القصة لواحد فلم أصل في هذا إلى يقين ، ولكن الذي يترجح عندي ويغلب على ظني والله أعلم أن يكون اللفظ الذي سقته في صدر المقال هو لفظ النبي ﷺ ، لأن فيها دفع المضرة الذي ذكر أولًا ، وهو مقدم على جلب المصلحة الذي ذكر ثانيًا ، هذا إلى ما فيها من الإشراق والإيجاز ، والخلو من احتمال الغلط الذي وجد في الرواية الثانية ، وإن كان هذا الاحتمال من الرواي لا من النبي ، فتعاون ركاب السفينة على إزالة المنكر والأخذ على يد الخارق سبب في نجاتهم جميعًا ، وتهاونهم في هذا سبب في هلاكهم جميعًا ، وهكذا الشأن إذا أقيمت الحدود في الأمة ، وأمر بالمعروف ، ونهي عن المنكر ؛ صلحت الأحوال ، وأمن الناس على أنفسهم ، وأعراضهم ، وأموالهم ، ونجا الكل من عواقب المنكر والشر والإفساد الوخيمة ، وإلا هلك الكل ، العاصي بمعصيته ، والتارك للإنكار بالتفريط في هذا الواجب ، والمداهن بالمداهنة والمساهلة ، وهذه سنة الله في كل مكان وزمان ، وصدق الله تبارك وتعالى في قوله :

(١) نجوه بفتح النون ، وتشديد الجيم المفتوحة ، وكذلك ما بعدها ، وفي رواية : أنجوه .

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [المائدة : ٧٨، ٧٩] .

ما يؤخذ من الحديث من الأحكام والآداب :

١- أثر القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في بقاء الأمم ، وتقدمها ، ورقيها روحيًا ، وأخلاقيًا ، وماديًا ، وأن العامة قد يؤخذون بذنوب الخاصة ، وأن الصالح قد يؤخذ بذنب الطالح ، وأن الفتنة إذا نزلت عمت ، قال عز شأنه : ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾ [الأنفال : ٢٥] . وفي الحديث الصحيح المرفوع إلى النبي ﷺ : « إن الناس إذا رأوا منكرًا فلم يغيروه يوشك أن يعمهم الله بعقابه » . رواه أصحاب السنن وابن حبان في صحيحه . ولو أن الأمة الإسلامية والعربية أخذت بهذا المبدأ لكانت من خير شعوب الأرض وأعزها إن لم تكن خيرها ، وأعزها وأفضلها .

٢- في الحديث جواز القرعة في المشكلات ، وقد اختلف فيها العلماء ، والجمهور سلفًا وخلفًا على جوازها ، وخالف فيها بعض الكوفيين ، وجوزها الإمام أبو حنيفة ، وقال : هي في القياس لا تستقيم ، ولكنا تركنا القياس للآثار والسنة ، وصدق الإمام ، ففي الصحيحين وغيرهما الروايات الكثيرة في القرعة ، وارجع إلى صحيح البخاري في (باب القرعة في المشكلات) .

٣- أخذ العلماء من هذا أحكامًا شرعية في مسألة من ملك سفل بيت ومن ملك علوه ، ومما قالوه : حكم العلو والسفل يكون بين رجلين ، فيعتل السفل ويريد صاحبه هدمه ، فليس له هدمه إلا من ضرورة ، وليس لرب العلو أن يبني على سفله شيئًا لم يكن قبل ، إلا الشيء الخفيف الذي لا يضر صاحب السفل ، وقال أشهب : باب الدار على صاحب السفل ، فلو انهدم السفل أجبر صاحبه على بنائه ، وليس على صاحب العلو أن يبني السفل ، فإن أبى صاحب السفل أن يبني قيل له : بع لمن يبني .... إلى آخر ما قالوا وما استنبطوا من هذا الحديث الموجز .

وبعد ، فما أشد حاجتنا في حاضرنا اليوم من أن نهتدي بهذا الهدي النبوي الذي هو أحسن الهدي ، والذي كون أمة كانت خير أمة أخرجت للناس ، فهل تعود ؟ ذلك ما نرجو ، والله الموفق والمعين .

(6) إنقاذ سفينة المجتمع[1]

روى الإمام البخاري في صحيحه عن النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ وَالوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُواْ عَلَى سَفِينَةٍ ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا ، فَكَانَ الَّذِينَ في أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ المَاءِ مَرُّواْ عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ ، فَقَالُواْ : لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا في نَصِيبِنَا خَرقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا ، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُواْ هَلَكُواْ جمِيعًا ، وَإِنْ أَخَذُواْ عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جمِيعًا » .

هذا الحديث الشريف من جوامع كلمه ﷺ ، ومن رائع تمثيلاته وصادق توجيهاته وإرشاداته ، ضرب لنا فيه رسول الله صلوات الله وسلامه عليه مثلًا واضحًا بليغًا يعتبر بدعًا في بابه ، لم يتفتق عن مثله– فيما أعلم– بيان إنسان ما ، اللهم إلا صاحب الرسالة العظمى الذي لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى .

وهذا الحديث الشريف يقرر سنة من سنن الله سبحانه في الكون ، وأصلًا من أصول الاجتماع ، وهو تكافل أفراد الأمة ، وتضامنهم ، وتعاونهم في سبيل تثبيت دعائم الحق والخير والفضائل ، والقيام على حراسة هذه الاصول والقضاء على أهل الباطل والشرور والرذائل ، وإلا فلا قيام لحق ولا اسقرار لفضيلة ولا دوام لعزة وسلطان .

والمراد بحدود الله : ما نهى الله عنه من المعاصي والمحرمات ، والمراد بالقائم على الحدود : الناهي عن المنكرات .

والمراد بالواقع فيها : العصاة وأهل الباطل والإفساد في الأرض ، ومعنى استهموا : اقترعوا . فمثل أهل الحق القائمين عليه وأهل الباطل الواقعين فيه كمثل جماعة ركبوا سفينة توصلهم إلى مقصدهم وغايتهم ، وقد اقترعوا على اقتسامها ، فأصاب بعضهم– وهم أهل الحق– أعلاها ، وأصاب بعضهم– وهم أهل الباطل– أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا أحبوا أن يشربوا مروا على من فوقهم ، فبدا لهم أن يخرقوا السفينة في نصيبهم كي يستقوا من غير أن يضاروا من فوقهم ، فإن تركهم من هم في أعلاها يخرقون السفينة لم يلبث الماء أن يدخل جوفها فيغرق الجميع ، وإن منعوهم وحالوا بينهم وبين ما يريدون نجا من في

(١) مجلة الأزهر – الجزء الخامس – المجلد التاسع والعشرون .

أعلاها ونجا من في أسفلها.

كذلك أهل الحق مع أهل الباطل، فإن ترك أهل الحق والإصلاح أهل الباطل والمعاصي يفسدون ويملئون الأرض جورًا ومنكرات لا يلبثون أن يهلكوا جميعًا هلاكًا معنويًا وحسيًا، هلاكًا معنويًا بالقضاء على معنوياتهم ومقوماتهم الإنسانية، وتدنيس فطرهم، وإضعاف دواعي الخير والحق في نفوسهم، وهلاكًا حسيًا بتقويض بنيان أمتهم، وذهاب دولتهم وعزتهم وسلطانهم بين الأمم والشعوب، وإن وقف أهل الحق لأهل الباطل بالمرصاد وقطعوا عليهم سبل الشر والفساد وضربوا على أيديهم بإقامة الحدود أو التعزير والتأديب فقد نجوا جميعًا، نجا المفسدون لأنهم لم يجدوا بيئة صالحة لإفسادهم وشرورهم، ونجا الصالحون لأنهم لم يفرطوا في الأمانة التي ائتمنوا عليها وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وحراسة الشريعة والقيام على ذلك، وبذلك يحفظون على الأمة دينها واستقامتها، فتبقى قوية البنيان، عزيزة المنال، ظاهرة السلطان، وكانت جديرة بنصر الله الذي تكفل بنصر من ينصره؛ وهم أهل الحق والإيمان.

والأمة التي يكون لها من أمرائها وعلمائها وصالحيها رقابة صادقة على أفرادها، وهيمنة زاجرة رادعة لأهل المعاصي والشرور والفجور والتحلل من الشرائع والفضائل واستهجان ما يفعلون، والضرب على أيديهم العابثة، أمة جديرة بالبقاء. أما الأمة التي تنعدم أو تضعف فيها روح المراقبة والسيطرة على سلوك أفرادها ويفشو فيها النفاق، ومداهنة أهل الباطل والفسوق، والسكوت على مآثمهم ومفاسدهم، بل ومجازوة هذا إلى الثناء عليهم واستحسان منكراتهم، فهي- ولا ريب- أمة متداعية وصائرة ولا محالة إلى الفناء، سواء في هذا صالحهم وطالحهم، ومحققهم ومبطلهم.

وقد أكد المشرع صلوات الله وسلامه عليه هذا الأصل الثابت وهذه السنة الإلهية في غير ما حديث، روى أبو داود والترمذي والنسائي بأسانيد صحيحة عن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه قال: يا أيها الناس، إنكم تقرءون هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ [المَائِدَة: ١٠٥]، وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه». ورضي الله عن الصديق حينما بين لنا أن الآية

ليست على ظاهرها كما يلهج بها المحرفون المغرضون ، وأنها فيمن أمر بمعروف ونهى عن منكر فلم يسمع له ، فحينئذ عليه نفسه .

وروى الإمام أحمد عن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا ظهرت المعاصي في أمتي عمهم الله بعذاب من عنده » ، فقلت : يا رسول الله ، أما فيهم أناس صالحون ؟ قال : « بلى » ، قالت : فكيف يصنع أولئك ؟ قال : « يصيبهم ما أصاب الناس ثم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان » .

وروي أيضًا مرفوعًا : « ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي هم أعز وأكثر ممن يعملون ثم لم يغيروه إلا عمهم الله بعقاب » ، ومصداق هذا من كتاب الله سبحانه : ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال : ٢٥] . قال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية : (أمر الله المؤمنين أن لا يقروا المنكر بين ظهرانيهم فيعمهم الله بالعذاب) .

لو أن الأمم الأسلامية جعلت رقباء من نفسها على نفسها ومن بعضها على بعضها لقلت المفاسد والشرور ، واستقامت الأمور وصلحت الأحوال ، ولكان المسلمون بحق خير أمة أخرجت للناس ، لإيمانهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، ولكن مما يؤسف له غاية الأسف أن المفسدين وأهل الباطل وجدوا من معظم أفراد المجتمع مداهنة ومجاملة في القيام على حدود الله ، فمن ثم استشرى الفساد ، واستفحل الداء ، وضاعت صيحات المصلحين والغيورين سدى وصارت هباء ، ولا عجب إذا كان الله سبحانه ضرب القلوب بعضها ببعض وعمت النقمة والبلاء .

خُلق المداهنة والمجاملة في الحق خلق قديم ابتليت به بعض الشعوب في القديم فكان سبب هلاكها وغضب الله عليها ، وهو خلق يهودي متأصل فيهم ، وبسببه أذلهم الله ولعنهم . روى أبو داود في سننه عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول : يا هذا ، اتق الله ودع ماتصنع فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض » ، ثم قال : ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ

لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [المائدة: ٧٨-٨٠] » . ثم قال : « كلا والله ، لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يد الظالم ، ولتأطرنه على الحق أطرًا ولتقصرنه على الحق قصرًا[١] ، أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض ، ثم ليلعنكم كما لعنهم » . وهكذا يتبين لنا أن خلق المداهنة في الحق أنكرته الأديان عامة على لسان موسى وداود وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام ، وأنه سبب للهلاك والدمار واسحقاق اللعنة وسوء العذاب .

وبعد ، فهل نحن متمسكون بهذا الهدي المحمدي ، وهذا المبدأ الإسلامي العتيد الخالد ؟ الحق أن لا . إن في المجتمعات الإسلامية اليوم انحرافًا عن سنن الإسلام وطريقه الأحب المستقيم ؛ في العقائد ، والفضائل ، والأحكام ، والمعاملات ، وفيه حركات ظاهرة وخفية وتيارات فكرية وعقدية ، وهي معاول هدم لصرح الإسلام الشامخ ، وصرح الفضائل الثابتة التي تدعو إليها جميع الأديان ، فما موقفنا منها ؟ وما الذي صنعناه حيالها نحن المسؤلين عن الإسلام والمسلمين ، حكامًا وعلماء وشعوبًا ؟ وما مبلغ تطبيق هذا المبدأ الخالد في مصر قطب الإسلام وقلبه النابض وبلد الأزهر الشريف ؟

بالأمس القريب قام رجل كريم من أعضاء مجلس الأمة يدعو دعوة الحق ، يدعو إلى الفضيلة والكرامة والاحتشام ، والحد من تبرج النساء الذي وصل إلى حد العري الفاضح ، ومن الإباحية في الأزياء التي وصلت إلى درجة الابتذال ، واستعمال المساحيق ونحوها من وسائل الإغراء ، فما مبلغ التجاوب معه من الشعب ؟ وماذا قام به العلماء والمصلحون في تأييد صاحب هذه الدعوة الحقة الكريمة ؟ وما هي الخطوة العملية التي خطوناها في هذا السبيل ؟ وهذه دعوة حقة من عشرات الدعوات الكريمات .

يا قوم ، العمل العمل ، والنجاء والنجاء ، قبل أن تغرق السفينة فنكون جميعًا- والعياذ بالله - من الهالكين .

❊ ❊ ❊

(١) أطره على الحق أطرًا : عطفه عليه ، وقصره على الحق : حبسه عليه .

(7) يقظة المؤمن وفطنته [١][1]

روى الشيخان في صحيحيهما بسندهما عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ : « لا يُلْدَغُ المُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ » . متفق عليه .

تخريج الحديث :

روى هذا الحديث الإمام البخاري في صحيحه (كتاب الأدب : باب لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين) .

ورواه الإمام مسلم في صحيحه (كتاب الزهد : باب في أحاديث متفرقة) .

وقد اتفق البخاري ومسلم على رواية الحديث بسند واحد ، وزاد مسلم طريقين آخرين[2] ، وأخرج هذا الحديث أيضًا الإمام أبو داود في كتاب الأدب من سننه ، ورواه أيضًا الإمام ابن ماجه في سننه كتاب الفتن .

الشرح والبيان :

سبب ورود هذا الحديث :

ولكي نفهم المراد من الحديث نذكر سبب ورود هذا الحديث ، ذلك أن أبا عزة الشاعر كان ممن أسر في غزوة بدر الكبرى ، وكان فقيرًا ذا عيال ، فقال : يا رسول الله ، لقد عرفت ما لي من مال ، وإني لذو حاجة وذو عيال فامنن علي[3] ، فمن عليه رسول الله ﷺ وأخذ عليه أن لا يظاهر عليه أحدًا ، فتعهد بذلك ومدح النبي ﷺ بشيء من شعره فقال :

مَنْ مُبَلِّغٌ عني الرسولَ محمدًا ... بأنكَ حَقٌّ والمليكُ حَمِيدُ
وأنتَ امرؤٌ تدعو إلى الحقِ والهدىَ ... عليكَ من اللَّهِ العظيمِ شَهِيدُ
وأنتَ امرؤٌ بُوِّئْتَ فينا مَبَاءةً ... لها درجاتٌ سَهْلَةٌ وَصُعُودُ
فإنكَ مَنْ حَارَبْتَهُ لَمُحَارَبٌ ... شَقي ومَنْ سَالمْتَهُ لَسَعِيدُ

فلما كان يوم أحد سعى إليه صفوان بن أمية وقال له : يا أبا عزة ، إنك امرؤ شاعر ، فأعنا

(١) مجلة الأزهر - الجزء الثاني - السنة الثالثة والأربعون .

(٢) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ج١٨ ص ١٢٤، ١٢٥، وفتح الباري ج١٠ ص ٤٣٥.

(٣) يعني اتركني بدون فداء من مال .

بلسانك ، وأخرج معنا ، فقال : إن محمدًا قد مَنَّ علي ، فلا أريد أن أظاهر عليه ، ولم يزل يغريه ويقول له : لله علي إن رجعت أن أغنيك ، وإن قتلت أن أجعل بناتك مع بناتي يصيبهن ما أصابهن من عسر ويسر ، حتى قبل ، فلما كانت موقعة أحد أسر مرة ثانية ، فسأل النبي ﷺ أن يمن عليه أيضًا ، فقال النبي ﷺ : « لا أدعك تمسح عارضيك بمكة تقول : خدعت محمدًا مرتين » ، ثم أمر فضربت عنقه ، ويقال أن فيه قال رسول الله ﷺ : « لا يُلْدَغُ المُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ » .

قال بعض العلماء : وهذا من الأمثال البديعة التي لم تسمع إلا منه عليه الصلاة والسلام[١] .

وهذا القصة ذكرها ابن إسحاق في سيرته بدون إسناد ، وقال ابن هشام في تهذيب سيرته : وبلغني عن سعيد بن المسيِّب أنه قال : قال له رسول الله ﷺ - أي قال لأبي عزة الشاعر -: « إن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين ، اضرب عنقه يا عاصم بن ثابت » ، فضرب عنقه[٢] .

وهذا السبب يلقي لنا أضواء تعيننا على فهم الحديث ، وبيان المراد منه ، وأن الحديث ليس على حقيقته ، كما فهم بعض الذين لا يعرفون الأساليب العربية ، واستشكلوا الحديث بناء عن ذلك ، وإنما هو من قبيل المجاز ، والتمثيل الرائع ، والأسلوب البليغ ، والإبداع الفائق الذي لا يكون إلا من نبينا محمد ﷺ ومشكاة نبوته ، ولنأخذ في شرح الحديث فنقول وبالله التوفيق :

« لا يُلْدَغُ الـمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ » .

المفردات :

لا يلدغ : اللدغ - بالدال المهلمة ، والغين المعجمة - ما يكون من ذوات السموم كالعقرب ، والحية . قال في المصباح المنير : لدغته العقرب - بالغين معجمة - لدغًا من باب نفع : لسعته ، ولدغته الحية لدغًا : عضته ، فهو لديغ . والمرأة لديغ أيضًا ، وقال الأزهري : اللدغ بالناب ، وفي بعض اللغات تلدغ العقرب ، ويقال : اللدغة جامعة لكل هامة ، وأما اللذع - بالذال المعجمة ، والعين المهملة- فهو ما يكون من النار .

(١) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير (جـ٣ ص٣١) .
(٢) سيرة ابن هشام (ج٢ ص١٠٤) .

الجحر : قال في القاموس : الجحر بالضم كل شيء يحتفره الدواب والسباع لأنفسها كالجحران ، وجمعه جحرة ، وأجحار[١] .

جحرة : على وزن عنبة ، وقال أبو منصور الثعالبي وغيره : قد جعلوا الجحر للضب خاصة ، واستعماله لغيره كالتجوز كما قال صاحب تاج العروس ، « واحد » صفة لجحر وهو للتأكيد لأن الإنسان إذا لدغ من جحر آخر ربما يكون له بعض العذر ، أما إذا لدغ مرة ثانية من الجحر الذي لدغ منه أولًا فذلك غاية الغفلة ، وذكر المرتين لأنهما أقل ما يتأتى فيه التكرار ، وإذا انتفت المرتان انتفى ما فوقهما من باب أولى .

والمراد بالمؤمن : المؤمن الكامل الذي استضاء قلبه بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، واستقامت جوارحه بالعمل الصالح ، واستنار عقله ، واستفاد ذهنه بما يتلوه من آي القرآن والسنة ، وما اشتملا عليه من الحكم ، والأحكام ، والتوجيهات ، والآداب ، وما قرأ من سيرة النبي ﷺ وسير أصحابه النبلاء في السلم والحرب ، والصلح والمعاهدات والشروط ، لما كانوا عليه من الإيمان الصادق ، والعلم النافع ، والعمل الصالح ، والذكاء النادر ، وبعد النظر الأصيل الذي صدقته الأحداث والأيام ، وعلى هذا يحمل هذا الحديث وما على شاكلته من الأحاديث النبوية .

وقد روي قوله ﷺ : « لا يلدغ » ، بروايتين ، أولاهما : رفع « يلدغ » مبنيًا للمجهول ، على أن « لا » نافية ، وثانيتهما : « لا يلدغ » بكسر الغين في الوصل وبالبناء للمجهول أيضًا ، فتكون « لا » ناهية .

وعلى الرواية الأولى إما أن تكون جملة « لا يلدغ » خبرية في لفظها ومعناها ، ويشهد لهذا السبب الذي أوردناه ، ويحتمل أن تكون خبرية لفظًا ولكن معناها الأمر ، ولذلك نظائر في الأساليب العربية[٢] ، قال الإمام الخطابي رحمه الله تعالى : هذا لفظه خبر ، ومعناه أمر ، أي : ليكن المؤمن حازمًا حذرًا لا يؤتى من ناحية الغفلة فيخدع مرة بعد أخرى ، وقد يكون

---

(١) القاموس ج١ مادة جحر ص ٣٨٦.

(٢) فقد جاء في أفصح الكلام وأبلغه ، قال تعالى : ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ أي : ليرضعن ، وقال تعالى : ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ ، ونحو ذلك .

ذلك في أمر الدين كما يكون في أمر الدنيا ، وهو أولاها بالحذر ، وصدق الإمام الخطابي فإن غفلة ساعة من المسلمين قد تسبب لهم ضررًا كبيرًا ، وشقاء طويلًا ، وجهادًا طويلًا حتى يزيلوا آثار غفلتهم ، وعدم أخذهم حذرهم ، كما علمنا الله تبارك وتعالى في قوله : ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء : ١٠٢] .

وكما علمنا النبي ﷺ في هذا الحديث وأمثاله ، وفي سيرته التي كلها حذر ، ويقظة وفطنة .

وقد يقول قائل : إن حمل الحديث على أنه خبر محض لا يستقيم ، وكيف وهو يخالفه الواقع لأننا نرى بعض المؤمنين يخدعون مرارًا ؟ والجواب : أنه غاب عن هذا القائل أن المراد المؤمن الكامل العاقل المجرب الفطن ، على ما ذكرت آنفًا ، وأما المؤمن المغفل فقد يلدغ مرارًا من جهة واحدة ، ولا يعتبر ، ولا يتعظ .

وأما على الرواية الثانية ، كسر الغين ، فتكون « لا » ناهية ، وهي وإن كان لا يشهد لها سبب ورود الحديث ، قد وجهها الإمام الطيبي توجيهًا حسنًا فقال : وتوجه بأن يكون ﷺ لما رأى من نفسه الزكية الميل إلى الحلم جرد منها مؤمنًا حازمًا ، فنهاه عن ذلك ، يعني : ليس من شيمة المؤمن الحازم الذي يغضب لله أن ينخدع من الغادر المتمرد فلا يستعمل الحلم في حقه ، بل ينتقم منه ، ومن هذا قول عائشة : « ما انتقم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله ، فينتقم لله بها » . قال : فيستفاد من هذا أن الحلم ليس محمودًا مطلقًا ، كما أن الجود ليس محمودًا مطلقًا .

وقد قال تعالى في وصف الصحابة : ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح : ٢٩] .

وقال الحافظ في الفتح بعد أن ذكر ترجيح هذه الرواية – كسر الغين – على الرواية الأولى – برفع الغين – ويؤيده حديثه : « احترسوا من الناس بسوء الظن » . أخرجه الطبراني

في الأوسط[1] من طريق أنس ، وهو من رواية بقية بالعنعنة عن معاوية بن يحيى وهو ضعيف فله علتان ، وصح من قول مطرف التابعي الكبير[2] ، أقول : ومعنى هذا أنه أثر عن هذا التابعي لا حديث مرفوع إلى النبي .

ما يؤخذ من الحديث من الآداب والتوجيهات :

في الحديث أدب شريف أدب به النبي ﷺ أمته ، ونبههم كيف يحذرون ما يخافون سوء مغبته وعاقبته ، وأن الشأن في المؤمن الفطنة ، والذكاء ، والحذر ، وبعد النظر ، وأن لا يكون مغفلًا ، ولا غرًّا ، ولا مسالمًا مسالمة تضر بمصلحته أو مصلحة الأمة ، وفي معنى هذا الحديث ما روي من قوله ﷺ : « المؤمن كيس فطن حذر »[3] ، أخرجه صاحب مسند الفردوس من حديث أنس ، وسنده ضعيف ، وهو يؤخذ به في مثل هذا لأنه من الفضائل لا من الأحكام ، وأيضًا فإنه يشهد له الحديث الصحيح المتفق عليه .

وروى الديلمي أيضًا عن ابن عباس مرفوعًا : « المؤمن ينظر بنور الله » ، وقد ذكره العجلوني في كتابه (كشف الخفاء) ولم يبين منزلته من الصحة ، أو الحسن ، أو الضعف ، وفي هذا المعنى الأثر الوارد عن سيدنا عمر : « لست بخب ، والخب لا يخدعني » ، وفي سيرة النبي ﷺ وسير أصحابه المؤمنين الصادقين الأذكياء الفطناء ما لا يحصى من المواقف والشواهد التي تثبت هذا المعنى وتؤكده .

وبعد ، فالإسلام دين العقل والفطنة ، واليقظة والحذر ، وما أجدرنا نحن المسلمين والعرب في حاضرنا أن نكون على حذر ، ويقظة لألاعيب الصهاينة ومن وراءهم ، أعداء الله وأعداء الإسلام ، وأن يكون لنا في هذا القول النبوي الحكيم مدكر ، وبذلك نفوت على الأعداء ما يريدون بنا من كيد واعتداء ، ونزيحهم عن أرضنا الطيبة .

* * *

(١) يعني كتابه : « المعجم الأوسط » .

(٢) فتح الباري (ج١٠ ص٤٣٦، ٤٣٧) ، زاد المسلم بشرحه فتح المنعم (ج٦ ص٨٦٠) .

(٣) وفي بعض الروايات للديلمي أيضًا : « المؤمن فطن ، حذر ، وقاف ، مثبت ، لا يعجل ، عالم ، ورع » ، انظر كشف الخفاء ومزيل الإلباس (ج٢ ص٢٩٣) .

(8) يقظة المؤمن وفطنته [٢][1]

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله تعالى عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « لا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ » .

هذا الحديث الشريف حكمة من حكم النبوة المحمدية ، وجامعة من جوامع كلمه صلوات الله وسلامه عليه ، وهو كلام بكر لم يسبق إليه ، بلغ الغاية في إيجاز اللفظ ودقة المعنى ونبالة المغزى ، وروعة التصوير ، ودقة التمثيل ، وهو درس من الدروس المحمدية التي قصد بها النبي ﷺ تربية المؤمن على حصافة العقل وعمق الغور وأصالة الرأي وإحكام التدبير وبعد النظر وتوجيهه إلى ما ينبغي أن يكون عليه المسلم الكامل في دينه ودنياه .

وليس هذا الكلام الحكيم بمستغرب ممن يوحى إليه من ربه وأفاض عليه من الفيوضات الإلهية ما أفاض ، ومنحه الله سبحانه عقلًا كبيرًا وكياسة فائقة ، وسياسة حكيمة رشيدة ، فالنبي ﷺ يوصي كل مؤمن أن يكون حازمًا عاقلًا حذرًا يقظًا ، لا يؤتى من ناحية الغفلة فيخدع مرة بعد أخرى ، سواء أكان ذلك في شئون دينه أم دنياه ، ويحذره أن يكون مغفلًا غرًّا غير مجرب يلعب به الدهاة المجربون ويجعلونه كالريشة المعلقة في الهواء أينما الريح تُمِلْهَا تَمِلْ .

وقد أدب النبي صلوات الله وسلامه عليه أصحابه بهذا الأدب الشريف الحكيم وأخذهم بهذا التوجيه السديد ، فلا تعجب إذا صير من رعاة الإبل والشاء علماء حكماء حلماء ، وأن صَيَّرَ من الأمة العربية – التي كانت متوغلة في البداوة وأبعد ما تكون عن الحضارة – أمة صارت مضرب الأمثال في العلم والعمل والحكمة والفطنة والتحضر والتمدين ، التمدين المبني على دعائم الإيمان والحق والعدل والخير ، وأنجبت رجالًا عقمت الدنيا عن أن تجود بأمثالهم في العلم والسياسة والقيادة والعدل والرحمة .

فالمؤمن الكامل ليس من شأنه– ولا ينبغي له– أن يكون مغفلًا غير مجرب ، يتخذه أعداؤه ضحكة وسخرة ، ويضارونه في دينه أو دنياه ، وفي الحديث الشريف الذي أخرجه صاحب مسند الفردوس عن أنس مرفوعًا : « المؤمن كيس فطن وقاف متثبت » ، والمؤمن

(١) مجلة الأزهر ج٢ مجلد ٢٩.

العاقل هو من اتعظ بأحداث الحياة واستفاد من التجارب .

روي عن الصحابي الجليل معاوية رضي الله عنه أنه كان يقول : (لا حليم إلا ذو عثرة ، ولا حكيم إلا ذو تجربة) . والحديث سيق مساق التمثيل ليكون أروع في النفس وأقوى في التأثير والعظة ، فالعادة جرت في العالم المحسوس أن من لدغته حية من جحر مرة أن لا يعود إلى هذا الجحر ، ولا يدنو منه ، فلا يلدغ منه مرة أخرى ، فما أجدرنا أن نتعظ بذلك ونعتبر في عالم المعقول .

وأما حمل الحديث على معناه الحقيقي فإنما يذهب إليه من لم يتذوق لغة العرب ، ولم يقف على أساليبهم في البيان ، ولا يذهب إلى هذا الفهم إلا من تمكنت منه عجمة اللغة وعجمة التفكير .

ولهذا الحديث قصة تفصح عن الغرض الذي سيق له الحديث النبوي ، ذلك أن أبا عزة عمرو بن عبد الله الجمحي ، وكان شاعرًا فأسر ببدر ، فشكى إلى رسول الله فقره وعياله ، وقال للرسول : لقد عرفت ما لي من مال ، وإني لذو حاجة وذو عيال ، فامنن عليّ . فمن عليه رسول الله ﷺ وأخذ عليه أن لا يظاهر عليه أحدًا ، فمدح الرسول بقصيدة ، ثم لعب المشركون بعقله حتى نقض ما كان عاهد عليه رسول الله ﷺ ، فقد قال له صفوان بن أمية قبيل غزوة أحد : يا أبا عزة ، إنك امرؤ شاعر ، فأعنا بلسانك واخرج معنا . فقال : إن محمدًا قد مَنَّ عليَّ فلا أريد أن أظاهر عليه ، قال : بلى ، فأعنا بنفسك ، فلله إن رجعت أن أغنيك ، وإن قتلت أن أجعل بناتك مع بناتي يصيبهن ما أصابهن من عسر أو يسر ، فخرج أبو عزة يحرض القبائل على قتال رسول الله ﷺ وأصحابه ، فلما كان يوم أحد أسر أيضًا فسأل النبي صلوات الله وسلامه عليه أن يمن عليه مرة أخرى ، فقال له النبي ﷺ : « لا أدعك تمسح عارضيك بمكة تقول خدعت محمدًا مرتين » . ثم أمر به فضربت عنقه ، ثم قال رسول الله : « لا يُلْدَغُ المُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ » ، فذهبت الكلمة مثلًا شرودًا وحكمة صائبة تلهج بها الألسنة على توالي الحقب والأجيال .

أيها المسلمون من كل جنس وفي كل قطر ، لقد استفاد الرعيل الأول من المسلمين بهذا الأدب الحكيم وأخذوا به أنفسهم فلم يتعثروا في أمور دينهم ودنياهم ، وكان الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يقول : (لست بخب ، والخب لا يخدعني) ، ووصفه

واصف فقال : (هو أكبر من أن يَخْدَع ، وأرفع من أن يُخْدَع) .

وكان لهذه التوجيهات النبوية السديدة أثرها البالغ في حياة المسلمين الأولين ، ولكننا- ويا للأسف- لم نستفد بها في حاضرنا ، فلدغنا من الجحر الواحد مرارًا ، وتكالبت علينا الحوادث ، وتوالت النكبات فلم نتعظ بها ، وما كان أجدرنا- معاشر المسلمين- أن نكون ذوي كياسة وفطنة وحذر كما أرشدنا المرشد الأعظم صلوات الله وسلامه عليه ، لا أن نكون أغرارًا مخدوعين ، يتلاعب بنا أعداؤنا ، أعداء الله وأعداء الإسلام .

لقد تداعت علينا قوى الشر والاستذلال والاستخراب قبل الحرب العالمية الأولى ، وأذاقونا الأمرين ، ثم قامت قيامة هذه الحرب فوعدونا الوعود البراقة ومنونا الأماني المعسولة ، ثم لما وضعت الحرب أوزارها تكشفت الوعود عن الخداع والكذب ، وذهبت الأماني أدراج الرياح ، وعادوا إلى سيرتهم الأولى ثم قامت الحرب العالمية الثانية ، فكرروا الوعود ومنونا الأماني ، وانقضت الحرب العالمية الثانية فإذا الوعود والأماني سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا ، وجوزي المسلمون والعرب جزاء سنمار ، وكانت المأساة التي لم يشهد لها التاريخ مثيلًا ، مأساة فلسطين الشهيدة ، فَشُرِدَ أهلها ، وسيموا العذاب ألوانًا ، وأتى الحلفاء- حلفاء الشر- بشذاذ الآفاق - وهم اليهود - فأسكنوهم فيها ، وأغدقوا عليهم من مالهم وسلاحهم وعطفهم الشيء الكثير ، وأضحى سكان البلاد وأهلها الأصليون منبوذين في العراء يفترشون الأرض ويلتحفون السماء ، وأصبح الدخلاء المغتصبون متمتعين بخيرات الأرض المباركة وطيباتها ، ومثلت المسرحية الاستخرابية بأوقح مما كانت في شمال إفريقيا ، وفي أطراف الجزيرة العربية على مرأى ومسمع وبيد أدعياء الحرية والديموقراطية الزائفة ، وتناسوا كل ما طنطنوا به في أيام محنتهم من أن كل شعب حر في تقرير مصيره والحصول على حريته المسلوبة ، وألقوا الحمم والقذائف من طائراتهم ومدافعهم وأساطيلهم على الآمنين المسالمين الذين لا جريرة لهم إلا أنهم يطالبون بحقهم في الحياة الكريمة ، وكان هذا بعض ما جوزي به المسلمون والعرب على مساعدتهم للحلفاء في الحربين الماضيتين ، مساعدة مثمرة باعترافهم ، وصدق الحق تبارك وتعالى حيث يقول في أسلافهم وأمثالهم : ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا

عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ إلى أن قال سبحانه : ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ﴾ [التَّوبة : ٨- ١٠] .

أليس من المؤسف حقًّا أن نرى في يومنا بعض المسلمين والعرب لا يزالون يخدعون بوعود هؤلاء الكذابين والفجرة ، وكلامهم المعسول ، ودجلهم المكشوف ؟ ؟ وينسون أو يتناسون لدغاتهم القاتلة المميتة !!

يا أيها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها : هذا كتاب الله بين أيديكم يكشف لكم عن خبيئة نفوس أعدائكم ، فإلى متى ستسيرون في ركابهم وقد لاح الصبح لذي عينين ؟ وهذه سنة نبيكم ترشدكم إلى الفطنة لهم والحذر من ألاعيبهم ، فإلى متى تخدعون بظاهرهم وقد بدت البغضاء من أفواههم ، وتمثلت في فعالهم ، وما تخفي صدورهم أشنع وأكبر ، بحسبكم أن تتضعوا نصب أعينكم قول الحق تبارك وتعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ [النِّساء : ١٤٤] ، وقول المرشد الأعظم صلوات الله وسلامه عليه : « لا يُلْدَغُ المُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ » .

* * *

[٧] الجهاد طريق العز والتمكين

(1) فضل الجهاد في الإسلام[١]

روى الشيخان في صحيحيهما عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ– واللفظ لمسلم– قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « تَضَمَّنَ اللهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ لا يُخْرِجُهُ إلا جِهَادًا فِي سَبِيلي ، وَإِيمَانًا بِي ، وَتَصْدِيقًا بِرُسُلي فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الجَنَّةَ أَوْ أَرْجِعَهُ إِلى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا مِنْ كَلْمٍ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ اللهِ إِلا جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ حِينَ كُلِمَ لَوْنُهُ لَوْنُ الدَمِ ، وَرِيحُهُ مِسْكٌ ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلا أَنْ أَشُقَّ عَلَى المُسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ خِلافَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللهِ أَبَدًا ، وَلَكِنْ لا أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلَهُمْ ، وَلا يجِدُونَ سَعَةً ، وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُواْ عَني ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَن أَغْزُو فِي سَبِيلِ اللهِ فَأُقْتَلُ ، ثمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ ، ثمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ » .

تخريج الحديث :

روى البخاري الحديث مفرقًا في صحيحه ، فرواه في كتاب الإيمان ، وفي كتاب الجهاد ، وفي كتاب فرض الخمس ، إلى قوله : « أو غنيمة » ، وأخرج آخره من رواية أخرى لأبي هريرة (كتاب الجهاد– باب تمن الشهادة) ، ورواه مسلم في صحيحه بهذا السياق التام في باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله من كتاب الجهاد والسير .

الشرح والبيان :

(أبو هريرة) هو الصحابي الجليل عبد الرحمن بن صخر– على الأصح– الدوسي ، أسلم سنة سبع عقب خيبر ، وقد كان أشد الصحابة ملازمة لرسول الله ﷺ ، يتبعه على ما يقيم صلبه ، ولم يشتغل بزراعة ، ولا بتجارة ، فمن ثم سمع ما لم يسمع غيره ، وحضر ما لم يحضر غيره ، فلا عجب أن كان من أكثر الصحابة رواية عن النبي ﷺ ، وقد ساعده على ذلك تفرغه للعلم والرواية وقلة اشتغاله بالإمارة ، وتأخر وفاته مما أتاح له تبليغ أكبر قدر من

(١) مجلة الأزهر – الجزء السابع – السنة ٤١.

الأحاديث التي سمعها من رسول الله ، أو ممن سمعها منه ، هذا إلى دعاء رسول الله ﷺ له بالحفظ وعدم النسيان كما ثبت في الصحيح ، وقد روى عن النبي وعن بعض الصحابة ، وروى عنه الكثيرون من الصحابة والتابعين ، حتى قال البخاري : روى عنه نحو من ثمانمائة رجل أو أكثر ، وكان ابن عمر يترحم عليه في جنازته ويقول : كان يحفظ على المسلمين حديث النبي ، رواه ابن سعد ، وقال الإمام الشافعي : أبو هريرة أحفظ من روى الحديث في دهره .

وقد تعرض هذا الصحابي لسهام النقد الطائشة قديمًا – من الزنادقة وأرقاء الدين – وحديثًا – من المستشرقين وأبواقهم – وقد قيض الله سبحانه وتعالى من العلماء العارفين بأقدار الصحابة من دافع عنه ، ورد كيد الطاعنين في نحرهم ، فرضي الله عنه وأرضاه .

« تَضَمَّنَ اللهُ لِمَنْ خَرَجَ في سَبِيلِهِ » .

وفي رواية لمسلم أخرى بلفظ : « تكفل الله » ، وفي رواية للبخاري : « انتدب الله » ، وفي رواية أخرى له : « توكل » ، وكلها بمعنى ، أي : تكفل بذلك وضمن ، وقيل : انتدب بمعنى أجاب ، وقيل : بمعنى سارع بثوابه وحسن ثوابه ، والمعنى متقارب ، والمراد تحقيق الوعد الذي ذكره الله في قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ﴾ [التوبة : ١١١] . وقد عبر النبي ﷺ عن تفضل الله بالثواب بلفظ الضمان ونحوه على طريقة العرب في الخطاب ، كي يكونوا على درجة من اليقين والاطمئنان . « لِمَنْ خَرَجَ في سَبِيلِهِ » ، أي : لمن خرج مجاهدًا ، فإن سبيل الله إذا أطلق ينصرف إلى الجهاد الذي هو من أعظم فروض الإسلام .

« لا يُخْرِجُهُ إلا جِهَادًا في سَبِيلي ، وَإِيمَانًا بي ، وَتَصْدِيقًا بِرُسُلي » .

قد جاءت جميع الروايات في نسخ صحيح مسلم على النصب ، وخرجه الإمام النووي – رحمه الله – على أنه منصوب على المفعول لأجله ، وتقديره : لا يخرجه المخرج ويحركه المحرك إلا للجهاد ، والإيمان ، والتصديق ، وفي بعض روايات مسلم قال : « تَكَفَّلَ اللهُ لِمَنْ جَاهَدَ في سَبِيلِهِ لا يُخْرِجُهُ مِنْ بَيْتِهِ إلا جِهَادٌ في سَبِيلِهِ وَتَصْدِيقُ كَلِمَتِهِ » .

وكذلك جاءت رواية البخاري بالرفع : « لا يُخْرِجُهُ إلا إِيمَان بي ، وَتَصْدِيقٌ بِرُسُلي » .

وتوجيهها ظاهر ، فهي فاعل على أن الاستثناء مفرغ ، وفي قوله : « إِيمَان بِي » التفات من الغيبة إلى الخطاب ، وهو أسلوب من الأساليب العربية تنبه الذهن ، وتوقظ الفكر ، ويجوز أن يكون مقولًا لقول محذوف على أنه حال ، أي قائلًا : لا يخرجه إلا إيمان بي .

ومعنى الفقرات الثلاث أنه لا يحمله على الخروج في الجهاد إلا إعلاء كلمة الله وكلمة الحق ، والدفاع عن دينه ، وإلا الإيمان بالله وصفاته ، وأن وعده بالجنة حق لا يتخلف ، والتصديق برسل الله بما جاءوا به من الوعد على الجهاد والاستشهاد في سبيله ، والوعيد على النكوص والقعود عن الجهاد ، وماضربوه من مثل عليا في باب الجهاد والاستشهاد .

« فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الجَنَّةَ أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ » .

« أرجعه » بفتح الهمزة وسكون الراء وكسر الجيم : مضارع رجع ، وهو منصوب عطفًا على أدخله ، ورجع يتعدى بنفسه في اللغة الفصحى ، وعلى هذا جاء أفصح الكلام قال تعالى : ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ...﴾ [التوبة: ٨٣] . وهذيل تعديه بالألف ، وقد جاء الحديث على اللغة الغالبة الفصحى ، وقد أكد الوعد بالجنة بقوله أيضًا : « عَلَيَّ » ، و« ضَامِنٌ » ، وضامن بمعنى مضمون ، كدافق بمعنى مدفوق .

والمجاهد في سبيل الله لا يخلو حاله من أمور ثلاثة : إما أن يستشهد في سبيل الله ، وهذا أعلى الدرجات وأسماها ، وقد تكفل الله للشهيد بالجنة ، وإما ألا يستشهد ، وهو بين أمرين : إما أن يرجع بأجر عظيم من غير غنيمة ، وأما أن يرجع بغنيمة ومعها أجر إلا أنه أقل من أجر من لم يغنم ، وقد استوفى الحديث الأحوال الثلاثة ، وهي كلها خير وفوز وغنم ، فالمجاهد أيًا كان حاله فقد حظي بالحسنى ، ولقد لقن الله سبحانه عباده المجاهدين أن يقولوا للكافرين هذا القول : ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٢] . وهما إما الموت والشهادة في سبيل الله ، وإما النصر والغلب ، وقد يكون النصر معه غنيمة ، وقد لا يكون ، ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ [التوبة: ٥٢] . فالكفار إن انتصروا في الدنيا فلن يفلتوا من عذاب الله ، وإن انهزموا فقد عذبوا بأيدي المؤمنين المجاهدين عذابًا عاجلًا ، وادخر لهم العذاب الآجل يوم القيامة ، فكلا حاليهم غرم وخسر ، و(أو) في قوله : « أَوْ غَنِيمَةٍ » للتنويع على ما شرحنا ،

أي : مع أجر خالص إن لم يغنم شيئًا ، أو مع غنيمة معها أجر ، وكأنه سكت عن الأجر الثاني الذي مع الغنيمة لنقصه بالنسبة إلى الأجر الذي بلا غنيمة ، وقيل : (أو) بمعنى الواو ، والأول هو الأحسن في فهم الحديث ، ومما هو مقرر في الإسلام أن أجر من لم يغنم أعظم بكثير من أجر من غنم ، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرو بن العاص عن النبي اللهِ ﷺ قَالَ : « مَا مِنْ غَازِيَةٍ تَغْزُو في سَبِيلِ اللهِ فَيُصِيبُونَ الغَنِيمَةَ إلا تَعَجَّلُواْ ثُلُثَيْ أَجْرِهِمْ مِنَ الآخِرَةِ ، وَيَبْقَى لَهُمُ الثُّلُثُ ، وَإِنْ لَمْ يُصِيبُواْ غَنِيمَةً تَمَّ لهُمْ أَجْرُهُمْ » . وهذا يدل على أن الجهاد الغرض منه إعلاء كلمة الله ، ونشر الدين الحق : دين الإسلام .

وبحسبنا هذا الحديث في الرد على أعداء الإسلام الذين تجنوا على الحقيقة وعلى التاريخ حينما زعموا- فيما كتبوا وألفوا- أن الحامل للمسلمين الأوائل على الفتوحات السلب والنهب ، وإشباع بطونهم الجائعة ، وهذا الحديث يعتبر شجًا في حلوقهم ، وليس هنا مقام الرد على هذا التجني الأثيم .

« وَالَّذِي نَفْسُ محَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا مِنْ كَلْمٍ يُكْلَمُ في سَبِيلِ اللهِ إلا جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ حِينَ كُلِمَ اللون لَوْنُ دَمٍ والريح ريح مِسْكٌ » . وفي رواية للبخاري : « وَالَّذِي نَفْسي بِيَدِهِ » ، والمعنى واحد ، والمقسم به الله تبارك وتعالى .

الكلم : بفتح الكاف وسكون اللام : الجرح ، ويكلم يعني يجرح ، وفي بعض الروايات في البخاري ومسلم زيادة « وَاللهُ أَعْلَمُ بمَنْ يُكْلَمُ في سَبِيلِهِ » ، وهي جملة معترضة قصد بها التنبيه على أن الإخلاص لله شرط في نيل هذا الثواب ، وقد اشتمل هذا الحديث على فضيلة ومنقبة للشهداء ، حيث يأتون يوم القيامة على هذه السمة المشرفة ، والحكمة في مجيء الشهيد يوم القيامة على هذه الهيئة أن يكون معه شاهد صادق على فضله ، وتضحيته وبذله نفسه في طاعة الله عز وجل ، وأي شاهد أصدق من الدماء ؟

وفي بعض الروايات : « وَالعَرْفُ عَرْفُ المِسْكِ » ، والعرف - بفتح العين وسكون الراء - الريح فالروايتان بمعنى واحد .

« وَالَّذِي نَفْسُ محَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلا أَنْ يَشُقَّ عَلَى المُسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ خِلافَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو في سَبِيلِ اللهِ » .

وفي بعض الروايات : « لَوْلا أَنْ أَشُقَّ عَلَى المُسْلِمِينَ » ، وخلاف أي : خلف ، يعني :

لم يخرج معهم ، والسرية : القطعة من الجيش ، وقد بين النبي ﷺ المشقة المذكورة بقوله : « وَلَكِنْ لا أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلَهُمْ وَلا يجِدُونَ سَعَةً من ظهر ونفقة فيشق عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَني » ، وقد دل الحديث على ما كان عليه ﷺ من الشفقة والرحمة بالمسلمين ، والرفق بهم ، حتى لقد كان يترك بعض ما يحب رفقًا بهم ، وقد بلغ حب الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمته أن جاء نفر من المسلمين في غزوة تبوك ليوفر لهم الظهر والنفقة ، وكان الوقت وقت جهد ومشقة فاعتذر لهم النبي ﷺ ، فما كان منهم إلا أن تولوا وقلوبهم تتفطر أسى ، وعيونهم تفيض من الدمع حزنًا على ما فاتهم من شرف الجهاد ، وحب الاستشهاد ، وقد سجل الله لهم هذا الموقف الكريم في قوله : ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٩١ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة : ٩١- ٩٢] .

ثم بين النبي ﷺ منزلة المجاهدين المستشهدين في سبيل الله فقال : « وَالَّذِي نَفْسُ محَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَن أَغْزُو في سَبِيلِ اللهِ فَأُقْتَلُ ثمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ ثمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ » . فانظر أيها القارئ كيف أكد ذلك الشيء المحبوب له بالقسم ، ثم بالتكرار ثلاثًا ، ثم بتمني الشهادة لنفسه مع أنه ﷺ كان يعلم أنه معصوم من الناس لقوله سبحانه : ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ [المائدة : ٦٧] . وهذه غاية المبالغة في بيان فضل الجهاد والاستشهاد في سبيل الله ، وتحريض المسلمين عليهما ، فمن ذا الذي ينكص عن الجهاد بعد هذا البيان ؟ !

وبعد ، فقد أسرف أعداء الله وأعداء الإسلام اليهود الصهاينة في سفك الدماء ، وانتهاك الأعراض ، واغتصاب الأموال ، والاستهتار بالقيم الدينية والخلقية ، ودنسوا الأماكن المقدسة بالقدس ، وحرقوا المسجد الأقصى ، أولى القبلتين ، وثالث المسجدين ، وبذلك حق الجهاد ، وحق الفداء والتضحية ، وأصبح الجهاد أمرًا مشروعًا مفروضًا ، ونحن معاشر المسلمين لا نشكو من قلة في الرجال ، ولا في السلاح ، ولا في الموارد ، وإنما ينقصنا جمع الكلمة وأن نعزم الأمر ، ومتى يجيء ذلك اليوم الذي نرى فيه كتائب المسلمين يسيل بها البر والبحر والجو لتعيد الأرض المغتصبة إلى أهلها ، وتعيد بيت المقدس إلى أهله ؟ إنا لنرجو أن يكون ذلك اليوم قريبًا إن شاء الله .

(2) من صور الجهاد والاستشهاد في الإسلام[1]

روى الشيخان في صحيحيهما بسندهما عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عنهُ – واللفظ لمسلم – قَالَ : جَاءَ نَاسٌ إِلى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُواْ : أَنِ ابْعَثْ مَعَنَا رِجَالًا يُعَلِّمُونَا القُرْآنَ وَالسُّنَّةَ ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ سَبْعِينَ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُمُ القُرَّاءُ– فِيهِمْ خَالي حَرَامٌ– يَقْرَءُونَ القُرْآنَ وَيَتَدَارَسُونَه بِاللَّيْلِ يَتَعَلَّمُونَ ، وَكَانُواْ بِالنَّهَارِ يجِيئُونَ بِالمَاءِ ، فَيَضَعُونَهُ في المَسْجِدِ وَيحْتَطِبُونَ فَيَبِيعُونَهُ ، وَيَشْتَرُونَ بِهِ الطَّعَامَ لأَهْلِ الصُّفَّةِ وَلِلْفُقَرَاءِ ، فَبَعَثَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ فَعَرَضُواْ لَهُمْ فَقَتَلُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغُواْ المَكَانَ ، فَقَالُواْ : اللَّهُمَّ بَلِّغْ عَنَّا نَبِيَّنَا أَنَّا قَدْ لَقِينَاكَ فَرَضِينَا عَنْكَ وَرَضِيتَ عَنَّا ، قَالَ : وَأَتَى رَجُلٌ حَرَامًا خَالَ أَنَسٍ مِنْ خَلْفِهِ ، فَطَعَنَهُ بِرُمْحٍ حَتى أَنْفَذَهُ ، فَقَالَ حَرَامٌ : فُزْتُ وَرَبِّ الكَعْبَةِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لأَصْحَابِهِ : « إِنَّ إِخْوَانَكُمْ قَدْ قُتِلُواْ وَإِنَّهُمْ قَالُواْ اللَّهُمَّ بَلِّغْ عَنَّا نَبِيَّنَا أَنَّا قَدْ لَقِينَاكَ فَرَضِينَا عَنْكَ وَرَضِيتَ عَنَّا » .

تخريج الحديث :

روى هذا الحديث الإمام البخاري في صحيحه مطولًا ومجملًا في مواضع من كتابه ، ورواه الإمام مسلم[٢] .

الشرح والبيان :

(جَاءَ نَاسٌ إِلى النَّبِيِّ ﷺ) .

بينت رواية للبخاري هذا الإبهام في لفظ الناس ، فقد روى قتادة عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رعلا[٣] وذكوان وعصية من بني سليم استمدوا رسول الله ﷺ على عدو لهم ، وفي رواية أخرى أنهم زعموا أنهم أسلموا ، واستمدوا على قومهم ، وكانت تلك خديعة قصدوا بها الإيقاع بهؤلاء المسلمين ، والذي ذكره ابن إسحاق في السيرة أن استمدادهم لهم لم يكن لقتال عدو ، وإنما هو للدعاء للإسلام ، قال : قدم أبو براء عامر بن مالك المعروف بملاعب الأسنة ، وهو من رؤوس بني عامر ، فدعاه رسول الله ﷺ إلى

(١) مجلة الأزهر – ج٨ – السنة ٤٥.

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الجهاد ، باب دعاء النبي على من نكث عهدًا ، وكتاب المغازي ، باب غزوة الرجيع ، ورعل ، وذكوان ، وبئر معونة ، وصحيح مسلم ، كتاب الجهاد ، باب ثبوت الجنة للشهيد.

(٣) رعل : بكسر الراء وسكون العين ، وذكوان : بفتح الذال ، وعصية : بضم العين وهي قبائل من بني سليم .

الإسلام ، فلم يسلم ، ولم يبعد ، وقال : يا محمد ، لو بعثت رجالًا من أصحابك إلى أهل نجد رجوت أن يستجيبوا لك ، فقال رسول الله ﷺ : « إني أخشى عليهم أهل نجد » ، فقال أبو براء : أنا جار لهم ، فبعث المنذر بن عمرو في أربعين رجلًا منهم : الحارث بن الصمة ، وحرام بن ملحان ، ورافع بن بديل بن ورقاء ، وعروة بن أسماء ، وعامر ابن فهيرة ، وغيرهم من خيار المسلمين ، فساروا حتى نزلوا (بئر معونة)[١] ، فبعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطفيل ، فلما أتاه لم ينظر في الكتاب ، ثم استصرخ[٢] عليهم بني عامر فأبوا ، وقالوا : لن نخفر[٣] أبا براء ، وقد عقد لهم عقدًا وجوارًا ، فاستصرخ عليهم قبائل من بني سليم : رعلا ، وذكوان ، وعصية ، فأجابوه فخرجوا حتى غشوا القوم ، فأحاطوا بهم في رحالهم فقال لهم المسلمون : والله ما إياكم أردنا ، وإنما نحن مجتازون في حاجة للنبي ﷺ ، فأبوا عليهم ، فقاتلوهم حتى استشهدوا جميعًا إلا كعب بن زيد ، فإنهم تركوه بين القتلى وبه رمق ، فلما أفاق تحامل على نفسه وقفل راجعًا ، وعاش حتى قتل يوم الخندق شهيدًا ، وإلا عمرو بن أمية الضمري ، والمنذر بن محمد بن عقبة فقد كانا في سرح القوم[٤] ، فلم ينبئهما بمصاب أصحابهما إلا الطير تحوم حول العسكر ، فقالا : والله إن لهذا الطير لشأنًا !! ، فأقبلا لينظرا ، فإذا القوم في دمائهم ، وإذا الخيل التي أصابتهم واقفة ، فقال المنذر لعمرو : ما ترى ؟ ! ، فقال : أرى أن نلحق برسول الله ﷺ فنخبره الخبر ، فقال المنذر ابن محمد : لكني لا أرغب بنفسي عن موطن قتل فيه المنذر بن عمرو ، وما كنت لأخبر عنه الرجال !! ، وقاتل القوم حتى قتل رضي الله عنه شهيد البطولة والوفاء !!

وأخذوا عمرو بن أمية أسيرًا ، فلما أخبرهم أنه من مضر أطلقه عامر بن الطفيل بعد أن جز ناصيته وأعتقه عن رقبة كانت عن أمه فيما زعم ، فخرج عمرو بن أمية قاصدًا المدينة ، فلقي رجلين من بني عامر وكان معهما عهد من الرسول ، وهو لا يعلم ، فأمهلهما حتى ناما

---

(١) اسم موضع من بلاد هذيل بين مكة وعسفان .

(٢) استنفرهم عليهم .

(٣) بضم النون : لن ننقض عهده ، وأما خَفَر – الثلاثي – بمعنى وفى بالعهد .

(٤) الإبل في المرعى .

فقتلهما ، وهو يرى أنه أصاب بذلك ثأرًا من بني عامر الذين غدروا بالسرية ، فلما قدم عمرو وأخبر الرسول بقصتهما قال : « لقد قتلت قتيلين لأدينهما » ، لأنه قتلهما خطأً ، ثم قال : « هذا عمل أبي براء ، قد كنت لهذا كارهًا متخوفًا » !! ، فبلغ ذلك أبا براء ، فشق عليه إخفار ابن أخيه عامر إياه ، فذهب ابنه ربيعة إلى عامر بن الطفيل فطعنه بالرمح انتقامًا منه على فعلته النكراء ، فجرح ولكنه لم يمت .

ولم يقف أمر هذا الخبيث الغادر عامر عند هذا الغدر ، فقد وفد على النبي ﷺ قاصدًا الغدر به فمنعه الله منه ، وقد دعا عليه النبي قائلًا : « اللهم اكفني عامرًا » ، فأصابه الله بغدة[1] في بيت امرأة من بني سلول ، فكان يقول متحسرًا : غدة كغدة البعير ، في بيت امرأة من بني سلول !! ثم ركب فرسه فمات على ظهره بالعراء ، تطعم منه الطيور والسباع ، وهذه عاقبة من يحاد الله ورسوله ، ويحارب دينه ، ولا منافاة بين ما ذكر في الصحيح وما ذكره ابن إسحاق شيخ كتاب السيرة لجواز أن يكون البعض قد استمدوا رسول الله على عدوهم مخلصين أو مخادعين ، وأبو براء استمد رسول الله بمن يدعو قومه إلى الإسلام غير مخادع ، فأرسل رسول الله ﷺ هذه السرية المؤمنة المجاهدة لهؤلاء وأولئك ، فغدر بهم عامر .

(فَقَالُواْ : أَنِ ابْعَثْ مَعَنَا رِجَالًا يُعَلِّمُونَا القُرْآنَ وَالسُّنَّةَ) .

هذا يدل على أنهم كانوا مسلمين ، أو أنهم على الأقل تظاهروا بالإسلام ، وهو غير ما ذكره ابن إسحاق من الدعوى إلى الإسلام لأنه يدل بظاهره أنهم لم يكونوا مسلمين ، وفي رواية البخاري أنهم استمدوا على عدوهم ، ولن يمدهم الرسول إلا إذا كانوا مسلمين ، أو كان بينه وبينهم عهد ، وهو قريب مما ذكره مسلم ، وتعدد السبب لدعوتهم يدل على تعدد القصة ، وأن الذين طلبوا ذلك من رسول الله كانوا طوائف كما قدمنا .

(فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ سَبْعِينَ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُمُ القُرَّاءُ) .

في سيرة ابن إسحاق : أربعين ، وفي رواية البخاري في كتاب الجهاد أربعين أو سبعين بالشك ، وفي رواية مسلم ومعظم روايات البخاري أنهم كانوا سبعين بالقطع ، وهو

(١) داء يصيب الإبل وهو طاعونها .

الصحيح الذي جاءت به معظم الروايات ، والقراء جمع قارئ ، والمراد بهم قراء القرآن الكريم ، وكانوا يجمعون إلى الحفظ الفهم ، والفقاهة ، والعمل بما يحفظون ، فالقارئ في الصدر الأول كان يوافق لفظ العالم الحافظ لكتاب الله تعالى ، وقد ورد في صفتهم أنهم كانوا يقرءون القرآن ويتدارسونه بالليل ، ويتعلمون ما فيه من علم ، وفقه ، وتشريع ، وآداب ، وأخلاق ، ومواعظ ، وزواجر ، وهذا يؤيد ما ذكرته في معنى القارئ ، وهكذا كانوا يحيون ليلهم .

ثم هم إلى ذلك جمعوا بين الدين والدنيا ، وبين العبادة والتكسب ، فهم يأتون بالماء إلى المسجد ، ويحتطبون بالنهار ، ويبيعونه ويطعمون به أهل الصُّفَّة وهم أضياف الله ، وأضياف الإسلام- كما ورد في صحيح البخاري- لا يأوون إلى أهل ولا إلى مال ، والصُّفَّة : هي مكان كان مظللًا بمسجد الرسول ﷺ يأوي إليه الفقير والمحتاج ، ومن لا دار له ، ولا أهل ، فيجد الطعام والشراب ، والمقيل ، والمبيت ، وهكذا ينبغي أن يكون المسلم ، فلا هو ينقطع إلى العبادة ، ويدع التكسب والارتزاق ، ولا هو ينكب على الدنيا ، ويدع العبادة والقيام وقراءة القرآن .

(فَبَعَثَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَتَلُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغُواْ المَكَانَ) .

قد فصلت ذلك فيما سبق ، وبينت ما كان من تخوف رسول الله عليهم أن يغدر بهم ، ولولا ما كان من جوار أبي براء لهم لما أرسلهم ، وقد بينت من غدر بهم وهو عامر بن الطفيل ، وقبائل من بني سليم ، وقد جازاه الله على غدره ، وقتل عامر شر قتلة .

(فَقَالُواْ : اللَّهُمَّ بَلِّغْ عَنَّا نَبِيَّنَا أَنَّا قَدْ لَقِينَاكَ فَرَضِينَا عَنْكَ وَرَضِيتَ عَنَّا) .

وروى البخاري في صحيحه أن النبي ﷺ لما نعى القراء قال : « إِنَّ أَصْحَابَكُمْ قَدْ أُصِيبُواْ وَإِنَّهُمْ سَأَلُواْ رَبَّهُمْ ، فَقَالُواْ رَبَّنَا أَخْبِرْ عَنَّا إِخْوَانَنَا بِمَا رَضِينَا عَنْكَ وَرَضِيتَ عَنَّا ، فَأَخْبَرَهُمْ عَنْهُمْ » ، فأنزل الله فيهم قرآنا كان يتلى : (بلغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا) ، ثم نُسخ بعد .

وهذا يدل على كرامتهم عند ربهم ، وأن الله قد استجاب دعاءهم ، فالروايتان يكمل بعضها البعض الآخر ، وقد دل قوله : (ثم نسخ بعد) على أن هذا كان قرآنًا ثم نسخ ، أي :

لفظه وتلاوته ، وإن بقي معناه كما تدل على ذلك النصوص المتكاثرة من القرآن والأحاديث على منزلة الشهداء عند ربهم .

ومعنى رضا الله تعالى عنهم إفاضته الخير ، والإحسان ، والرحمة عليهم ، فيكون من صفات الأفعال ، ويجوز أن يكون بمعنى إرادة الله تعالى ذلك ، فيكون من صفات الذات .

ومعنى رضاهم عن ربهم أي : رضاهم بما أكرمهم به من الثواب العظيم ، والمنزلة الرفيعة ، وبما أعطاهم من الخير الذي لاينقطع ، ولا يفنى ، ولا يزول .

وكان وصول خبر سرية الرجيع وسرية بئر معونة في يوم واحد ، فحزن النبي ﷺ والمسلمون حزنًا شديدًا عليهم لم يخفف منه إلا أنهم شهداء عند ربهم يرزقون : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران : ١٦٩- ١٧١] .

وقد بلغ من حزن الرسول عليه الصلاة والسلام على هؤلاء السادة الأخيار الشهداء أنه مكث شهرًا يدعو في صلاة الصبح على رعل ، وذكوان ، وعصية الذين غدروا بالقراء .

(قَالَ : وَأَتَى رَجُلٌ حَرَامًا خَالَ أَنَسٍ مِنْ خَلْفِهِ ، فَطَعَنَهُ بِرُمْحٍ حَتى أَنْفَذَهُ ، فَقَالَ حَرَامٌ : فُزْتُ وَرَبِّ الكَعْبَةِ) .

حرام : هو حرام بن ملحان خال أنس بن مالك ، لأنه أخو أم سليم والدة أنس رضي الله عنه ، فقد كان حامل كتاب رسول الله إلى الطاغية عامر بن الطفيل ، فلما أتاه لم ينظر في الكتاب ، وأوعز إلى رجل من قومه فضربه غدرًا بالرمح من خلفه حتى أنفذه ، يعني ضربه ضربة نفذت إلى قلبه فمات ، وكان مع حرام رجلان ، وهما كعب بن زيد النجاري ، والمنذر بن محمد بن عقبة بن أحيحة بن الجلاح الخزرجي ، فقال لهما : كونا قريبًا حتى آتيهم ، فأن آمنوني كنتم قريبًا مني ، وإن قتلوني أتيتم أصحابكم .

وهكذا نجد (حرامًا) ضرب أروع مثل في حب الشهادة ، لم يبك لما أصابه ، ولم يجزع ، ولم يتأوه- وحق له أن يتأوه- ولكن الرجل مات ميتة الأبطال ، وسقط وهو ينطق

بكلمة المؤمنين الأخيار : (فُزْتُ وَرَبِّ الكَعْبَةِ) ، نعم والله إنه الفوز العظيم ، والفوز بالجنة ونعيمها .

وروى الواقدي أن قاتله – وهو جبار بن سلمى – عجب مما حدث ، ووقف مبهورًا بما سمع ؛ فقال ما معنى قوله : (فزت ...) ؟!! مع أن الرجل قد قضى نحبه ، وأصيبت مقاتله بالطعنة فقالوا له : يعني بالجنة !! فقال : صدق والله .

والفَضْلُ ما شَهِدَتْ بِهِ الأَعْدَاءُ :

وقد كان لهذه الكلمة المؤمنة أثرها البالغ في نفس جبار ، فبقيت في نفسه لا تبرح سمعه وقلبه ، وتملكت عليه حسه ومشاعره حتى هداه الله إلى الإيمان ، وتشرف بالإسلام .

وبعد ، فيا قومي العرب والمسلمين ، ويا أبناء هؤلاء الأبطال المغاوير ، وهؤلاء الآباء العظام الأماجد ، هذه صفحة مشرقة نيرة من صفحات حب الجهاد والاستشهاد في سبيل الله ، وفي سبيل الدعوة إلى الإسلام ، وصورة من صور البطولة في الإسلام ، أذكر بها قومي المسلمين والعرب ليعلموا أن الإسلام لم يقم على الراحة والدعة والجبن والضعف والخور ، وإنما قام على الكفاح والتضحية ، التضحية بالنفس التي هي أعز شيء على الإنسان في سبيل الدين ، وفي سبيل العزة ، والكرامة ، والحياة الحرة التي لا ذلة فيها ، ولا استخذاء ولا مهانة .

إن هذه وسيلة من وسائل النصر على الأعداء ، وتحرير البلاد والعباد من ظلم العدو الغاشم المستبد ، وتلقينه درسًا لا ينساه ، ليعلم أنكم من سلالة هؤلاء الأبطال : أبطال سرية القراء ، فهل أنتم فاعلون ؟!

❊ ❊ ❊

(3) وجوب النفير إلى الجهاد إذا ما دعا الإمام[1]

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما بسندهما عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يوم الفتح : « لا هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْحِ ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ ، وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُواْ » . واللفظ للبخاري ، وفي رواية مسلم : « يَوْمَ الفَتْحِ : فتح مكة » .

تخريج الحديث :

روى هذا الحديث مختصرًا هكذا الإمام البخاري في كتاب الجهاد - باب (فضل الجهاد ، والسير) ، وباب : (وجوب النفير وما يجب من الجهاد والنية) ، وباب (لا هجرة بعد الفتح) ، ورواه الإمام مسلم في كتاب الجهاد- باب : (المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد) ، مختصرًا أيضًا عن ابن عباس من طرق سبعة ، ورواه عن السيدة عائشة بإسناد واحد بلفظ : (سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ الهِجْرَةِ فَقَالَ : « لا هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْحِ ...» ، وروياه مطولًا في غير هذه المواضع ، وأخرج الحديث أيضًا : أبو داود في الحج ، وفي الجهاد منقطعًا ، وأخرجه الترمذي في السير من سننه ، وأخرجه النسائي في السير ، وفي البيعة ، وفي الحج .

الشرح والبيان :

من هو راوي الحديث ؟

هو عبد الله بن العباس ، ابن عم النبي ﷺ ، ولد قبل الهجرة بثلاث سنين ، أخذ عن النبي ، وعن كبار الصحابة ، وهو من المكثرين من الرواية ، وقد دعا له النبي فقال : « اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ في الدِّينِ ، وعَلِّمَهُ التأويل » . فصار حبر القرآن وترجمانه ، توفي بالطائف سنة ثمان وستين للهجرة .

« لا هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْحِ » .

المراد بالفتح فتح مكة كما بينته رواية مسلم الآنفة ، وفي بعض روايات البخاري قال : « يوم فتح مكة » ، فالألف واللام للعهد الذهني .

الهجرة : في اللغة معناها الترك والمفارقة ، قال في المصباح المنير : الهجرة مفارقة بلد

---

(١) مجلة الأزهر - المحرم ١٣٩٢هـ - فبراير ١٩٧٢م .

إلى غيره ، فإن كانت قربة لله فهي الهجرة الشرعية ، وهي اسم من هاجر مهاجرة ، وهذه مهاجره على صيغة اسم المفعول ، يعني بضم الميم ، وهاء بعدها ألف ، وفتح الجيم ، آخره ضمير ، أي موضع هجرته .

وفي الشرع : الانتقال من مكة إلى المدينة فرارًا بالدين ، وطلبًا لمرضاة الله سبحانه وتعالى ونصرة لرسوله ﷺ .

وقد كانت الهجرة من مكة إلى المدينة قبل فتح مكة واجبة على كل مسلم ، غير معذور ، والحكمة في ذلك .

١- أن يسلم المسلمون من أذى المشركين ، فقد كانوا يبالغون في إيذائهم كي يفتنوهم عن دينهم ، فجعل الله لهم فرجًا ومخرجًا من الاعتداء والفتنة ، وذلك بالهجرة .

٢- نصرة النبي ﷺ ومؤازرته في الدعوة التي كلفه الله بها .

٣- تكثير سواد المسلمين وجمع شملهم ، وتقوية صفوفهم ليتمكنوا من هذه النصرة والمؤازرة .

أما بعد الفتح فلم تعد الهجرة من مكة إلى المدينة واجبة ، لأنها صارت دار إسلام ، وقد تضمن هذا الحديث معجزة لرسول الله ﷺ حيث أخبر أن مكة ستستمر دار إسلام ، وقد وقع الأمر على ما أخبر به ﷺ ، وستستمر دار إسلام إن شاء الله تعالى .

وقيل : معنى الحديث : « لا هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْحِ » يكون فضلها كفضلها قبل الفتح ، فهو مثل قوله تعالى : ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد : ١٠] .

والراجح هو الأول ، وأن المنفي هو الوجوب .

وأما الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام فهي باقية إلى يوم القيامة ، فإن كان المسلم- ومثله المسلمة- لا يمكنه إقامة دينه ولا إظهار شعائره فالهجرة في حقه واجبة ، وأما من يتمكن من إظهار دينه وإقامة معالم الشريعة في دار الكفر فلا تجب الهجرة في حقه ، ولكن تستحب لتكثير سواد المسلمين ، ومعونتهم ، والاشتغال بما ينفعهم ، وليتخلص من الألم النفسي بمعاشرتهم ، أو رؤية المنكرات بينهم ، مع عدم التمكن من التغيير ، فإن كان في الإقامة في دار الكفر تبليغ دعوة الإسلام والمنافحة عنه والتعريف بمحاسنه وفضائله ؛

فالأفضل في حقه الإقامة رجاء أن يدخل بدعوته أحد في الإسلام ، وأما من لا يمكنه إظهار دينه في بلاد الكفر ، ولا يتمكن من الهجرة لمرض ، أو إكراه على الإقامة فهو معذور لا إثم عليه ، وعليه أن يؤدي فرائض دينه في الخفاء .

« وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ » .

يعني إن فاتكم شرف الهجرة الواجبة وثوابها فلكم طريق إلى تحصيل الفضائل التي هي في معنى الهجرة ، وهي الجهاد ، ونية الخير في كل عمل ، فالهجرة التي هي مفارقة الوطن مكة إلى المدينة ، وإن كانت انقطعت ولم تعد واجبة ، ولكن المفارقة بسبب الجهاد ما زالت باقية ، وكذلك المفارقة بسبب نية صالحة كالخروج في طلب العلم ، أو الفرار من الفتنة ، أو طلب الرزق بالتجارة ، والنية الصادقة معتبرة في كل ذلك ، و « إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّات ، وَإِنَّمَا لامْرِئٍ مَا نَوَى »[1] .

« وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا » .

في المصباح المنير : نفر نفرًا ، من باب ضرب في اللغة العالية ، وبها قرأ السبعة ، ونفر نفورًا من باب قعد لغة ، وقرئ بمصدرها في قوله تعالى : ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ [فَاطِر : ٤٢] . والنفير مثل النفور ، والاسم النفر بفتحتين ، ونفروا إلى الشيء أسرعوا إليه ، ويقال للقوم النافرين لحرب أو غيرها نفير تسمية بالمصدر ، وأصل النفير : الخروج من مكان إلى مكان آخر لسبب ، لكن إذا أطلق انصرف إلى الخروج إلى القتال .

والسين والتاء للطلب ، أي : إذا طلب منكم الإمام الخروج إلى الغزو والجهاد في سبيل الله فاخرجوا ، ولا تقاعسوا ، والمراد بالإمام : الإمام الأعظم من خليفة ، أو ملك ، أو رئيس ، وظاهر الأمر إنما هو للوجوب ، قال تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التَّوْبَة : ٣٨][2] .

وقال تعالى : ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التَّوْبَة : ٤١] .

(١) حديث صحيح رواه الشيخان وغيرهما .

(٢) أي بدل الآخرة وعوضها .

والجهاد شرع في السنة الثانية من الهجرة حماية للعقيدة وتأمينًا لدعوة الإسلام ، ودفعًا لمظالم المشركين والكفار ، وقضاء على مفاسدهم ، ومآثمهم ، وإقامة لمنارة التوحيد ، وتثبيت دعائم الحق ، والعدل ، والأمان ، والخير ، والهداية في الأرض ، قال عز شأنه : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج : ٣٩- ٤١] .

والجهاد بذل غاية الوسع والاستطاعة في مقاتلة الكفار ، والدفاع عن الأديان والأوطان ، وهو يكون بالنفس وبالمال ، وباللسان ، ففي الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود والنسائي عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « جاهدوا المشركين بأموالكم ، وأيديكم ، وألسنتكم » . ومن الجهاد مجاهدة الفساق بثنيهم عن فسقهم ، والقضاء على شرورهم ، ويكون باليد ، واللسان ، والقلب ، ومن الجهاد أيضًا مجاهدة النفس ، وهو أعلى أنواع الجهاد ، ومن الجهاد مجاهدة الشيطان ، ودفع وساوسه ، وما يأتي به من الشبهات ، ويزينه من الشهوات .

وقد اختلف العلماء في الجهاد : أهو فرض عين أم هو فرض كفاية ؟ قال الحافظ ابن حجر في الفتح ما خلاصته : وللناس في الجهاد حالان : الأولى في زمن النبي ﷺ ، والثانية بعده . فأما الأولى فقد اختلف العلماء في : أكان الجهاد فرض عين أم كفاية ؟ قولان مشهوران ، وقال الماوردي : كان عينًا على المهاجرين دون غيرهم . وقال السهيلي : كان عينًا على الأنصار دون غيرهم ، وقيل : كان عينًا في الغزوة التي يخرج فيها النبي ﷺ دون غيرها ، إلى أن قال : والتحقيق أنه كان فرض عين على من عينه النبي ﷺ في حقه ، ولو لم يخرج ، وفرض كفاية في حق غيره .

الحال الثانية : بعده ﷺ ، فهو فرض كفاية على المشهور إلا أن تدعو الحاجة إليه ، كأن يدهم العدو بلاد المسلمين فيكون فرض عين ، ويتعين على من عينه الإمام ، ويتأدى فرض الكفاية بفعله مرة في السنة عند الجمهور ، وقيل : يجب كلما أمكن ، وهو قوي ، ثم

قال : والذي يظهر لي أنه استمر على ما كان عليه في زمن النبي ﷺ إلى أن تكاملت فتوح معظم البلدان وانتشر الإسلام في أقطار الأرض ، ثم صار إلى ما تقدم ذكره ، والتحقيق أيضًا أن جنس جهاد الكفار متعين على كل مسلم ، إما بيده ، وإما بلسانه ، وإما بماله ، وإما بقلبه[١] .

والذي يظهر لي أن الجهاد يكون فرض كفاية[٢] في حالات السلم ، وأنه يجب أن يمرن عليه الأمة كلها ، ويستبقي منهم في الجيش العامل ما يحفظ للبلاد هيبتها وحدودها ، أما في حالات الحرب الفعلية فالجهاد فرض عين على كل مسلم إما بالنفس عند من يقدر عليه ويتأهل له ، وإما بالمال لمن لم يقدر على الجهاد بالنفس ، وإما باللسان والقلم لمن يقدر على ذلك ، فقد أصبحت حرب الدعاية باللسان أو القلم من أسباب النصر ، واكتساب الأنصار والأعوان ، ومن هو في المزرعة أو في المصنع عليه نوع من الجهاد وهو الإخلاص في العمل ، والعمل على زيادة الإنتاج .

وأيضًا من هو متخصص في علم من العلوم العسكرية ، أو المدنية ، ولا يوجد غيره ممن يقوم بذلك في الجيش يصبح الجهاد في حقه فرض عين ، وهكذا نرى أن كل مواطن عليه نوع من أنواع الجهاد ، ولا سيما في هذه الفترة الحرجة التي ندافع فيها عن أرضنا ، وأوطاننا ، وكرامتنا .

ومن السلف الصالح من كان يرى أن الجهاد فرض عين على أي حال ، وفي جميع الأزمان ، ويستدلون بقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة : ٤١] ، أي : شبابًا ، وشيبًا ، ورجالًا ، وركبانًا ، وأغنياء ، وفقراء ، وأقوياء ، وضعفاء ، وممن كان يرى هذا الرأي السادة الأخيار : أبو أيوب الأنصاري ، وأبو طلحة الأنصاري ، والمقداد بن الأسود وغيرهم من الصحابة ، ومن التابعين : سعيد بن المسيِّب ، وقد كان سيدنا أبو أيوب يستدل بالآية السابقة كما كان يرى – ونعمّا رأى – أن الرغبة في الجهاد والاشتغال بالأهل

---

(١) فتح الباري ج٦ ص ٢٨.

(٢) أي إذا قام به البعض سقط عن الباقين ولا يتعين هذا البعض ، فإن فرطت الأمة فيه فقد أثمت كلها واستدل لفرض الكفاية بقوله : ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة : ١٢٢] أي هلا نفرت طائفة للجهاد ، وبقيت طائفة لتلقي العلم ، وتعلم القرآن والتفقه في الدين .

والمال إلقاء بالنفس إلى التهلكة ، مستدلًا بقوله تعالى : ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البَقَرَة : ١٩٥][١] . وقد لزم رضي الله عنه الجهاد في حياة الرسول وبعده ، ولم يتخلف عن غزوة قط ، ولما حدثت الفتنة بين علي ومعاوية انحاز إلى جانب سيدنا علي ، وشهد معه قتال الخوارج ، ولما أرسل معاوية ابنه يزيد على رأس جيش لفتح القسطنطينية تحرج في أول الأمر أن يخرج ويزيد أمير الجيش ولكن نفسه التواقة إلى الجهاد نازعته ، فقال : (وما ضرني من أن استعمل على الجيش) . فلحق بالجيش وأبلى بلاء حسنًا ، ثم مرض فعاده يزيد ، فقال له : ما حاجتك ؟ قال : حاجتي إذا أنا مت أن تركب بي ، ما وجدت مساغًا في أرض العدو ، فإذا لم تجد فادفني ثم ارجع ، فلما توفي صلى عليه يزيد والمسلمون ، ونفذوا ما أوصى ، فدفن بجوار أسوار القسطنطينية شاهدًا على لون من ألوان البطولة الإسلامية الفذة ، وذلك سنة اثنتين وخمسين ، فرضي الله عنه وأرضاه .

ومثل آخر لن يقل عن هذا روعة ، ودلالة على حب المسلمين الأولين للجهاد ، وحرصهم على الموت في سبيل الله تبارك وتعالى أكثر من حرصهم على الحياة ، فقد روي أن أبا طلحة الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ ، وأحد الأبطال الذين أحاطوا برسول الله ونافحوا عنه يوم أحد ، قرأ سورة التوبة وهو شيخ كبير ، فأتى على هذه الآية : ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا...﴾ فقال : أرى ربنا استنفرنا شيوخًا وشبابًا ، جهزوني يا بني ، فقال بنوه : يرحمك الله ، قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات ، ومع أبي بكر حتى مات ، ومع عمر حتى مات ، فنحن نغزو عنك ، فأبى ، فركب البحر غازيًا ، فمات فلم يجدوا جزيرة يدفنونه بها إلا بعد تسعة أيام ، ولم يتغير ، فدفنوه بها .

وروى ابن جرير الطبري عن أبي راشد أنه رأى المقداد بن الأسود فارس رسول الله ﷺ بحمص يريد الغزو ، وكان شيخًا كبيرًا ، هرمًا ، قد سقط حاجباه على عينيه ، فقال له : لقد أعذر الله تعالى إليك ، فقال : أبت علينا سورة البحوث[٢] يريد هذه الآية من سورة التوبة[٣] .

وقال الإمام الزهري : خرج سعيد بن المسيّب إلى الغزو ، وسعيد هذا أعلم التابعين ، وقد

---

(١) تفسير ابن كثير والبغوي ج١ ص٤٣٨.

(٢) البحوث : صيغة مبالغة من البحث ، سميت بذلك سورة براءة لأنها بالغت في البحث عن أحوال المنافقين .

(٣) تفسير ابن كثير والبغوي ج٤ ص١٧٥.

ذهبت إحدى عينيه فقيل له : إنك عليل صاحب ضر ، فقال : استنفر الله الخفيف ، والثقيل ، فإن لم يمكنني الحرب كثرت السواد ، وحفظت المتاع ، وقد صدق - رحمه الله - ، فالجندي في الميدان في حاجة إلى من يعد الطعام ، ويؤمن التموين ، ويحافظ على المتاع ، وبحسب هؤلاء السادة الأمجاد أنهم مجتهدون في فهم الآية ، فإن أصابوا فلهم أجران ، وإن لم يصيبوا فلهم أجر ، وبحسبهم فضلًا هذه النية الصادقة ، وبهؤلاء الأبطال المغاوير وأمثالهم- وما أكثرهم- مكن الله للمسلمين في الأرض ، وانتشر الإسلام حتى بلغ المشارق والمغارب .

ومهما يكن من شيء فقد اتفق العلماء والأئمة على أن الجهاد يصير فرض عين في حالات ثلاث :

الأولى : إذا هاجم الكفار بلدًا من بلاد الإسلام ، أو نزلوا فيه تعين على أهله قتالهم ، ودفعهم بما استطاعوا ، ووجب على إخوانهم المسلمين في كل قطر وبلد أن يخفوا إليهم بالعون والمساعدة ، أداء لحق الأخوة الإسلامية ، ففي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال : « المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ لا يَظْلِمُهُ وَلا يخْذُلُهُ » ، أي : لا يخذله إذا استنصر به ، وفي رواية أخرى : « وَلا يُسْلِمُهُ » ، أي : يتركه لأعدائه ينالون منه . رواه الشيخان .

الثانية : إذا استنفر ولي الأمر- خليفة ، أو ملكًا ، أو رئيسًا- قومًا أو أقوامًا لزمهم الخروج ، وتعين عليهم الجهاد ، وذلك لقوله تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ...﴾ ، ولهذا الحديث الصحيح المتفق عليه ، وفي معنى الاستنفار إعلان التعبئة العامة في العصر الحديث .

الثالثة : إذا التقى الجيشان ، وتقابل الصفان ، تعين على من حضر الجهاد ، وحرم عليه الفرار ، وسنعرض إن شاء الله للتولي يوم الزحف ، وأنه من أكبر الكبائر في الإسلام .

ومما قدمناه يتبين أن حتمية الجهاد اليوم وفرضيته العينية على كل مسلم وعربي أمر متفق عليه من جميع العلماء ، فقد احتلت إسرائيل أراضي واسعة من بلاد الإسلام والعروبة ، والإسلام لا يعرف الفواصل السياسية ولا الحواجز الطبيعية ، فكل الأراضي الإسلامية في شرعة الإسلام سواء ، وكل بلد يجب على المسلمين أن ينافحوا عنه .

ولم يقف الأمر عند هذا ، فقد سلب قطر بأجمعه ، وشرد أهله في الصحاري والقفار ، وأصبح لا مأوى لهم إلا الخيام ، فماذا تنتظرون بعد يا مسلمون ، ويا عرب ؟ !!

(4) فضل الشهادة والشهداء في سبيل الله[1]

روى الإمامان البخاري ومسلم في صحيحيهما بسندهما عن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رضي الله عنه – واللفظ للبخاري – عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « مَا أَحَدٌ يَدْخُلُ الجَنَّةَ يُحِبُّ أَنْ يَرْجِعَ إِلى الدُّنْيَا وَلَهُ مَا عَلَى الأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ إِلا الشَّهِيدُ يَتَمَنى أَنْ يَرْجِعَ إِلى الدُّنْيَا فَيُقْتَلَ عَشْرَ مَرَّاتٍ لمَا يَرَى مِنَ الكَرَامَةِ » .

وروياه أيضًا بلفظ آخر ، عن أَنَسَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « وَمَا مِنْ عَبْدٍ يَمُوتُ لَهُ عِنْدَ اللهُ خَيْرٌ يَسُرُّهُ أَنْ يَرْجِعَ إِلى الدُّنْيَا وَأَنَّ لَهُ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا إِلا الشَّهِيدَ ، لمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ ، فَإِنَّهُ يَسُرُّهُ أَنْ يَرْجِعَ إِلى الدُّنْيَا فَيُقْتَلَ مَرَّةً أُخْرَى » . وهذا لفظ البخاري .

تخريج الحديث :

روى الأول الإمام البخاري في كتاب الجهاد ، باب تمني المجاهد أن يرجع إلى الدنيا ، وروى الثاني في كتاب الجهاد ، باب الحور العين وصفتهن .

ورواهما مسلم في كتاب الإمارة ، باب فضل الشهادة في سبيل الله .

الشرح والبيان :

« أَنَسَ بْنَ مَالِك » بن النضر الأنصاري ، خادم النبي ﷺ ، ذلك أنه لما قدم المدينة عرضته أمه عليه أن يكون خادمًا له فقبل ، وقد خدم النبي ﷺ نحو عشر سنين ، وكان النبي به رفيقًا غاية الرفق ، قال أنس : (خدمت النبي ﷺ عشر سنين فما قال لي لشيء فعلته : لم فعلته ؟ ولا لشيء تركته : لم لم تفعله ؟) ، وكان رضي الله عنه نعم الخادم الأمين ، أرسلته أمه ذات يوم في حاجة ، وأرسله رسول الله في حاجة أخرى ، فأبطأ عنها ، فلما حضر سألته عن سبب إبطائه فقال لها : كنت في حاجة رسول الله ، فقالت له : ما هي ؟ قال : إنها سر ، فقالت له : لا تخبر أحدًا بسر رسول الله ﷺ . فكانت نعم الأم العاقلة ، وقد دعا له النبي ﷺ بالبركة في العمر ، والمال ، والولد ، وأن يدخله الجنة ، وقد استجاب الله الدعاء ، فطالت حياته ، وكثر ماله ، وانتشر ولده ، وكان يقول : أرجو الرابعة ، يعني : دخول الجنة ، بعد أن شاهد في دنياه الاستجابة في الثلاثة الأولى .

---

(١) مجلة الأزهر ، الجزء الثامن ، سنة ٤١ - شوال ١٣٨٩هـ .

وهو من المكثرين في الرواية ، نقل عن النبي ﷺ الكثير من الأحاديث ، وعن غيره من الصحابة ، ووروى عنه الكثيرون من التابعين ، ورواياته في الصحيحين ، وفي غيرهما من كتب الأحاديث والسنن والمسانيد ، فبحسبه شرفًا أن يكون جمع إلى شرف الصحبة والخدمة شرف الرواية ، وحفظ حديث رسول الله ﷺ ، وهي منزلة تتطاول إليها الأعناق ، وتتقطع دونها الأماني ، فرضي الله عنه وأرضاه .

« مَا أَحَدٌ يَدْخُلُ الجَنَّةَ » .

ما : نافية ، بمعنى : ليس : أي ليس أحد ، وأحد : نكرة في سياق النفي ، فتعم كل واحد يدخلها ، وهو يدل على عظم الكرامة ، وجزيل الثواب الذي أعده الله في الآخرة للشهداء ، والجنة : هي دار النعيم المقيم التي أعده الله لعباده المؤمنين العاملين الصالحين ، وهو نحو قوله في الرواية الثانية : « مَا مِنْ عَبْدٍ يَمُوتُ لَهُ عِنْدَ اللهُ خَيْرٌ » ، والمراد بالخير : الثواب الذي يلقاه في دار الكرامة ، والمعنى : ليس عبد يموت ، له عند الله ثواب وكرامة ، فجملة : يموت ، وجملة : له عند الله خير ، صفتان للفظ عبد .

« يُحِبُّ أَنْ يَرْجِعَ إِلى الدُّنْيَا وَلَهُ مَا عَلَى الأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ إِلا الشَّهِيدُ » .

في الرواية الأخرى المذكورة : « وَأَنَّ لَهُ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا » ، والروايتان بمعنى ، وجملة : يحب ، هي خبر ما ، وكذلك جملة : يسره . في الرواية الأخرى .

وقوله : « وَأَنَّ لَهُ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا » ، روي بفتح الهمزة من « أَنَّ » على أنه معطوف على « أَنْ يَرْجِعَ » ، أي : يسره الرجوع إلى الدنيا ، وكون الدنيا وما فيها مملوكة له ، ويجوز أن تكسر الهمزة على أن تكون جملة حالية .

« إِلا الشَّهِيدَ » ، يجوز فيه الرفع والنصب ، الرفع على البدلية من « أَحَدٌ » ، والنصب على الاستثناء ، والراجح الرفع ، والمراد بالشهيد هنا شهيد المعركة الذي قتل وهو يجاهد في سبيل الله منافحًا عن دينه ، وأهله ، وعرضه ، ووطنه ، وهو أعلى أنواع الشهداء .

وقد اختلف لم سمي الشهيد شهيدًا ؟ على أقوال كثيرة ، منها :

أنه شهد له بالإيمان ، وخاتمة الخير ، بظاهر حاله ، لأن عليه شهيدًا وهو دمه ، وقيل : لأن الله وملائكته يشهدون له بالجنة ، وقيل : لأن ملائكة الرحمة يشهدونه فيتلقون روحه ، وقيل : لأنه يشاهد عند خروج روحه ما أعده الله له من الكرامة .

« لِمَا يَرَى مِنَ الكَرَامَةِ » . وفي الرواية الأخرى : « لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ » .

اللام للتعليل ، فهي بالكسر ، أي : أن ما يراه الشهيد من الكرامة عند الله ، وما أعده الله للشهداء يجعله يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل في سبيل الله مرارًا .

وهذا الحديث أجل ما جاء في فضل الشهادة في سبيل الله ، وليس في أعمال البر ما تبذل فيه النفس التي هي أعز شيء على الإنسان غير الجهاد ، فلا عجب إذا كان الله سبحانه أعظم فيه الثواب .

وقد ورد في فضل الشهادة آيات كثيرة ، فمن ذلك قوله سبحانه : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : ١١١] . وقال سبحانه : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران : ١٦٩- ١٧٠] .

وهي حياة برزخية روحية تتمتع فيها الروح ببعض أنواع الملذات الحسية والمعنوية عن طريق حلولها في حواصل طيور خضر تسرح في الجنة ، وهذه الحياة فوق الحياة الدنيوية ، لأن حياة الدنيا لا تسلم غالبًا من الآفات والآلام ، وأنواع البلاء ، ودون الحياة الأخروية التي تحل فيها أرواحهم في أجسامهم الحقيقية مع كمال تمتعهم باللذائذ الحسية والمعنوية ، وليس حلول أرواح الشهداء في حواصل هذه الطيور عن طريق تناسخ الأرواح ، كلا ، وإنما هذه الطيور وسيلة لتمتعها بنعيم الجنة من يوم مفارقة أرواحهم لأبدانهم ، وهذه كرامة خص الله بها الشهداء ، كما أن جعلها في جوف طير خضر حسان ليس سجنًا لها كما زعم البعض ، وإنما هو صيانة لها ، ومبالغة في إكرامها لتطلع على ما في الجنة من المحاسن والنعم ، والمناظر التي تسمو عن الوصف .

وقد روى الإمام مسلم في صحيحه ما يفسر لنا هذه الحياة ، وما يبين كرامة الشهداء عند ربهم ، ففي الصحيح عن ابن مسعود قال : وسئل رسول الله ﷺ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ...﴾ ، فقَالَ : « أَرْوَاحُهُمْ في جَوْفِ طيور

خُضْرٍ لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالعَرْشِ ، تَسْرَحُ مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ ، ثمَّ تَأْوِي إِلى تِلْكَ القَنَادِيلِ ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمُ اطِّلاعَةً ، فَقَالَ : هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا ، فَقَالُواْ : أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا ، فَفَعَلَ ذَلِكَ بهِمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُواْ مِنْ أَنْ يُسْأَلُواْ قَالُواْ : يَا رَبِّ نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا في أَجْسَادِنَا حَتى نُقْتَلَ في سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى ، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُواْ » .

وفي مسند الإمام أحمد نحو حديث مسلم ، وفي آخره : « فلما وجدوا طيب مأكلهم ، ومشربهم ، ومقيلهم قالوا : من يبلغ عنا إخواننا أنا أحياء في الجنة نرزق لئلا يزهدوا في الجهاد ، ولا ينكلوا عن الحرب فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ » ، وقد كان نزول هذه الآية بعد ما نزل بالمسلمين من استشهاد الكثيرين في غزوة أحد ، وفي سرية القراء ، فكان فيها تصبيرًا وتسلية للنبي وللمؤمنين .

وروى ابن ماجه في سننه بسنده عن أبي هريرة قال : ذكر الشهيد عند النبي ﷺ فقال : « لا تجف الأرض من دم الشهيد حتى تبتدره[1] زوجاته من الحور العين وفي يد كل واحدة منها حلة خير من الدنيا وما فيها » ، وقد ورد في وصف هؤلاء الحور العين في الصحيح : « وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلى أَهْلِ الأَرْضِ لأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا وَلَمَلأَتْهُ رِيحًا » . رواه البخاري . وكذلك ورد في وصفهن : « أنه يُرَى مُخُّ سَاقِهن مِنْ وَرَاءِ لحمِهن وعظمهن » ، فهن كالبلور ، بل أصفى ، إلى غير ذلك من الأحاديث والآثار .

فلا تعجب وقد حبب الإسلام في الشهادة هذا التحبيب ، ورغب فيها غاية الترغيب ، أن أحب المسلمون الشهادة في سبيل الله ، وأن حرصوا على الموت أكثر من حرصهم على الحياة ، ففي سرية القراء أرسل المسلمون حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطفيل ، فلما أتاه لم ينظر في الكتاب ، وأوعز إلى رجل ، فأنفذه بالرمح من خلفه ، فقال حرام : فزت ورب الكعبة !! ، وقد عجب قاتله وهو جبار بن سلمى من مقالته فقال : ما معنى قوله فزت ؟ قالوا : يعني بالجنة ، فقال : صدق ، وكانت هذه القصة من أسباب إسلام

(١) يتسابقن إليه .

جبار فيما بعد تأثرًا مما سمع .

وفي غزوة مؤتة لما التقى المسلمون ، وهم ثلاثة آلاف بالروم ومن معهم وهم مائتا ألف ، قالوا : نكتب لرسول الله نخبره بعدد عدونا ، فإما أن يمدنا بالرجال ، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له ، فقام عبد الله بن رواحة فقال : يا قوم ، والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون ، يعني الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا كثرة ولا قوة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا ، فإنما هي إحدى الحسنيين : إما ظهور ، وإما شهادة ، فتشجع الناس وقالوا : صدق ابن رواحة ، إلى غير ذلك من المواقف المشرفة ، وبحب الشهادة مكن الله للمسلمين في الأرض ، وأذل لهم جباه الأكاسرة والقياصرة ، وصاروا سادة الدنيا أحقابًا من الزمان .

فهل يعيد التاريخ نفسه ؟ وهل يعيد المسلمون سيرتهم الأولى ، وهي حب الجهاد والاستشهاد ؟ ذلك ما نرجو في حاضرنا ويومنا ، وما ذلك على الله بعزيز .

❊ ❊ ❊

(5) الشهيد الذي لم يجدوا له كفنًا يكفيه[1]

روى الشيخان في صحيحيهما بسندهما عن خباب بن الأرت قال : (هَاجَرْنَا مَعَ رسول اللَّه ﷺ نُرِيدُ وَجْهَ اللهُ فَوَقَعَ أَجْرُنَا عَلَى اللهِ ، فَمِنَّا مَنْ مَضَى لَمْ يَأْخُذْ مِنْ أَجْرِهِ شَيْئًا مِنْهُمْ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ وَتَرَكَ نَمِرَةً ، فإِذَا غَطَّيْنَا بهَا رَأْسَهُ بَدَتْ رِجْلاهُ ، وَإِذَا غَطَّيْنَا رِجْلَيْهِ بَدَا رَأْسُهُ ، فَأَمَرَنَا النبي ﷺ أَنْ نُغَطِّيَ رَأْسَهُ وَنجْعَلَ عَلَى رِجْلَيْهِ الإذخر ، وَمِنَّا مَنْ أَيْنَعَتْ لَهُ ثَمَرَتُهُ فَهُوَ يَهْدِبُهَا) .

تخريج الحديث :

رواه البخاري في مواضع عدة من كتابه : كتاب الجنائز- باب إذا لم يجد كفنًا إلا ما يواري رأسه ، أو قدميه غطى رأسه ، ثم في باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة ، وفي كتاب المغازي- باب غزوة أحد موجزًا عن عبد الرحمن بن عوف ، وباب من قتل من المسلمين يوم أحد ، وفي كتاب الرقاق- باب فضل الفقر .

ورواه الإمام مسلم في صحيحه : كتاب الجنائز- باب تكفين الميت .

الشرح والبيان :

خباب بن الأرت ، هو الصحابي الجليل خباب[2] بن الأرت- بفتح الهمزة والراء وتشديد التاء- بن جندلة بن سعد بن خزيمة بن كعب ، من بني تميم ، يكنى أبا عبد الله ، وقيل : أبو محمد ، وقيل : أبو يحيى ، وهو عربي لحقه سباء في الجاهلية ، فبيع بمكة ، وكان خباب حدادًا يصنع السيوف بمكة ، وكان رسول الله يتألفه ويأتيه ، فلما علمت بذلك مولاته كانت تعذبه بوضع أسياخ الحديد على رأسه ، فما صرفه ذلك عن دينه .

وهو من السابقين الأولين إلى الإسلام ، وممن عذب في الله تعالى فصبر على البلاء ، وكان سادس ستة في الإسلام ، وقد تحمل هو وإخوانه من الموالي والأعبد من التعذيب ما ينوء به الجماد .

روى البخاري في صحيحه عن خباب قَالَ : شَكَوْنَا إِلى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بِبُرْد لَهُ في ظِلِّ الكَعْبَةِ فَقُلْنَا : أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا ؟ فجلس محمرًّا وجهه ، فَقَالَ : « قَدْ كَانَ مَنْ

(١) مجلة الأزهر - ج٩ سنة ٤٥.

(٢) خباب بفتح الخاء وتشديد الباء الأولى .

قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ في الأَرْضِ فَيُجْعَلُ ثم يجاء بِالمِيشَارِ(١) فيجعل فوق رَأْسِهِ ما يصرفه ذلك عن دينه ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ لحْمِهِ من عظم وعصب ، ما يصرفه ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ ، وَاللهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرُ حتى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ لا يخشى إلا اللهَ - عز وجل - وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ ، وَلكِنَّكُمْ تَعْجلُونَ » . فيرجعون وقد ازدادوا إيمانًا وثباتًا على الإسلام ، وعزمًا على الصمود وتحمل العذاب . شهد بدرًا وأحدًا والمشاهد كلها مع رسول الله .

ولما هاجر آخى النبي ﷺ بينه وبين تميم مولى خراش بن الصمة ، وقيل : آخى بينه وبين جبر بن عتيك ، روى عن النبي ﷺ ، وروى عنه ابنه عبد الله ، ومسروق بن الأجدع ، وشقيق بن سلمة ، والشعبي ، وأبو ميسرة عمرو بن شرحبيل ، وقيس بن أبي حازم ، وغيرهم ، وكانت وفاته سنة سبع وثلاثين ، فرضي الله عنه وأرضاه(٢) .

(هَاجَرْنَا مَعَ رسول اللّه ﷺ إلى المدينة) .

بينت رواية البخاري في كتاب الرقاق أنه قال ذلك لما عادوه وهو مريض ، فعن أبي وائل قال : (عدنا خبابًا فقال) ، والظاهر أن ذلك كان في مرض موته ، فقد طال عليه حتى منعه من حضور صفين مع سيدنا على . والمراد بالمعية المشاركة في الهجرة ، لأن رسول الله ﷺ لما هاجر كان معه الصديق وعامر بن فهيرة من أصحابه ، أو المراد هاجرنا بأمره وإذنه .

(نُرِيدُ وَجْهَ اللهُ) .

وفي رواية : (نبتغي) ، والمعنى واحد ، والمراد بوجه الله : قصد رضائه ، والفوز بما عنده من الثواب والأجر الأخروي ، لا نريد شيئًا من الدنيا ، وإنما هجرتنا كانت متمحضة لوجه الله .

(فَوَقَعَ أَجْرُنَا عَلَى اللهِ) .

وفي رواية للبخاري ومسلم : (فوجب أجرنا على الله) ، والوجوب هنا ليس على ظاهره وحقيقته ، لأن الله عز وجل لا يجب عليه شيء ، وإنما المراد تأكيد الأجر وثبوته لهم ، فعبر عن ذلك بالوجوب .

---

(١) الميشار : بالميم والياء هو المنشار بالنون ، وهما لغتان .

(٢) أسد الغابة ، ترجمة خباب بن الأرت .

أو المراد بالوجوب هنا أن الله سبحانه هو الذي أوجب ذلك على نفسه بنفسه ، بمقتضى وعده الصادق الذي لا يتخلف ، والمراد بالأجر : الثواب والجزاء الأخروي .

(فَمِنَّا مَنْ مَضَى لَمْ يَأْخُذْ مِنْ أَجْرِهِ شَيْئًا) .

(مضى) : أي : مات حتف أنفه ، أو استشهد . (أجره) : المراد بالأجر هنا ما حصل لهم من الغنائم والأموال من الفتوحات ، وما فتح لهم من خيرات الدنيا ، وإطلاق الأجر على الدنيوي من قبيل المجاز ، وعلى هذا لا يتنافى هذا مع قوله : (نبتغي به وجه الله) ، لأن ما جاءهم من ثمرات الدنيا ما كان مقصودًا ، وإنما جاء لهم عفوًا وفضلًا ، فاستحلوه بتحليل الشرع له .

(مِنْهُمْ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ) .

يعني من هؤلاء الذين وقع أجرهم على الله : الصحابي الجليل مصعب بن عمير ، شهيد أُحُدٍ ، وكان حامل اللواء في هذا اليوم ، قتله عبد الله بن قمئة- أقمأه الله ولعنه- ظنًّا أنه رسول الله ، لأنه كان من الذين باعوا أرواحهم رخيصة في سبيل الله تعالى ، ولما قَتله ابن قمئة أذاع أنه قتل رسول الله مما سبب الاضطراب والذهول في نفوس المسلمين ، ومن أمثاله أيضًا عثمان بن مظعون ، فقد مات بعد الهجرة إلى المدينة بعد بدر .

من هو مصعب بن عمير ؟

ويقتضينا عرفان الفضل لصحابة رسول الله ﷺ أن نذكر كلمة موجزة عن هذا الصحابي الجليل الذي آثر الفقر والضنك في ظلال الإيمان على النعيم في حياة الكفر .

هو مصعب بن عمير بن هشام بن عبد مناف بن عبد الدار ، يجتمع مع النبي في جده (قصي) ، وكان مصعب بن عمير فتى مكة شبابًا ، وجمالًا ، وتيهًا ، وكان أبواه يحبانه ، وكانت أمه تكسوه أحسن ما يكون الثياب ، وكان أعطر أهل مكة ، يلبس الحضرمي من النعال ، وكان رسول الله ﷺ يقول في حقه : « ما رأيت بمكة أحسن لمة[1] ، ولا أرق حلة[2] ، ولا أنعم نعمة من مصعب بن عمير » . ولم أعلم فيما قرأت تصويرًا لما كان يتقلب فيه ابن عمير من النعيم من هذا الكلام النبوي البليغ .

---

(١) الشعر الذي يجاوز شحمة الأذن . « قاموس » .

(٢) حلة : ثيابا .

ولما دعا النبي ﷺ إلى الله سرًا ذهب إليه في دار الأرقم وأسلم ، ولكنه كتم إسلامه خوفًا من عشيرته ، فكان يختلف إلى رسول الله ﷺ سرًا ، فوشى به إلى أمه وقومه أحد بني عبد الدار ، فما كان منهم إلا أن أخذوه فحبسوه وأوثقوه ، ولم يزل محبوسًا حتى لاحت له فرصة الإفلات من الحبس ، فخرج مهاجرًا إلى الحبشة ، وتحمل في هجرته ما تحمل من شظف العيش ، وألم الغربة حتى نسي ما كان فيه من النعيم وآثر الفقر على الغنى ، والخشن من الثياب على اللين والحرير .

ولما أسلم الكثيرون من الأنصار طلبوا من النبي أن يرسل إليهم من يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ، فوقع اختيار رسول الله ﷺ على مصعب بن عمير ، وقد نجح في مهمته خير نجاح ، وكان الأنموذج الكامل الصادق للدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة ، وعلى يديه أسلم سيدان شريفان ، أسلم بإسلامهما أناس كثيرون ، وهما سعد بن معاذ ، وأسيد بن حضير من بني عبد الأشهل .

ولو أن مصعبًا رضوان الله عليه نشأ في غير مطارف النعيم لقلنا : ربما هان عليه ما تحمله بعد الإسلام والهجرة من بؤس الحياة وخشونة الملبس والمطعم ، أما وقد ترعرع في النعيم فقد كان من البطولة النفسية حقًّا أن يلبس ثوبًا مرقوعًا بفروة شاة ، ونعلًا مخصوفة مرقعة ، فلا تعجب إذا كان رسول الله ﷺ وهو الرءوف الرحيم الرقيق القلب كان إذا رآه بكى رثاءً لحاله ، روى الترمذي في سننه بسنده عن علي رضي الله عنه قال : (بينما نحن في المسجد إذ دخل علينا مصعب بن عمير وما عليه إلا بردة له مرقوعة بفروة ، فبكى رسول الله ﷺ لما رآه للذي كان فيه من النعيم ، والذي هو فيه اليوم) . نعم والله إنه لموقف يستحق البكاء ممن أرسله الله رحمة للعالمين .

وتأتي غزوة أحد وتكون الجولة الأولى للمسلمين ، ثم تدور الدائرة عليهم ، ويختل نظام جيش المسلمين ، ويفر من يفر ، ويذهل من يذهل ، ويقف الرسول كالطود الشامخ وحوله ثلة من أصحابه الأبطال ، منهم مصعب بن عمير ، يدافعون عنه ويفدونه بأنفسهم ، وفي هذا الموقف الشجاع وفي ساحة الكرامة والاستشهاد استشهد مصعب بن عمير وهو ينافح عن رسول الله ، وبذلك كتب في سجل الخلود في الإسلام ، سجل الشهداء والصديقين ، من أتباع الأنبياء والمرسلين ، فرضي الله عنك يا سيدي مصعب بن عمير وأرضاك .

(قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ وَتَرَكَ نَمِرَةً) .

النمرة : إزار من صوف مخطط أو بردة ، وكان رسول الله ﷺ أمر بشهداء أحد أن يدفنوا حيث ماتوا ، وأمر بدفنهم بدمائهم ، وثيابهم التي عليهم ، ولم يغسلوا ولم يصل عليهم[١] ، وذلك لتكون دماؤهم وجراحاتهم شاهدة لهم يوم القيامة بفضلهم ومنزلتهم .

وكان على الصحابة من الثياب ما قام مقام الكفن ، أما سيدنا مصعب فلم يكن على جسده ! ، إلا هذا الثوب الغليظ القصير الذي ضاق عن أن يكون كفنًا ، فكانوا إذا غطوا رأسه بدت رجلاه ، وإذا غطوا رجليه بدا رأسه ! ، فأمرهم المشرع الحكيم صلوات الله وسلامه عليه أن يغطوا رأسه لأنه أولى ، ويضعوا الإذخر على قدميه ، والإذخر- بكسر الهمزة وسكون الذال وكسر الخاء- نبت طيب الرائحة كانوا يستعملونه في فرش قبورهم ، فقام الإذخر مقام الثوب للضرورة ، إذ كان المسلمون في حال ضنك وتعب ومشقة .

قال الإمام النووي- رحمه الله تعالى- : (وفيه دليل على أنه إذا ضاق الكفن عن ستر جميع البدن ، ولم يوجد غيره جعل مما يلي الرأس وجعل النقص مما يلي الرجلين ، ويستر الرأس ، فإن ضاق عن ذلك سترت العورة ، فإن فضل شي جعل فوقها ، فإن ضاق عن العورة سترت السوأتان لأنهما أهم ، وهما الأصل في العورة ، فإن لم يوجد ثوب قط لف في الإذخر أو ما يشاكله) .

(وَمِنَّا مَنْ أَيْنَعَتْ لَهُ ثَمَرَتُهُ فَهُوَ يَهْدِبُهَا) .

أينعت : أي : نضجت وكثرت ، ثمرته : ما أخذ من الغنائم ، ولاسيما زمن الفتوحات العظيمة ، يهدبها- بفتح الياء المثناة ، وسكون الهاء ، وضم الدال ، وكسرها ، وقيل بالفتح أيضًا- أي : يجنيها ، وينتفع بها ، وهذا من التعبيرات المجازية البديعة ، فقد جعل ما فتح لهم من الدنيا بمنزلة البستان الحافل بشتى الثمار ، فلما نضجت وطابت انتفع وتلذذ بما فيها .

وهؤلاء الذين عاشوا حتى فتحت عليهم الدنيا أصناف ، فمنهم من عاش إلى أن فتح الله عليهم ، وهؤلاء منهم من أعرض عن المال وواسى به المحاويج أولًا فأولًا ، بحيث بقي

(١) صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، باب من قتل من المسلمين يوم أحد .

على تلك الحالة الأولى وهم قليل ، مثل أبي ذر ، وهؤلاء ملحقون بالقسم الأول ، ومنهم من تبسط في بعض المباح فيما يتعلق بكثرة النساء والسراري أو الخدم والملابس ونحو ذلك ، ولم يستكثر وهم كثير ، منهم ابن عمر ، ومنهم من زاد واستكثر بالتجارة وغيرها مع القيام بالحقوق الواجبة والمندوبة ، وهم كثير أيضًا ، منهم عبد الرحمن بن عوف الزهري ، وإلى هذين القسمين أشار خباب رضي الله عنه .

فالقسم الأول وما التحق به توفر له أجره في الآخرة ، والقسم الثاني مقتضى الحديث أنه يحسب عليهم ما وصل إليهم من مال الدنيا من ثوابهم في الآخرة .

وقد روى البخاري في صحيحه بسنده عَنْ سَعْدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بن عبد الرحمن بن عوف عَنْ أَبِيهِ إِبْرَاهِيمَ أَنَّ عَبْدَ الرَّحمَنِ بْنَ عَوْفٍ رضي الله عنه أُتِيَ بِطَعَامٍ[١] وَكَانَ صَائِمًا فَقَالَ : (قُتِلَ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ وَهُوَ خَيْرٌ مِني كُفِّنَ في بُرْدَةٍ إِنْ غُطِّيَ رَأْسُهُ بَدَتْ رِجْلاهُ ، وَإِنْ غُطِّيَ رِجْلاهُ بَدَا رَأْسُهُ ، وَأُرَاهُ[٢] قَالَ : وَقُتِلَ حَمْزَةُ وَهُوَ خَيْرٌ مِني ثُمَّ بُسِطَ لَنَا مِنَ الدُّنْيَا مَا بُسِطَ أَوْ قَالَ : أُعْطِينَا مِنَ الدُّنْيَا مَا أُعْطِينَا وَقَدْ خَشِينَا أَنْ تَكُونَ حَسَنَاتُنَا قد عُجِّلَتْ لَنَا ، ثُمَّ جَعَلَ يَبْكِي حتى تَرَكَ الطَّعَامَ) .

فمن ثم كان يميل كثير من السلف الصالح إلى التقلل من الدنيا وزينتها حتى لا يذهب ببعض أجرهم في الآخرة .

وبعد ، فهذا سيدنا مصعب بن عمير مثل عال من أمثلة المؤمنين الصادقين الذين سخروا من الحياة وشدائدها ، وترفعوا عن أن يكونوا أسراء لشهواتها وزخارفها ، وأول داعية إلى الإسلام على بصيرة وحكمة ، وبفضله وكياسته وصدقه دخل الكثيرون من الأنصار في الإسلام .

ثم هو مثال للتضحية بالنفس في سبيل الله ورسوله ، ومثال للبطل المجاهد المكافح المنافح عن رسول الله ﷺ ، الذي قدم نفسه فداء له عن عقيدة وطيب نفس .

ومثال للفقير العزيز الصابر الذي آثر الفقر في رحاب الإسلام ، على الغنى والجاه العريض في ضيق الكفر ، وها هو الآن يرفل في عرصات الجنة ، ويجول في مغانيها وقصورها ، فهل نحن بمصعب وأمثاله مقتدون ، على آثارهم سائرون ؟ ذلك ما نرجو والله الموفق والمعين .

(١) كان لحمًا وخبزًا كما في سنن الترمذي .
(٢) بضم الهمزة بمعنى أظنه .

(6) من جهاد النساء في الإسلام[1]

روى البخاري في صحيحه قال : حَدَّثَنَا أَبُو مَعْمَرٍ (قال) حَدَّثَنَا عَبْدُ الوَارِثِ (قال) حَدَّثَنَا عَبْدُ العَزِيزِ عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ : (لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ انْهَزَمَ النَّاسُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، قَالَ : وَلَقَدْ رَأَيْتُ عَائِشَةَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ وَأُمَّ سُلَيْمٍ ، وَإِنَّهُمَا لَمُشَمِّرَتَانِ أَرَى خَدَمَ سُوقِهِمَا تَنْقُزَانِ القِرَبَ ، وَقَالَ غَيْرُهُ : تَنْقُلانِ القِرَبَ عَلَى مُتُونِهِمَا ، ثمَّ تُفْرِغَانِهِ في أَفْوَاهِ القَوْمِ ، ثمَّ تَرْجِعَانِ فَتَمْلآنِهَا ، ثمَّ تَجِيئَانِ فَتُفْرِغَانهَ في أَفْوَاهِ القَوْمِ) .

ما يتعلق بالسند :

أبو معمر : هو عبد الله بن عمرو المنقري ، وعبد العزيز : هو ابن صهيب .

تخريج الحديث :

روى هذا الحديث البخاري في صحيحه- كتاب الجهاد- باب غزو النساء وقتالهن مع الرجال ، وفي كتاب المغازي- باب غزوة أحد- بسياق أتم من هذا .

ورواه مسلم بالسياق التام في كتاب الجهاد- باب غزوة النساء مع الرجال .

الشرح والبيان :

(لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ انْهَزَمَ النَّاسُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ) .

وكان السبب في تلك الهزيمة مخالفة أمر رسول الله ﷺ ، ذلك أن رسول الله ﷺ كون فرقة من الرماة المجيدين للرمي بالنبال ، وأَمَّرَ عليهم الصحابي الجليل عبد الله بن جبير ، وأمرهم أن يقفوا ورآء جيش المسلمين يدفعون عنهم بالنبال حتى لا تأتيهم خيل المشركين من وراء ظهورهم ، وقال لهم : « لا تتركوا مكانكم ولو رأيتمونا تخطفنا الطير ، وسواء انتصرنا أم انهزمنا » ، وكان هذا العمل حنكة حربية وتصرفًا حكيمًا بارعًا من رسول الله ﷺ ، لأن هذا المكان هو الذي يمكن أن يؤتى منه المسلمون .

ولكن الرماة لما رأوا المسلمين انتصروا على المشركين ، وشرع البعض في أخذ الغنائم وحيازتها اختلفوا فيما بينهم ، فقال الكثيرون منهم : إنما كانت وصاة رسول الله ﷺ لنا بالثبات في حال عدم النصر ، وقال بعضهم : إن رسول الله ﷺ أوصانا بالثبات سواء أكان

---

(١) مجلة الأزهر ج٢ سنة ٤٥.

النصر أم كانت الهزيمة ، وذهب أصحاب الرأي الأول لجمع الغنائم ، وثبتت ثلة قليلة وعلى رأسهم قائدهم وأميرهم عبد الله بن جبير إتباعًا لوصية رسول الله ، فاهتبل خالد بن الوليد- ولم يكن أسلم بعد- هذه الفرصة ، وهي خلو ظهر جيش المسلمين من معظم الرماة ، فجاء من خلف الجيش ، فقاتلته ودفعته الثلة الباقية مع قائدهم عبد الله بن جبير حتى استشهدوا جميعًا في سبيل الله ، فما كان من خالد وخيله ورجله إلا أن شدوا على المسلمين من ظهورهم ، وكانت مفاجأة أذهلت الكثيرين من المسلمين ، وساد الهرج والمرج الجيش الإسلامي ، فكانت بوادر الهزيمة ، ثم أشيع أن رسول الله قتل ، فزاد من الاضطراب والهزيمة .

ولولا ثبات رسول الله ﷺ ، وحوله ثلة من خيار أصحابه وأبطالهم ؛ لكانت الهزيمة ساحقة ماحقة ، وكانت الهزيمة في أحد درسًا تربويًّا إلهيًّا تعلم منه المسلمون أن لا يخالفوا لرسول الله ﷺ أمرًا مهما كانت الظروف والملابسات ، فمن ثم لم يقعوا في هذا الخطأ فيما بعد ، ولم تقع بهم مثل هذه الهزيمة .

كما تعلموا منه أن ما عند الله خير وأبقى ، وأن الغنائم ما هي إلا عرض زائل لا ينبغي أن تكون غرضًا لمجاهد في سبيل الله ، كما كانت الهزيمة اختبارًا تبين به المؤمنون الصادقون ، من ضعفاء الإيمان والمنافقين ، وقد دل ما حدث في أحد على أن الرسل وأتباعهم قد تنالهم الهزيمة في بعض المواقف لخطأ أو لغير ذلك ، ولكن العاقبة بالنصر لا بد أن تكون لهم ، وهذه هي سنة الله ، ولن تجد لسنة الله تبديلًا ، وصدق الله تعالى : ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ [المجادلة : ٢١] .

وقد سجل الله تعالى ما يتعلق بغزوة أحد وتسلية المسلمين لما أصابهم فيها في نحو أربعين آية من سورة آل عمران .

(وَلَقَدْ رَأَيْتُ عَائِشَةَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ وَأُمَّ سُلَيْمٍ) .

أما « عائشة بنت أبي بكر » ، فهي أم المؤمنين ، وزوج النبي ﷺ ، ولم تمنعها منزلتها في قومها فهي بنت الصديق سيد بني تيم ، ومكانها من رسول الله ﷺ من أن تخرج مع الجيش في أحد تحمل القربة على ظهرها لتسقي العطشى ، وتغيث الجرحى بشربة ماء قد يكون فيها الحياة ، وبذلك كانت أسوة حسنة لغيرها من نساء الأمة المسلمات .

أما « أم سُلَيم » ، فهي أم أنس بن مالك ، كانت من الصحابيات المجاهدات في سبيل الله ، وكانت ممن شاركن في أحد وغيرها بحمل الماء للعطشى ، ومداواة الجرحى .

بل لم تقتصر على هذا ، بل كانت تعد نفسها للقتال إذا لزم الأمر ، والدفاع عن نفسها إن هم أحد من المشركين بانتهاك حرمتها ، والتعدي عليها ، روى الإمام مسلم في صحيحه بسنده عَنْ أَنَسٍ « أَنَّ أُمَّ سُلَيْمٍ اتَّخَذَتْ يَوْمَ حُنَيْنٍ خِنْجَرًا[1] فَكَانَ مَعَهَا ، فَرَآهَا أَبُو طَلْحَةَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، هَذِهِ أُمُّ سُلَيْمٍ مَعَهَا خِنْجَرٌ ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ : « مَا هَذَا الخِنْجَرُ ؟ » ، قَالَتِ : اتَّخَذْتُهُ إِنْ دَنَا مِني أَحَدٌ مِنَ المُشْرِكِينَ بَقَرْتُ بِهِ بَطْنَهُ ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَضْحَكُ » . وفي ضحك رسول الله إقرار لها على عملها ، وعجب من شجاعتها وبطولتها ، وكأنه ﷺ بذلك يهنئ بها زوجها أبا طلحة رضي الله عنه ، الذي تزوجت به بعد والد أنس رضي الله عن الجميع .

(وَإِنَّهُمَا لَمُشَمِّرَتَانِ أَرَى خَدَمَ سُوقِهِمَا) .

التشمير : رفع طرف الثوب من أسفل حتى لا يتعثر فيه صاحبه ، وإنما يفعل هذا المجد في السير ، أو في عمل كحمل القرب مثلاً ، كما هنا .

خدم : بفتح الخاء المعجمة والدال المهملة : جمع خدمة ، وهي الخلخال ، والسوق : جمع ساق ، والمراد رؤية موضع الخلخال منها ، ولم يكن ذلك عن عمد من أنس رضي الله عنه وإنما حصلت النظرة منه فجأة من غير قصد للنظر ، ولم يستدم ذلك .

فإن قيل كيف تكشف الصحابيتان الجليلتان عن موضع الخلخال من ساقهن وهن من خيرة النساء ؟ ! وموضع الخلخال من العورة ؟ والجواب : أن ذلك كان قبل أن يؤمر النساء بالحجاب ، فقد كان ذلك في أحد في السنة الثالثة من الهجرة ، أما نزول آية الحجاب فكانت بعد ذلك في السنة الخامسة صبيحة بني بالسيدة زينب بنت جحش رضي الله عنها .

أو أن الحرب تعتبر ضرورة من الضرورات التي تبيح كشف بعض الساق ، والضرورات تبيح المحظورات .

---

(١) الخنجر – بكسر الخاء ، والفتح لغة – سكين كبير ذات حدين .

(تَنْقُزَانِ القِرَبَ – وَقَالَ غَيْرُهُ –: تَنْقُلانِ القِرَبَ عَلَى مُتُونِهِمَا ، ثمَّ تُفْرِغَانِهِ في أَفْوَاهِ القَوْمِ) .

« تنقزان » – بفتح التاء وسكون النون وضم القاف بعدها زاي –: أي : تحملان ، والقرب : جمع قربة ، ما يحمل فيه الماء ، وهي من الجلد ، وفي الرواية الأخرى : تنقلان ، والمعنى واحد ، وهي مفسرة لرواية تنقزان ، وهي رواية جعفر بن حمدان عن عبد الوارث ، فلعله رواها بالمعنى ، لأن الرواية التي اتفق عليها الشيخان تنقزان ، والقرب : منصوب على المفعولية .

وقيل : معنى تنقزان : تثبان وتقفزان ، والنقز : الوثب ، والقفز كناية عن سرعة السير ، وهذه المواطن مما يستحب فيها السعي والإسراع ، فرب شربة تنقذ عطشان ، أو جريحًا من الموت ، والقرب المعنى منصوب على نزغ الخافض على هذا ، أي : تثبان وتقفزان بالقرب .

(عَلَى مُتُونِهِمَا) . أي : على ظهورهما وجوانبهما كما هو الشأن في حامل القربة من الماء .

(ثمَّ تُفْرِغَانِهِ في أَفْوَاهِ القَوْمِ) .

الضمير في تفرغانه للماء ، وهو مفهوم من الكلام ، إذ القربة وعاء الماء ، والمراد بالقوم المقاتلون العطشى والجرحى .

(ثمَّ تَرْجِعَانِ فَتَمْلآَنِهَا ثمَّ تَجِيئَانِ فَتُفْرِغَان في أَفْوَاهِ القَوْمِ) .

كناية عن استمرار ذلك منهما ، وأنهما لم يفعلا ذلك مرة ولا مرتين ، بل فعلا ذلك مرارًا .

وقد دل هذا الحديث على جواز خروج المرأة مع الجيوش لتصنع الطعام والشراب والكساء ، ولتسقي العطشى ولتمرض الجرحى ، ولا حرج في ذلك ولا في ملامستها لغير محرم ، أو غير زوج ، لأنها ضرورات ، والضرورات تبيح المحظورات ، والضرورة تقدر بقدرها ، وهذا من سماحة الإسلام ، وصلاحيته لكل زمان ومكان ، وسبقه إلى كل خير .

أحاديث شاهدة لهذا الحديث :

وقد ورد في إباحة خروج النساء في الغزو والجهاد ، ومباشرتهن بعض الأعمال الضرورية للجيش أحاديث أخرى ، منها : الحديث الذي رواه البخاري بسنده عَنِ الرُّبَيِّعِ بِنْتِ مُعَوِّذٍ[١]

---

(١) الربيع : بضم الراء وفتح الباء الموحدة وكسر الياء المشددة وأبوها معوذ بضم الميم ، وفتح العين وكسر الواو المشددة ، لها ولأبيها صحبة للنبي ﷺ .

قَالَتْ : (كُنَّا نَغْزُو مَعَ رسول الله ﷺ فَنَسْقِي القَوْمَ وَنخْدُمُهُمْ وَنَرُدُّ الجَرْحَى وَالقَتْلَى إِلى المَدِينَةِ) .

ومنها الحديث الذي رواه مسلم بسنده عَنْ يَزِيدَ بْنِ هُرْمُزَ أَنَّ نجْدَةَ[١] كَتَبَ إِلى ابْنِ عَبَّاسٍ يَسْأَلُهُ عَنْ خَمْسِ خِلالٍ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : (لَوْلا أَنْ أَكْتُمَ عِلْمًا مَا كَتَبْتُ إِلَيْهِ ، كَتَبَ إِلَيْهِ نجْدَةُ : أَمَّا بَعْدُ فَأَخْبِرْنِي هَلْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَغْزُو بِالنِّسَاءِ ؟ وَهَلْ كَانَ يَضْرِبُ لَهُنَّ بِسَهْمٍ ؟ وَهَلْ كَانَ يَقْتُلُ الصِّبْيَانَ ؟ وَمَتَى يَنْقَضِي يُتْمُ اليَتِيمِ ؟ وَعَنِ الخُمْسِ لِمَنْ هُوَ ؟ فَكَتَبَ إِلَيْهِ ابْنُ عَبَّاسٍ : (كَتَبْتَ تَسْأَلُنِي : هَلْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَغْزُو بِالنِّسَاءِ ؟ وَقَدْ كَانَ يَغْزُو بِهِنَّ فَيُدَاوِينَ الجَرْحَى وَيُحْذَيْنَ[٢] مِنَ الغَنِيمَةِ ، وَأَمَّا بِسَهْمٍ فَلَمْ يَضْرِبْ لَهُنَّ ، وَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمْ يَكُنْ يَقْتُلُ الصِّبْيَانَ ، فَلا تَقْتُلِ الصِّبْيَانَ ، وَكَتَبْتَ تَسْأَلُنِي : مَتَى يَنْقَضِي يُتْمُ اليَتِيمِ ؟ فَلَعَمْرِي إِنَّ الرَّجُلَ لَتَنْبُتُ لِحْيَتُهُ ، وَإِنَّهُ لَضَعِيفُ الأَخْذِ لِنَفْسِهِ ضَعِيفُ العَطَاءِ مِنْهَا ، فَإِذَا أَخَذَ لِنَفْسِهِ مِنْ صَالِحِ مَا يَأْخُذُ النَّاسُ ، فَقَدْ ذَهَبَ عَنْهُ اليُتْمُ ، وَكَتَبْتَ تَسْأَلُنِي عَنِ الخُمْسِ لِمَنْ هُوَ ؟ وَإِنَّا كُنَّا نَقُولُ : هُوَ لَنَا ، فَأَبَى عَلَيْنَا قَوْمُنَا ذَاكَ) .

ومنها الحديث المرسل الذي أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن الزهري قال : (كان النساء يشهدن مع النبي ﷺ المشاهد ، ويسقين المقاتلة ، ويداوين الجرحى) .

ومنها ما رواه أبو داود في سننه من طريق حشرج بن زياد عن جدته « أنهن خرجن مع النبي ﷺ في حنين ، وفيه : أن النبي سألهن عن ذلك ، فقلن : خرجنا نغزل الشعر ، ونعين في سبيل الله ، ونداوي الجرحى ، ونناول السهام ، ونسقي السويق » .

إلى غير ذلك من الأحاديث في هذا المقام[٣] .

ومن هذه الأحاديث يتبين لنا جليًا أن المرأة المسلمة قامت بألوان من الجهاد التي تليق

---

(١) هو نجدة الحروري من الخوارج ، وقد كان ابن عباس يكرهه لبدعته ، ولكن لما سأله عن مسائل من العلم لم يسعه إلا إجابته حتى لا يعد فيمن يكتمون العلم .

(٢) يحذين : بضم الياء وفتح الذال مبنيًا للمجهول أي يعطين على سبيل الرضخ لا على سبيل السهم وهو مذهب جماهير العلماء ، وقال الأوزاعي : تستحق السهم إن كانت تقاتل أو تداوي الجرحى ، وقال مالك : لا رضخ لها وهذان المذهبان مردودان بهذا الحديث الصحيح الصريح .

(٣) انظر صحيح البخاري ، كتاب الجهاد ، باب غزو النساء وقتالهن مع الرجال ، وصحيح مسلم كتاب الجهاد ، باب غزو النساء مع الرجال .

بها ، وأنها سبقت المرأة الغربية في هذا ، وقد كان خلفاء المسلمين يعرفن للنساء الغازيات المجاهدات فضلهن .

روى البخاري في صحيحه أنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ رضي الله عنه (قَسَمَ مُرُوطًا[١] بَيْنَ نِسَاءٍ مِنْ نِسَاءِ المدينة فَبَقِيَ مِنْهَا مِرْطٌ جَيِّدٌ فَقَالَ لَهُ بَعْضُ مَنْ عِنْدَهُ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ أَعْطِ هَذَا بِنْتَ رَسُولِ اللهِ الَّتِي عِنْدَكَ - يُرِيدُ أُمَّ كُلْثُومٍ بِنْتَ عَلِيٍّ - فَقَالَ عُمَرُ : أُمُّ سَلِيطٍ أَحَقُّ بِهِ منها ، قَالَ عُمَرُ : فَإِنهَا كَانَتْ تُزْفِرُ[٢] لَنَا القِرَبَ يَوْمَ أُحُدٍ) .

وكانت النساء يقمن بهذه الخدمات وأنواع الجهاد ، وهن على حالة من الوقار والاحتشام ، وعدم التبرج ، والمخالطة المريبة ، والإسلام لا يمنع المرأة من المشاركة في الحرب بما يليق بحالها ، بل ومن التسلح بالسلاح للدفاع عن نفسها ، وحماية شرفها كما سمعنا من أم سليم ، بل ومن المشاركة في القتال إذا لزم الأمر ، وذلك كما فعلت السيدة أم عمارة نسيبة بنت كعب الأنصارية ، فإنها في غزوة أحد خرجت لتسقي العطشى وتمرض الجرحى ، وكانت الريح للمسلمين ، فلما ذهبت ريحهم وبدت الهزيمة ، ألقت بسقائها ، وأخذت السيف وصارت تقاتل وتناضل عن رسول الله ﷺ ، وقد أحاط به المشركون ، ولم تزل تقاتل حتى سقطت مغشيًا عليها من جراحها وآلامها ، وساحدثك في مقال آت عن شيء من بطولتها[٣] ، فرضي الله عنها ، ورضي الله عن النساء المسلمات الغازيات المجاهدات وأرضاهن .

❊ ❊ ❊

(١) جمع مرط : كساء جيد من صوف أو حرير تتلفح به المرأة .

(٢) تزفر مثل تحمل وزنًا ومعنى .

(٣) لمزيد من مناقب السيدة نسيبة ، راجع كتاب « من أعلام الإسلام » للمؤلف - نشر مكتبة السنة . [الناشر] .

[٨] من هدي السنة في تزكية النفس

(1) من جوامع كلمه ﷺ[١]

روى الإمام الترمذي في سننه بسنده عن الحارث قال : مرت في المسجد فإذا الناس يخوضون في الأحاديث ، فدخلت على علي ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، ألا ترى الناس قد خاضوا في الأحاديث ؟ قال : أو قد فعلوها ؟ قلت : نعم ، قال : أما إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ألا إنها ستكون فتنة » ، قلت : وما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : « كتاب الله ، فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق عن كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه ، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن : ١- ٢] . من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم »[٢] .

نعم إنه لمن جوامع كلمه ﷺ التي خص بها ، وما أكثرها من جوامع ، وما أحفلها بالبيان المبين ، والبلاغة الفائقة ، والحكم البالغة ، والأغراض السامية ، والإشارات الصادقة ، والومضات الموحية بشتى المعاني والأفكار .

---

(١) مجلة الحج عدد ٣ سنة ١٨.

(٢) قال الترمذي فيه : « حديث غريب وإسناده مجهول ، وفي حديث الحارث مقال » ، ولكن ذكره الحافظ ابن كثير في « فضائل القرآن » له وتعقب كلام الترمذي بما يدل على اعتماده للحديث ، وكذلك ذكره الحافظ جلال الدين السيوطي في « الاتقان » ، وقال : أخرجه الترمذي والدارمي وغيرهما وسكت عنه وما من فقرة في الحديث إلا ولها شواهد ، والمتأمل فيه يجد قبسًا من نور النبوة ، وحكمًا من ينابيع الوحي ، وجامعة من جوامع كلمه ﷺ مما يجعل القلب يطمئن إليه .

* قُلْتُ : وقد ذهب الشيخ الألباني إلى تضعيف الحديث ، كما في السلسلة الضعيفة (رقم ١٧٧٦) . [الناشر] .

إني لا أقرأ هذا الحديث الذي هو من نبع الوحي والإلهام إلا أكاد أخر ساجدًا من سحر بلاغته، وصدق معانيه، وجمال مبانيه، ونبالة مراميه، وإتقان أحكامه، وحسن تفصيله، نعم، إن كل فقرة من فقرات هذا الكلام النبوي البليغ لا يقوم بحقها إلا كتاب، فكيف بي وأنا أريد أن أجملها في مقال لا يعدو بضع صفحات من صحائف هذه المجلة الزهراء، فلأنزل على حكم الظروف، وأوجز المقال، وقد يكون في الإيجاز ما يغني عن الإطناب.

« فيه نبأ من قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل ».

نعم، فيه قصص الأنبياء السابقين، والأقوام الغابرين، وأنباء ما كان يعلمها أحد حتى أحبار الدين الذين انقطعوا عن الدنيا وتفرغوا لدراسة كتب الأولين وقصص السابقين، وصدق الله: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩]. ولقد جاء هذا القصص الصادق الواقعي ليكون دليل صدق على أنه نبي يوحى إليه من رب العالمين، فما كان ﷺ بقارئ لكتب الأولين، ولا جلس إلى معلم قط، ولا أخذ عن أحد من أحبار اليهود ورهبان المسيحيين، وصدق الحق تبارك وتعالى حيث يقول: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١]. ويقول: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨- ٤٩].

وكذلك أشار القرآن في غير ما آية إلى بعض الأحداث المستقبلة، والعدات الجميلة الصادقة بالنصر والتأييد والتمكين في الأرض للمؤمنين الصادقين الذين يعملون الصالحات، والتوعد بالعذاب والنوازل القارعة للكافرين الجاحدين الساعين في الأرض بالإفساد والظلم والاستعباد والاستبداد، ثم هو هداية الخالق لإصلاح الخلق وشريعة السماء لأهل الأرض، والدستور العام الخالد الذي دونه كل دستور وكل قانون، وهو الحكم والمرجع في كل شيء، في العقائد والأخلاق، وفي العبادات والمعاملات، وفي الحدود والجنائيات، وفي الاقتصاد والسياسة، والسلم والحرب، والمعاهدات والعلاقات

الدولية ، وهو في كل ذلك حكيم غاية الحكمة ، محكم كل الإحكام ، ولا يعتريه خلل ولا اختلاف ، ولا نقض ولا إبطال ، وصدق الحق تبارك وتعالى حيث يقول : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] . وقال : ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١- ٤٢] .

فلا تعجب إذا كان السعادة الحقة لا تنال إلا بالاهتداء بهديه ، والتزام ما جاء به قولًا وعلمًا وعملًا ، وإن كان الشفاء لأمراض النفوس وأدواء المجتمع فاهتدت به القلوب بعد ضلال ، وأبصرت به العيون بعد عمى ، واستنارت به العقول بعد جهالة ، واستضاءت به الدنيا بعد ظلمات ، وصدق الله حيث يقول : ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإسراء: ٩- ١٠] . ويقول : ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢] . ويقول : ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥- ١٦] .

وليس أدل على هذه الحقيقة من إفلاس القوانين الوضعية البشرية في إصلاح الكون وأحوال المجتمع ، وأن هذا القرآن أيام أن كان هو الحكم والقول الفصل في الدولة الإسلامية كَوَّنَ أفضل مجتمع بشري عرفته الدنيا في تاريخها الطويل ، دينًا وخلقًا ، وعلمًا وعملًا ، وعدلًا وإخاء ، وتعاطفًا وتراحمًا ، وبرًّا وتعاونًا .

« هو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء » .

يعني لا تميل به الأهواء المضلة عن سنن الحق والهدى والاستقامة ، لأن طريقه واضح ، وصراطه مستقيم ، وقد تأول كثيرون من أهل الأهواء بعض آياته وحاولوا أن يميلوا بها إلى ما يؤيد باطلهم ، فما تم لهم ما أرادوا ، ثم هو لا يتعسر على ألسنة المؤمنين الراغبين في قراءته ولو كانوا من غير العرب ، لأن الله يسره لكل لسان وسهله لكل راغب ، وصدق الله : ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧] .

« ولا يشبع منه العلماء » .

لغزارة علومه ، وكثرة مشتهياته ، وكلما اطلعوا على شيء منه اشتاقوا إلى غيره ، فهو مائدة لا تنفد أصنافها ، ولا تنقطع خيراتها وبركاتها ، وحديقة فينانة[١] ثمارها ، شهية كثيرة ، لا مقطوعة ولا ممنوعة ، وقد أشار إلى هذا المعنى الدقيق من خص بجوامع الكلم ، فقال : « القرآن مأدبة الله ، فأتوا مأدبته ما استطعتم » .

« ولا يخلق عن كثرة الرد » .

لا يبلى ولا تسأمه النفس بالتكرار ، فكلما كررته لا يزداد إلا حلاوة وطلاوة ، وتلك – لعمر الحق– خصيصة من خصائص القرآن ، ومن كان في شك من هذا فليستفت الذوق والوجدان ، والقلب والآذان ، وليوازن في هذا بين كلام الرحمن ، وكلام الإنسان ، وحينئذ يستذوق ، ومن ذاق عرف ، ومن عرف اعترف ، ومهما تعاقبت على هذا الكتاب العزيز الأجيال والسنون لا يزداد إلا جدة وطرافة ، ولا يزال غضًّا طريًّا شهيًّا كما أنزل ، وكلما تقدمت العلوم والمعارف الإنسانية تكشف للناس منه العجب العجاب ، وصدق الله : ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فُصِّلَت : ٥٣] .

وبعد ، فلعلك يا أخي القارئ أخذك العجب من هذا الحديث كما أخذني ، فلترطب لسانك بقراءة القرآن ، ولتضيء جوانب نفسك بنور هذا الكتاب الكريم ، ولتجعله وردك في مصبحك وممساك ، وحجتك عند الله في حياتك وأخراك .

❋ ❋ ❋

(١) الفنن محرّكة : الغصن ، وامرأة فَيْنَانة : كثيرة الشعر . القاموس : مادة (فنن) . [الناشر] .

(2) من جوامع كلمه ﷺ[(١)]

روى الطبراني في معجمه الأوسط بسنده عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال : « ثلاث مهلكات ، وثلاث منجيات ، وثلاث كفارات ، وثلاث درجات ، فأما المهلكات فشح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه ، وأما المنجيات فالعدل في الغضب والرضا ، والقصد في الفقر والغنى ، وخشية الله في السر والعلانية ، وأما الكفارات فانتظار الصلاة بعد الصلاة ، وإسباغ الوضوء في السبرات ، ونقل الأقدام إلى الجماعات ، وأما الدرجات فإطعام الطعام ، وإفشاء السلام ، والصلاة بالليل والناس نيام » .

هذا الحديث الشريف من الأحاديث الجامعة الفذة والحكم النابغة الصائبة ، والكلم الجوامع ، اشتمل على جملة من أدب الدين والدنيا ، والتوجيهات النبوية السديدة التي لا تصدر إلا عمن لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ، وقد جمع إلى جمال اللفظ ، ودقيق المعنى حسن السبك ، وبديع الترتيب ، فقد ذكر أولًا الثلاث المهلكات التي لا يكون المسلم مسلمًا حقًّا إلا بالتخلي عنها وتطهير نفسه منها ، ثم ذكر الثلاث المنجيات التي لا يكمل إيمان امرئ إلا بالتحلي بها والتخلق بآدابها والتزامها عملًا وسلوكًا ، ثم الثلاث الكفارات التي تكفر الذنوب وتمحو السيئات ، ثم الثلاث الدرجات التي بها يكون المسلم مليًا بالحسنات ، وتنتهي به إلى سكنى الغرفات في الجنات ، وليس من شك أن التحلي بالآداب والفضائل يسبقها ولا محالة التخلي والبعد عن الرذائل ، وأن رفعة الدرجات يسبقها غفران الزلات والسيئات .

وسيكون حديثنا في هذا المقال عن « الثلاث المهلكات » ، وهي : شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه ، وحقًّا إنها المهلكات ، وإليك البيان .

فأما الرذيلة الأولى فهي الشح المطاع ، والشح : البخل ، وقيل : أشد البخل وأرذله ، فهو بخل مع حرص ، والشح من الصفات اللازمة لكثير من بني الإنسان ، وصدق الله حيث يقول : ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨] . والرجل الذي يرعى حق نفسه وأهله وولده ويؤدي زكاة ماله ويبذل منه في سبيل الله فيقري الضيف ، ويعطي في النوائب ،

(١) مجلة الحج السعودية ، عدد ٤ سنة ١٨.

ويعين ذا الحاجة ، ويساهم في إصلاح المجتمع ببناء المساجد والمدارس والملاجئ والمستشفيات والمصحات رجل بريء من الشح ، ومن بريء من الشح فقد أفلح في دنياه وأخراه ، وصدق اللّه حيث يقول : ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر : ٩] .

والشحيح مهلك لنفسه ولأهله ولوطنه ، ولن ترقى المجتمعات التي يسود فيها هذا الداء ، ومع أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه كان أجود بالخير من الريح المرسلة فقد كان كثيرًا ما يقول في دعائه : « اللهم إني أعوذ بك من شح نفسي ، وإسرافها ، ووساوسها » . وكان الصحابة كثيرًا ما يتعوذون منه ، وقد أفصح عن سر التعوذ من هذا المرض الوبيل . قال أبو الهياج الأسدي : رأيت رجلًا في الطواف يقول : اللهم قني شح نفسي ، لا يزيد عن ذلك ، فقلت له في ذلك فقال : (إني إذا وقيت شح نفسي لم أسرق ، ولم أزن ، ولم أفعل ...) . فإذا الرجل عبد الرحمن بن عوف ، وقد صدق رضي الله تعالى عنه ، فالشح إذا استولى على النفس امتدت – مهما كثر مالها – إلى مال الغير ، وتعدت على حرمات الغير ، وكانت دائمًا في تطلع إلى ما عند الغير .

ولما تولى الفاروق رضي الله تعالى عنه الخلافة قال في أول خطبة له : (اللهم إني شديد فليني ، وإني ضعيف فقوني ، وإني بخيل فسخني) ، وذلك حتى لا يقصر في حق أحد من ذوي الحقوق من الرعية ، وقد جعله الرسول صلوات الله وسلامه عليه من شر الصفات ، فقال : « شر ما في الإنسان بخل هالع ، وجبن خالع » ، وروي أن النبي قال للأنصار : « من سيدكم ؟ » ، قالوا : الجد بن قيس على بخل فيه ، فقال النبي ﷺ : « وأي داء أدوى من البخل » . وذكر عن بعض الملوك أنه قال لأصحابه : أي شيء أضر بابن آدم ؟ قالوا : الفقر ، فقال لهم : الشح أضر من الفقر ، لأن الفقير إذا وجد شبع ، والشحيح إذا وجد لم يشبع أبدًا .

وقد ضرب الرسول الكريم للسخاء والشح مثلين دقيقين ، فقال : « السخاء شجرة من شجر الجنة ، أغصانها متدلية إلى الأرض ، فمن أخذ منها غصنًا قاده ذلك إلى الجنة ، والشح شجرة من النار ، فمن كان شحيحًا أخذ بغصن من أغصانها فلم يتركه ذلك الغصن حتى يدخله النار » . وقد كان رسول الله ﷺ أجود الناس ، وأسخى الناس ، ما قال :

« لا » قط لذي حاجة ، وكان يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة ، وكان إذا سأله أحد شيئًا وليس عنده يقترضه له ثم يعطيه إياه ، وأحيانًا كان يكون عليه الإزار الحسن أو الرداء الجيد فيأتي إليه الرجل فيقول : يا رسول الله ، اكسنيها ، ما أحسنها . فما أن يرجع إلى بيته حتى يخلعها ويرسلها إلى من طلبها منه عن سخاء وطيب نفس ، ولما قال له بعض أصحابه : إن الله لا يكلفك فوق ما تطيق ، غضب ، ولما قال له الآخر : انفق ولا تخف من ذي العرش إقلالًا ، سر وانشرحت نفسه ، وكان كثيرًا ما يتخول أصحابه بالمواعظ الحسنة في باب البر والسخاء وضرب الأمثال البينات ، والعظات المؤثرات من مثل ما رواه البخاري في صحيحه عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو أو قَلَّ طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية ، فهم مني وأنا منهم » . ومعنى أرملوا : فرغ زادهم أو كاد ، وكثيرًا ما كان يقول لهم في أسفاره : « من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له » ، وذكر من أصناف الأموال ما ذكر حتى رأى أصحابه أنه لا حق لأحد منهم في فضل ، فلا عجب أن كان صحابة رسول الله أسخياء كرماء ، وأن ضربوا في باب السخاء والإيثار مثلًا عليا لا تزال مضرب الأمثال ، وما إيثار الأنصار للمهاجرين بأموالهم ، بل والرغبة في التنازل لهم عن بعض نسائهم كي يتزوجوهن طيبة بذلك نفوسهم بالأمر المجهول ، وكان جزاؤهم أن أنزل الله في شأنهم قرآنًا يتلى إلى يوم الدين ، وصدق الحق تبارك وتعالى حيث يقول : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر : ٩] .

وفي صحيح البخاري عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ : إني مجْهُودٌ ، فَأَرْسَلَ إِلى بَعْضِ نِسَائِهِ فَقَالَتْ : وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ مَا عِنْدِي إلا الماء ، ثمَّ أَرْسَلَ به إلى أُخرَى فَقَالَتْ مِثْلَ ذَلِكَ ، وقُلْنَ كُلُّهُنَّ مِثْلَ ذَلِكَ ، فَقَالَ رَسُولِ اللَّه ﷺ : « مَن يضيفه يَرحمهُ اللَّه » . فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ ، يقال له : أَبو طَلحة فَقَالَ : أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ ، فَانْطَلَقَ بِهِ إِلى رَحْلِهِ ، فَقَالَ لامْرَأَتِهِ : هَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ ؟ قَالَتْ : لا ، إلا قُوتُ صِبْيَاني ، قَالَ : فَعَلِّلِيهِمْ

بِشَيْءٍ ونوميهم ، فَإِذَا دَخَلَ ضَيْفُنَا فَأَرِيهِ أَنَّا نَأْكُلُ ، فَإِذَا أَهْوَى لِيَأْكُلَ فَقُومِي إِلى السِّرَاجِ كي تصليحه فاطفئيه ، ففعلت ، وقعدوا وَأَكَلَ الضَّيْفُ ، وَبَاتَا طَاوِيين ، فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا عَلَى رسول اللّٰه ﷺ فَقَالَ : « لقَدْ عَجِبَ اللهُ مِنْ صَنِيعِكُمَا بِضَيْفِكُمَا اللَّيْلَةَ » .

وقد أنذر رسول الله الأمة من الشح وحذرهم من عاقبته الوخيمة ، وأنه كثيرًا ما يؤدي إلى التقاطع والتدابر وسفك الدماء وانتهاك الحرمات ، بل إلى ما هو أشد من ذلك ، وهو استحلالها ، والإنسان قد يفعل المحرم وهو معترف بحرمته ، ولكن أشنع الإثم وأعظم الجرم أن يتناول المحرمات مستحلًّا لها ، حينئذ تقع فتنة في الأرض وفساد كبير .

روى الإمام مسلم في صحيحه عَنْ جَابِرٍ رضي اللّٰه عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « اتَّقُوا الظُّلْمَ ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ القِيَامَةِ ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا محَارِمَهُمْ » .

❊ ❊ ❊

(3) من جوامع كلمه ﷺ[1]

قال رسول الله ﷺ – من حديث رواه الطبراني في معجمه الأوسط – : « ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه » .

في المقال السابق تحدثت عن الرذيلة الأولى ، الشح المطاع ، وفي هذا المقال سأتحدث عن الرذيلتين الأخريين ، وهما ، الهوى المتبع ، وإعجاب المرء بنفسه .

الهوى المتبع :

الناس فريقان ، فريق يسير وفق الشريعة التي شرعها الله ، والسنن التي سنها رسول الله ، وهواه تبع لما جاء به ، وهذا الفريق– ولا شك– مهتد في دنياه وفي أمور أخراه ، وبالغ– ولا محالة– سعادة الدنيا والآخرة .

وفريق لا يسير إلا وفق أهوائه حتى أصبح أسير الهوى ، وعبد الشهوات ، وهذا ضال في دنياه ، وشقي في أخراه ، وليس أضر على الإنسان من أن يصم أذنيه عن دعوة الحق ، ويفتحها للباطل ، وقد ذم الحق تبارك وتعالى من اتخذ إلهه هواه ، سواء أكان ذلك في العقائد الباطنية ، أم في الأقوال والأفعال الظاهرية ، فقال سبحانه : ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية : ٢٣] . وتأمل يا أخي القارئ في قوله سبحانه : ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ ، لتعلم أن بعض العلم لا ينفع صاحبه ، وأنه قد يطغي صاحبه ويغويه ، والعلم الذي لا يكون له أثر في اعتقاد صاحبه ولا يكون له أثر حسن في سلوك صاحبه وأخلاقه وسمته هو أضر على صاحبه من الجهل .

ومما يؤسف له غاية الأسف أن كثيرًا من الذين تعلموا علمًا دنيويًّا إذا وصلوا إلى مستوى من المعرفة أو حصلوا على بعض الإجازات العلمية أن لا يحفلوا بالتدين ، ولا بالقيام بفروض الله وتكاليفه ، ويخيل إليهم جهلًا وغرورًا أنهم ليسوا في حاجة إلى تكاليف الشرع التي تنير القلوب ، وتزكي النفوس ، وتسمو بالأرواح ، لأنهم وصلوا إلى درجة تجعلهم في غير حاجة إلى هذه التكاليف ، وإنما يحتاج إليها الجهلاء والأميون الذين هم في

---

(١) مجلة الحج السعودية العدد ٥، السنة ١٨.

حاجة إلى عاصم يعصمهم من الوقوع في مهاوي الشرور والآثام إلى غير ذلك من الدعاوى الجوفاء الفارغة التي يؤذون أسماعنا بها ، وليس أدل على تهافت هذه الدعاوى وسقوطها وأنها تمويه وتزييف واحتيال على التخلص من تكاليف الدين من أن هؤلاء المغرورين أعمالهم وسلوكهم يكذب كلامهم ، فهم منغمسون إلى آذانهم في حمئات من الرذائل والتحلل الأخلاقي ، والشذوذ والانحراف ، وفي هؤلاء وأمثالهم يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم : ٦- ٧] .

وصدق الله سبحانه ، فالعلم الأصيل هو العلم الذي يضيء قلب صاحبه ، ويقوم سلوكه ويوصله إلى النعيم المقيم ، نعيم الآخرة ، ونعيم الدنيا ، مهما بلغ فهو متاع قليل ، ومآله إلى الزوال ، إن هذه اللوثة والحماقة لمستها كثيرًا بين جمهرة كبيرة من المتعلمين ، ولا سيما الذين ذهبوا إلى جامعات الغرب ومعاهده ، ولا تكاد تميز الواحد منهم عن أي أهل ملة أخرى ، لأن سمته ليس سمت مسلم ، ومنهجه في السلوك الأخلاقي والاجتماعي ليس منهج مسلم ، وهؤلاء وأمثالهم ضحايا الهوى المتبع ، وإذا تتبعنا لفظ الهوى في القرآن الكريم وجدناه لا يجيء إلا مقرونًا بالذم ، وأقبح الصور والصفات ، قال سبحانه : ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف : ١٧٥ - ١٧٦] .

وقال سبحانه في سورة الكهف : ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف : ٢٨] .

وقال سبحانه في سورة الروم : ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [الروم : ٢٩] .

وقال تعالى في سورة القصص : ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص : ٥٠] .

وقال سبحانه في سورة (ص) مخاطبًا نبيه داود عليه السلام : ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦] .

وقال سبحانه في سورة المؤمنون : ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون : ٧١] .

وقد جاءت أحاديث معلم البشرية ومنقذ الإنسانية نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه منفرة من اتباع الهوى والخضوع له ، ففي الحديث الذي رواه أبو أمامة قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « ما عبد تحت السماء إله أبغض إلى الله من الهوى » . وفي الحديث أيضًا : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني » .

وقد وضع لنا النبي ﷺ معيارًا للإيمان الصادق ، فقال : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به » ، فالمؤمن حقًّا هو الذي لا يهوى إلا ما يريده الشرع الإسلامي الحنيف ، أما الرجل المزعزع الإيمان فيكون من هواه كالريشة في الهواء ، أينما الريح تملها تمل ، وإذا كان اتباع الهوى مهلكًا فهو أشد إهلاكًا وأسوأ عاقبة من العلماء والقضاة والمفتين والأمراء وغيرهم ممن بيدهم مصائر الناس ومقاليد الأمور ، فليتق الله هؤلاء ، وليجردوا أنفسهم من الأهواء ، وليتمثلوا قول الحق تبارك وتعالى : ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٣٩ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات : ٣٧- ٤١] . وإلا فسدت أمور الدين والدنيا ، واختل نظام المجتمع .

وقال الصحابي الجليل أبو الدرداء رضي الله عنه : (إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعمله وعلمه ، فإن كان عمله تبعًا لهواه فيومه يوم سوء ، وإن كان عمله تبعًا لعلمه فيومه يوم صالح) . وقال سهل بن عبد الله التستري- رحمه الله- : (هواؤك داؤك ، فإن خالفته فدواؤك) ، ومن الحكم : ترك نفسك وهواها ، سعي لها في رداها .

الرذيلة الثالثة : إعجاب كل ذي رأي برأيه :

وهذه الرذيلة أثر من آثار الاغترار بالنفس واتباع هواها وعدم الخضوع لموازين الحق

والخير . والرجل الذي بهذه المثابة أو المرأة يرى الحق باطلًا ، والباطل حقًّا ، والخير شرًّا ، والشر خيرًا ، وإن أضر شيء على الأمم والجماعات أن تختل عند أفرادها المعايير الـخُلُقية والأدبية ، والمجتمع الذي بهذه المثابة لا يرجى له خير ، وفي التعبير بالإعجاب سر دقيق ، فصاحب الرأي قد يتبع رأيه من غير إعجاب ، ولكنه إذا أعجب برأيه وتخيل أنه الرأي الذي لا رأي بعده فحينئذ تكون الطامة ، لأنه يعسر جدًّا إرجاعه عنه ، فتكون فتنة في الأرض وفساد كبير ، وفي الكتاب الكريم : ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣- ١٠٤] .

وبسبب هذه الرذيلة انقسمت الأمم فرقًا وأحزابًا وشيعًا ، وتخاصمت وتقاطعت وتدابرت ، وقد سما الله برسوله محمد أن يكون من أهل التفرق والتشيع ليعتبر المسلمون بذلك فقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩] .

ولا يزال العالم إلى يومنا هذا تتنازعه الآراء الضارة والمذاهب الفاسدة ، وأصبح كل من يبدو له رأي أو تنبت في رأسه فكرة يعجب بها ويدعو إليها حتى أصبح العالم كتلًا وشيعًا وأحزابًا ، وسادته موجات من الإلحاد والكفر بأنعم الله ، وها هو يسير بخطى واسعة إلى الفناء والدماء ، إلا أن يتداركه الله سبحانه برحمته وهو أرحم الراحمين .

* * *

(4) من جوامع كلمه ﷺ :

« الثلاث المنجيات »[1]

روى الطبراني في معجمه الأوسط أن النبي ﷺ قال : « ثلاث مهلكات ، وثلاث منجيات ، وثلاث كفارات ، وثلاث درجات ، فأما المهلكات فشح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه ، وأما المنجيات فالعدل في الغضب والرضا ، والقصد في الفقر والغنى ، وخشية الله في السر والعلانية ، وأما الكفارات فانتظار الصلاة بعد الصلاة ، وإسباغ الوضوء في السبرات ، ونقل الأقدام إلى الجماعات ، وأما الدرجات فإطعام الطعام ، وإفشاء السلام ، والصلاة بالليل والناس نيام » .

وقد قدمنا الكلام على الثلاث المهلكات ، وحديثنا اليوم عن الثلاث المنجيات .

العدل في الغضب والرضا :

والعدل كلمة جامعة شاملة لعدل الأئمة والخلفاء والملوك والرؤساء مع الرعايا والشعوب ، وعدل القاضي في قضائه ، والشاهد في شهادته ، وعدل الآباء مع الأبناء ، والأزواج مع الزوجات ، وعدل الأفراد بعضهم مع بعض ، وأجل أنواع العدل وأعظمها أثرًا عدل الأئمة والملوك والأمراء ، وعدل القضاة والشهداء ، إذ بعدل هؤلاء يستقيم الملك ، وتصلح أحوال الشعوب ، ويطمئن كل فرد على نفسه ودينه وعرضه وماله ، والإسلام مَجَّد العدل ، ورفع من شأن أهله ، فالله سبحانه أمر بالعدل في غير ما آية ، قال عز شأنه : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ﴾ [النحل : ٩٠] . وقال : ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ [النساء : ١٣٥] .

والنبي ﷺ جعل الإمام العادل في مقدمة السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله ، ففي الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ : « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ بظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ ، إِمَامٌ عَادِلٌ ، وَشَابٌّ نَشَأَ في عِبَادَةِ اللهِ ،

---

(١) مجلة الحج السعودية ، العدد ١١، السنة ١٨.

وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بالمَسَاجِدِ ، وَرَجُلانِ تَحَابَّا في اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِني أَخَافُ اللهَ ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتى لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ » .

والمراد بالإمام كل من ولي أمرًا من أمور المسلمين ، فيشمل الإمام الأعظم ، ومن دونه من أمير أو رئيس أو وزير أو قاض أو شرطي ... الخ .

وفي الحديث الذي رواه الإمام مسلم عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بن العاص رضي الله عنهما قال : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « إِنَّ المُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحمَنِ عَزَّ وَجَلَّ وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ الَّذِينَ يَعْدِلُونَ في حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا » . وأنعم بها منزلة لا يسمو إليها إلا أهل العدل بشهادة الصادق المصدوق ﷺ .

وإذا كان العدل عند الرضا فضيلة مطلوبة فهو عند الغضب من أفضل الفضائل ، وأسماها ، فالنفس البشرية تكون عند الرضا أقرب إلى العدل ، وأرغب في الحق والخير ، لكنها عند استيلاء الغضب تكون أبعد عن العدل والحق ، وأقرب إلى الجور والظلم ، فلا تعجب إذا كان الإسلام رغب في العدل عند الغضب وجعله أمارة على حسن الخلق ، وقوة النفس ، وفي ذكر الغضب قبل الرضا بلاغة وأية بلاغة ، فإن في هذا إشارة إلى أنه ينبغي أن يكون عدل المسلم في غضبه كعدله في رضاه ، وما أروعه من أسلوب ممن أوتي جوامع الكلم .

وقد أدب القرآن المسلمين بهذا الأدب العالي ، قال تعالى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ ﴾ [المائدة : ٢] .

روى ابن أبي حاتم بسنده عن زيد بن أسلم قال : كان رسول الله ﷺ بالحديبية وأصحابه حين صدهم المشركون عن البيت ، وقد اشتد ذلك عليهم ، فمر بهم أناس من المشركين من أهل المشرق يريدون العمرة ، فقال أصحاب النبي ﷺ : نصد هؤلاء كما صدنا أصحابهم ، فأنزل الله هذه الآية ، وقال عز شأنه أيضًا : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ ﴾ [المائدة : ٨] . بل سما الإسلام في باب العدل فأمر به مع الأعداء ، وطلب منهم

أن يضبطوا نفوسهم عند النصر والظفر ، فلا يجاوزوا الانتصار إلى الاعتداء ، ففي غمرة من الحزن على شهداء أحد والغضب على المشركين لما مثلوا بهم قال المسلمون : (لئن أصبنا منهم لنربين عليهم) ، فأنزل الله سبحانه قوله : ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل : ١٢٦- ١٢٨] .

ومن المثل العليا في هذا ما روي أن زيد بن سعنة – وكان يهوديًا – جاء إلى النبي ﷺ يتقاضاه دينًا له ، فجذب ثوبه عن منكبه ، وأخذ بمجامع ثيابه ، وأغلظ للنبي في القول ، وقال له : (إنكم يا بني عبد المطلب قوم مطل) ، فهمَّ الفاروق عمر أن يبطش به ، فمنعه النبي وقال له : « أنا وهو كنا إلى غير هذا منك أحوج يا عمر ، تأمرني بحسن الأداء ، وتأمره بحسن التقاضي » ، وقال : « لقد بقي من أجله ثلاث » ، وأمر سيدنا عمر أن يقضيه دينه ويزيده عشرين صاعًا بسبب ترويعه له ، فدهش زيد من هذا الأدب النبوي العالي فكان سبب إسلامه .

الفضيلة الثانية :

القصد في الفقر والغنى ، أي رعاية الاعتدال فلا يكون مقترًا ممسكًا ، ولا مبذرًا مسرفًا ، والفضيلة وسط بين رذيلتين ، وقد ذكر القرآن الكريم من صفات عباد الرحمن : ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان : ٦٧] . وقال أيضًا : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء : ٢٩] .

فمن قتر وأمسك فقد عرض نفسه لغضب الله ولوم الناس ، ومن بذر وأسرف فلابد يومًا ما أن يقعد ذليلًا كسيرًا ، لا يجد ما يقيم صلبه ، وما ينفقه على عياله ، ويكون مآله إلى التكفف والسؤال ، وهذان الداءان : البخل والإسراف ، من الأمراض التي جرت على المجتمع الإسلامي التأخر وسوء الحال ، فكم من موسر مكتنز للأموال لا يبسط يده بالخير ولا ينبض قلبه بالرحمة ولا يساهم في أي عمل خيري يعود على الأمة بالرفاهية والسعادة ، وكم من مسرف مبذر أنفق كل ما يملك في سبيل الشيطان ووقع فريسة في يد المرابين ،

وبهذا انتقلت الثروات الكثيرة إلى اليهود والأجانب ، وتخربت بيوت ، واستذلت شعوب .

الفضيلة الثالثة :

خشية الله في السر والعلن ، وخشية الله سبحانه أساس لتحصيل كل خير ديني ودنيوي وفضيلة ، والبعد عن الشرور والرذيلة ، ومن راقب الله في جهره وسره طابت له دنياه ، واكتسب النعيم المقيم في أخراه ، وإنما تكون هذه الفضيلة منبئة عن اليقين والإخلاص إذا كانت في السر كما هي في العلن ، والخشوع قد يكون في العلن نفاقًا ورياء ، ولكنه في السر ينبئ عن اليقين والإخلاص ، وفي الحديث المذكور آنفًا عن السبعة الذين يظلهم الله بظله : « ورجل ذكر الله في خلاء ففاضت عيناه » ، وكلما قويت معرفة العبد بربه وبصفاته وجلاله وكماله كلما قويت خشيته ، وعظمت مراقبته ، ولذا كان العلماء العارفون بالله أشد الناس خشية ، وصدق الله : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ [فاطر : ٢٨] .

وكان السلف الصالح من هذه الأمة ولهم في هذا قصص ومثل عليا يضيق المقام عن ذكرها ، وكان الواحد منهم يسمع الآية من كتاب الله فيكاد يصعق من خشيته ، وصدق الله حيث يقول : ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر : ٢٣] .

❊ ❊ ❊

(5) من جوامع كلمه ﷺ :

« الثلاث الكفارات »[1]

روى الطبراني عن ابن عمرقال : قال النبي ﷺ : « ثلاث مهلكات ، وثلاث منجيات ، وثلاث كفارات ، وثلاث درجات ، فأما المهلكات فشح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه ، وأما المنجيات فالعدل في الغضب والرضا ، والقصد في الفقر والغنى ، وخشية الله في السر والعلانية ، وأما الكفارات فانتظار الصلاة بعد الصلاة ، وإسباغ الوضوء في السبرات ، ونقل الأقدام إلى الجماعات ...» الحديث ، وحديثنا اليوم عن الثلاث الكفارات ، التي تكفر الخطايا وتمحو السيئات .

الكفارة الأولى : انتظار الصلاة بعد الصلاة :

والمراد بهذه الفضيلة تعلق القلب بالصلاة ، وأن المسلم لا يقضي صلاة إلا وقلبه معلق بالتي تليها ، عازم على أدائها في المسجد والجماعة ، حتى إذا ما دنا وقتها كان من المسارعين إلى المساجد ، المبكرين في الحضور إليها ، والمسلم الذي يكون بهذه المثابة رجل حاضر القلب ، دائم التذكر ، سريع الرجوع إلى الله سبحانه ، ومثل هذا المسلم لا يحدث منه شر ، ويرتقب منه كل خير ، لنفسه ولأهله ولوطنه .

وليس المراد بهذه الفضيلة هي ملازمة المسجد بالليل والنهار ، فما لهذا قصد الشارع الحكيم ، وما عرف هذا من فعل النبي ﷺ وصحابته الأفاضل والسلف الصالح من هذه الأمة .

ومثل هذا الفهم لا ينبغي أن يحمل عليه الحديث ، فالإسلام دين يجمع بين العمل للدنيا والعمل للآخرة ، وهذا هو الله سبحانه وتعالى يقول في الكتاب الكريم : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة : ٩- ١٠] .

ويقول : ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك : ١٥] .

---

(١) مجلة الحج ، العدد ١٢، سنة ١٨.

وما عهدنا من النبي صلوات الله وسلامه عليه وصحابته و السلف الصالح من هذه الأمة أيام أن كان ديدنهم الاتباع وكراهة الابتداع أنهم كانوا يلازمون المساجد بأجسامهم وينقطعون عن أعمالهم ، بل السنة استفاضت بأنهم كانوا يجاهدون ويتاجرون ويزرعون ويحترفون مع محافظتهم على أداء الصلوات ، وتعلق قلوبهم بها ، وهذا الذي ذهبت إليه في تفسير الحديث من أن المراد به التعلق بأداء الصلوات لا ملازمة المسجد وترك العمل هو ما يشهد له الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما بسندهما عن النبي ﷺ أنه قال : « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ تَعَالى بظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ ، إمَامٌ عَادِلٌ ، وَشَابٌّ نَشَأَ في عِبَادَةِ اللهِ ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بالمَسَاجِدِ ، وَرَجُلانِ تَحَابَّا في اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ : إني أَخَافُ اللهَ ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ في خلاء فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَى حتى لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ » . وفي الحديث الذي رواه الترمذي وحسنه عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان » .

وكما حث الشارع على التعلق بالمساجد والصلوات حث على فضيلة التبكير في الحضور إلى المساجد وانتظار الصلوات ، وقد ورد في هذا المعنى أحاديث كثيرة منها ما رواه الإمام مسلم في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال : « لا يَزَالُ العَبْدُ في صَلاةٍ مَا كَانَ في مُصَلاهُ يَنْتَظِرُ الصَّلاةَ وَتَقُولُ المَلائِكَةُ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ حتى يَنْصَرِفَ أَوْ يُحْدِثَ » . وفي الحديث الآخر : « لا يَزَالُ أَحَدُكُمْ في صَلاةٍ مَا دَامَتِ الصَّلاةُ تحْبِسُهُ لا يمْنَعُهُ أَنْ يَنْقَلِبَ إلى أَهْلِهِ إلا الصَّلاةُ » . رواه البخاري في صحيحه .

والصلاة عماد الدين وأساسه ، وهي التي تميز المسلم من غير المسلم ، وهي التي تنهى عن الفحشاء والمنكر ، فلا عجب أن جعلها الشارع الركن الثاني من أركان الإسلام في الحديث الصحيح المشهور : « بُنيَ الإِسْلامُ عَلَى خَمْسٍ : شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إلا اللهِ وَأَنَّ محَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ، وَإِقَامِ الصَّلاةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَصَيامِ رَمَضَانَ ، وحج البيت الحرام » .

وأن تهب على أدائها والمواظبة عليها وتعلق القلب بها ، والانتظار في المساجد لأدائها تكفير السيئات ، ورفعة الدرجات ، وفي الحديث الصحيح الذي رواه الإمام البخاري في صحيحه بسنده عن النبي ﷺ : « أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نهَرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خمس

مرات هل يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ شيء ؟ » ، قَالُواْ : لا يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ شَيء ، قَالَ : « فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ يكفر اللهُ بِهن الخَطَايَا » .

الكفارة الثانية : إسباغ الوضوء في السبرات :

أي : إكماله وإتمامه بأن يبلغ به ثلاثًا أو أكثر ، وكان ابن عمر رضي الله عنهما يغسل سبعًا ، وهو أدعى إلى التطهر والنظافة وإكمال العبادة ، وأدعى للطمأنينة . والسبرات : شدة البرد ، وقد دلل الحديث بالإسباغ في هذه الحالة على الإسباغ في غيرها ، فإن المسلم إذا كان يسبغ ويبالغ عند اشتداد البرد فهو أولى أن يسبغ عند الحر أو اعتدال الجو ، وقد جاءت رواية للإمام مسلم بلفظ : « وإسباغ الوضوء على المكاره من برد أو تعب أو مرض » . الرجل الذي يسبغ الوضوء على الكريهات رجل يؤثر رضاء الله على رضاء نفسه ، ويؤثر اللذة الآجلة الباقية على اللذة العاجلة الزائلة ، ومثل هذا رجل قوي الإيمان ، قوي الإرادة ، يجعل هواه تبعًا لشرع الله ، لا أن يجعل شرع الله تبعًا لأهوائه ، والمسلم إذا قوي إيمانه وقويت إرادته ، فعل العجائب ، وتلاشت أمام عزماته شم الجبال الراسيات ، وتأبى عن أن يكون ضعيفًا أمام أعدائه ، أو مستذلًا لهم ، ومثل هذا خير وأحب إلى الله .

الكفارة الثالثة : نقل الأقدام إلى الجماعات :

الإسلام دين يدعو إلى التوحيد والوحدة ، والتآلف ولم الشمل ، وجمع الكلمة ويكره الفرقة والتشاق ، فالمعبود الحق واحد لا شريك له ، والقبلة التي يتوجه إليها المسلمون في صلواتهم واحدة ، ويد الله مع الجماعة ، وصلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة ، وصلاة الجمعة فرض عين ، والجماعة من شروطها ، وهكذا نجد مظاهر الوحدة والجماعة بادية في كثير من عقائد وتكاليف وآداب الإسلام ، فلا غرو أن جعل رسول الله ﷺ من الكافرات نقل الأقدام إلى الجماعات ، وفي الكتاب الكريم : ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس : ١٢] . وقد فسر بعض المفسرين الآثار بالمشي إلى الطاعات ، ولا سيما الصلوات ، وفي صحيح الإمام مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّه عنهُ ، أن النبي ﷺ قال : « مَنْ تَطَهَّرَ في بَيْتِهِ ثُمَّ مَضَى إِلى بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ لِيَقْضِيَ فَرِيضَةً مِنْ فَرَائِضِ اللهِ كَانَتْ خَطْوَتَاهُ إِحْدَاهُمَا تَحُطُّ خَطِيئَةً وَالأُخْرَى تَرْفَعُ دَرَجَةً » .

وفي صحيح مسلم أيضًا عَنْ جَابِرِ رَضِيَ اللَّهُ عنه قَالَ : خَلَتِ البِقَاعُ حَوْلَ المَسْجِدِ- يعني النبوي- فَأَرَادَ بَنُو سَلِمَةَ أَنْ يَنْتَقِلُواْ قُرْبِ المَسْجِدِ ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النبي ﷺ فَقَالَ لهُمْ : « بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَنْتَقِلُواْ قُرْبَ المَسْجِدِ ؟ » ، قَالُواْ : نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ ، قَدْ أَرَدْنَا ذَلِكَ ، فَقَالَ : « يَا بَنِي سَلِمَةَ ، دِيَارَكُمْ تُكْتَبْ آثَارُكُمْ ، دِيَارَكُمْ تُكْتَبْ آثَارُكُمْ » . وفي رواية البخاري أنه قال لهم : « ألا تحتسبون آثاركم ؟ » ، وفي الحديث الثابت عن النبي ﷺ قال : « بشروا المشائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة » .

هذه الثلاث الكفارات فاتخذها- أيها المسلم- خلقًا وديدنًا في عسرك ويسرك ، ومنشطك ومكرهك ، تحظ بالثواب العظيم ، والنعيم المقيم .

❋ ❋ ❋

(6) من جوامع كلمه ﷺ :

« الثلاث الدرجات »

روى الطبراني في معجمه الأوسط عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاث مهلكات ، وثلاث منجيات ، وثلاث كفارات ، وثلاث درجات ، فأما المهلكات فشح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه ، وأما المنجيات فالعدل في الغضب والرضا ، والقصد في الفقر والغنى ، وخشية الله في السر والعلانية ، وأما الكفارات فانتظار الصلاة بعد الصلاة ، وإسباغ الوضوء في السبرات ، ونقل الأقدام إلى الجماعات ، وأما الدرجات فإطعام الطعام ، وإفشاء السلام ، والصلاة بالليل والناس نيام » .

قد انتهينا من تفصيل عقد هذا الحديث الشريف الذي يعتبر من جوامع كلمه ﷺ ، ولم يبق منه إلا الثلاث الدرجات التي تربي الحسنات وترقى بصاحبها إلى الغرفات في الجنات .

الفضيلة الأولى : إطعام الطعام :

وهو من أفضل القربات إلى الله ، وينم عن تخلص المسلم من شح النفس ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر : ٩] . وفي الحديث الشريف عن النبي ﷺ : « الناس عيال الله ، وأحب الناس إلى الله أنفعهم لعياله » ، والله سبحانه وتعالى منزه عن الأهل والولد ، ولكن معنى هذا أن الله هو المتكفل بأرزاق العباد ومؤنهم كما يتكفل الأب الشفيق بمعيشة أولاده .

وإطعام الطعام كان من مفاخر العرب في الجاهلية ، به يتفاخرون ، وفيه يتنافسون ، وفيهم من كان لا يقصر الإطعام على بني الإنسان ، بل يطعم الوحش والطير ، وفيهم كانت الرفادة وانتهت إلى بني هاشم ، فكانوا يطعمون الحجيج في موسم الحج حتى يعودوا إلى بلادهم ، لأنهم ضيوف الله وزوار بيته المحرم .

فلما جاء الإسلام قوى في نفوس العرب هذه الفضيلة ، وزادهم ترغيبًا فيها ، وجعلها من خير شرائع الإسلام .

---

(١) مجلة الحج ، العدد ٢ سنة ١٩.

روى الإمام البخاري في صحيحه عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ أَيُّ الإِسْلامِ خَيْرٌ ؟ قَالَ : « تُطْعِمُ الطَّعَامَ ، وَتَقْرَأُ السَّلامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ » .

وإطعام الطعام يكون بإطعام الأهل وذوي الرحم والأرامل واليتامى والفقراء والمساكين ، وإقراء الضيف ، بل وإطعام الحيوان والطير ، وفي الحديث الشريف قالوا : يا رسول الله ، إن لنا في البهائم لأجرًا ؟ فقال ﷺ : « في كل ذات كبد رطبة أجر » . رواه البخاري وأحمد .

وإنه ليظهر لنا عظم التوجيه النبوي إذا ما علمنا أن الجوع كافر ، وأن الإنسان إذا خويت بطنه وعضه الجوع بنابه اختل توازنه ، واستعصى كبح جماحه ، فلا تعجب إذا صار أداة هدم وتخريب ، وإفساد وسفك للدماء ، وأن الثورات المدمرة لم تقم إلا بسبب الحصول على رغيف العيش ، وفي الثورة الفرنسية العارمة التي غيرت الأوضاع في أوروبا كان من هتاف الثوار فيها : (الخبز ، الخبز) ، وكم أثيرت من حروب بسبب الحصول على الطعام .

وفي إطعام الطعام تأمين للبشرية من هذه الشرور والآثام ، والبطن إذا شبعت رضيت النفوس وهدأت ، فيسهل على المصلحين قيادتها وتوجيهها وجهة الحق والخير .

ولما كان إطعام الطعام من إصلاح أحوال الأمم والجماعات وقطع جذور الفتن والحزازات حث عليه الحق تبارك وتعالى في كتابه الكريم ، فقال في صفات الأبرار : ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان : ٨- ٩] .

ودعا إليه رسول البر صلوات الله وسلامه عليه في كثير من أقواله ، وصدق ذلك بأفعاله ، خطب رسول الله ذات يوم فكان مما قال : « يا أيها الناس ، أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام » . وكان كثيرًا ما يقول لأصحابه : « طعام الإثنين كافي الثلاثة ، وطعام الثلاثة كافي الأربعة » . ومن معجزاته البركة في الطعام القليل حتى كان يشبع العدد الكثير .

الفضيلة الثانية : إفشاء السلام

ومن الموافقات اللطيفة أن الله هو السلام ، وأن الإسلام دين السلام ، وتحية المسلمين

في الدنيا السلام ، وتحيتهم حين يلقون ربهم السلام ، وأن الجنة دار السلام ، والمسلم حينما يقول لأخيه المسلم : السلام عليكم ، إنما يدعو له بالأمان من المخاوف والشرور والآثام في النفس ، والأهل ، والولد ، والمال ، فكان من مقابلة الخير بالخير ، والدعاء بالدعاء أن ترد عليه السلام بأحسن منه أو بمثله على الأقل .

والسلام سنة وشعيرة من شعائر الإسلام عند القدوم ، وعند القيام ، وعند اللقاء ، وعند الافتراق ، وعلى الكبار والصغار وعلى الرجال والنساء عند أمن الافتتان ، والرد فرض على الكفاية ، وصدق الله حيث يقول : ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء : ٨٦] . فإذا قال : السلام عليكم ، فزد : ورحمة الله . إذا قال : السلام عليكم ورحمة الله ، فزد : وبركاته . وإذا استوفى المسلم فردعليه بالمثل ، هكذا كان يفعل النبي ﷺ وصحبه الكرام .

وبحسب الإسلام دلالة على أنه دين السلام أن يكون شعار معتنقيه لمن يعرفون ومن لا يعرفون السلام ، وإن دينًا بهذه المنزلة لواجب على العالم أن يعتنقه ليشعر بالسلام والأمان ، ويستريح من المخاوف والأخطار التي تكتنفه من كل جانب ، ولو لم يكن في هذه التحية إلا أنها تشيع بين الناس جوًّا من الطمأنينة والأمان لكفى ، فما بالك وهي تنتزع الإحن والأحقاد من النفوس وتغرس الحب في القلوب وتورث الألفة بين الناس .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ، أفشوا السلام بينكم » . وكم من شخص يكون بينك وبينه عداوة حتى إذا ما بدأته بالسلام زال كل شيء ، وإذا هو ولي حميم ، ولا يغني عن هذه التحية الإسلامية قول بعض الناس : أسعد الله صباحك ، أو مساءك ، ونحو ذلك ، وقد كان أهل الجاهلية يقولون : عم صباحًا ، وعم مساء ، فأبدلنا الله بهذه التحية خيرًا منها ، وهو السلام ، فإن جمع المسلم بين تحية الإسلام والدعاء بالإسعاد فلا بأس .

وتحية السلام تحية قديمة من عهد أبي الأنبياء آدم عليه السلام ، روى البخاري ومسلم بسندهما عن النبي ﷺ قال : « لما خلق الله آدم ﷺ قال : اذهب فسلم على أولئك - إشارة إلى نفر من الملائكة الكرام - فاستمع ما يحيونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك ، فقال :

السلام عليكم ، فقالوا : السلام عليك ورحمة الله » . وفي التنزيل الكريم : ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الذاريات : ٢٤- ٢٥] .

ومما يؤسف له أن بعض المسلمين الذين آمنوا بتقليد الفرنجة لم يأخذوا أنفسهم بأدب الإسلام وقلدوا الغربيين في تحاياهم بل بلغ بهم حب التقليد الأعمى أن نطقوا بهذه التحايا بلغة الإفرنج ، وهو مسلك يدل على ضعف في الدين ، ورقة في الخلق ، وتحلل من الشخصية الإسلامية العربية .

الفضيلة الثالثة :

الصلاة بالليل والناس نيام ، وقيام الليل بالصلاة التي هي خير موضوع فيه تزكية للنفوس وسمو بالأرواح ووصل القلوب بحبال السماء ، وألذ ما يكون التعبد والتهجد في هدأة الليل وسكونه ، ففيه تقل الشواغل ، ويقوى الانتباه ، وتتيقظ المشاعر ، ويتوافق القلب واللسان ، وصدق الله ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ [المزمل : ٦] ، وقد خاطب الله نبيه فقال : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء : ٧٩] ، وقال في صفة المؤمنين الذاكرين : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة : ١٦] ، وقال : ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات : ١٧ ، ١٨] . وقد كان رسول الله ﷺ يقوم من الليل حتى تتورم قدماه فقيل له : لِمَ هذا وقد غفر لك الله ما تقدم من دنياك وما تأخر ؟! فقال : « أفلا أكون عبدًا شكورًا » ، ووصف أصحاب رسول الله ﷺ واصف فقال : « كانوا رهبانا بالليل فرسانًا بالنهار » .

وبعد ؛ فقد جلت معي أيها القارئ في روضات هذا الحديث الجامع ، فاشدد عليه يديك ، وخذ نفسك بآدابه وأخلاقه ، وكن من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الألباب .

* * *

[٩] صور مشرقة من البلاغة النبوية

(1) فضل الإنفاق وجزاؤه[1]

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما بسنديهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من أنفق زوجين في سبيل الله نودي من أبواب الجنة : يا عبد الله هذا خير ، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة ، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد ، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان ، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، ما على من دعي من هذه الأبواب من ضرورة ، فهل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها ؟ قال : نعم وأرجو أن تكون منهم »[٢] .

الشرح والبيان :

عن أبي هريرة رضي الله عنه : هو الصحابي الجليل عبد الرحمن بن صخر الدوسي ، وهو من المكثرين للرواية ، بل هو أكثر الصحابة رواية ، وذلك لكثرة ملازمته بعد إسلامه لرسول الله ﷺ ، وتفرغه وعدم اشتغاله بأمر من أمور الدنيا من تجارة أو نحوها ، وعدم وجود من يشغله عن العلم والسماع من النبي ﷺ من أهل أو ولد ، فإنه لم يتزوج إلا بعد وفاة النبي ﷺ ، وكان راضيًا من الطعام باليسير ، تكفيه لقيمات أو تمرات يقيم بها صلبه ، وطالما ربط على بطنه الحجارة من الجوع ، وكان من عرفاء [٣] أهل الصفة ، وأهل الصفة هم أضياف الله ، وأضياف رسول الله ﷺ وأضياف الإسلام لا يأوون إلى أهل ، ولا مال ، ولم يكن أهل الصفة عالة ولا كسالى ولا متواكلين ، كما زعم ذلك بعض الزاعمين ، فقد كان منهم من يحتطب ، ولكن الكثيرين منهم ما كانوا يجدون عملًا يرتزقون به ، فلذلك تفرغوا للصلاة ، والذكر ، وقراءة القرآن وسماع العلم والحديث من النبي ﷺ ، مع الاكتفاء بالقليل

---

(١) مجلة التضامن الإسلامي ، السنة الخامسة والثلاثون ، الجزء التاسع ، ربيع الأول ١٤٠١هـ ، يناير ١٩٨١م .

(٢) صحيح البخاري - كتاب الصوم ، باب الريان للصائمين ، وصحيح مسلم - كتاب الزكاة - باب فضل من ضم إلى الصدقة غيرها من أنواع البر .

(٣) العرفاء : الرؤساء .

من الطعام والشراب ، وكان القادرون منهم على استعداد للجهاد في سبيل الله ، حتى إذا دعا داعي الجهاد لبوا مسرعين ، وهذا هو الحق الذي يقال في « أهل الصفة » ، ولو لم يكن منهم إلا تفرغهم لحفظ القرآن ، ليقوموا بتحفيظه لكل داخل في الإسلام لكفى هذا عملًا جليلًا شريفًا ، فما بالكم وقد كانوا على ما ذكرت ، فرضي الله عنهم وأرضاهم .

مفهوم الإنفاق :

قول الرسول ﷺ : « من أنفق زوجين في سبيل الله » .

الإنفاق : هو البذل والإعطاء مما يملك الإنسان قليلًا كان أم كثيرًا .

والزوج : يطلق ويراد به الزوجة ، ومنه قوله تعالى لآدم عليه السلام : ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة : ٣٥].

ويطلق ويراد به أحد المتزاوجين من الذكر والأنثى أيًّا كان هذا الذكر وتلك الأنثى ، ومنه قول الله تعالى : ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۝٤٥ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ [النجم : ٤٥- ٤٦] .

وقوله تعالى : ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ﴾ ، ثم قال : ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ﴾ [الأنعام : ١٤٣- ١٤٤] ، ويطلق الزوج ويراد به الاثنان من أي نوع كان ، ومنه قولهم : زوج نعل ، ويطلق الزوج ويراد به الصنف والنوع ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ [الواقعة : ٧] ، أي أصنافًا وأنواعًا ثلاثة ، وهذا الأخير هو المراد هنا ، والمعنى من أنفق نوعين وصنفين من أي نوع من أنواع الأموال سواء أكانا من نوع واحد كدرهمين ، وديناريين ، وناقتين وفرسين ، أم لا كدرهم ودينار ، أو بعير وفرس ، أو ثياب ودراهم ، إلى غير ذلك وسواء أكانا من نوع واحد من أنواع الخير كصلاتين ، أو صيامين ، أم لم يكونا من نوع واحد كصلاة وصيام ، أو جهاد ، وحج ، ومن ثم نرى أن الإنفاق لا يراد به الإنفاق المالي فحسب ، وإنما يراد مطلق عمل الخير ، أيا كان هذا الخير ، وهكذا نرى أن الحديث الشريف ، والكلمة النبوية وسعت كل أعمال الخير ، وليس هذا بعجيب ممن أوتي جوامع الكلم ، واختصر له الكلام اختصارًا .

« وسبيل الله » قيل : المراد به كل أنواع الخير والبر ، وقيل : هو الجهاد ، والأول هو الأولى والصحيح ليتلاءم هذا التفسير هو وما سيجيء في الحديث الشريف ، فقد ذكر النبي ﷺ فيه أنواعًا من خلال الخير غير الجهاد ، وهي الصلاة والصيام والصدقة .

نودي من أبواب الجنة : يا عبد الله هذا خير

منــازل الجنــة

ويرى المحققون من العلماء أن هذه الأبواب في الجنة ، وليست هي الأبواب الثمانية المعروفة للجنة ، ويكون لكل عمل من الأعمال الصالحة -وما أكثرها- باب في الجنة ، يدخل منه المبرزون في هذه الأعمال ، التي بلغوا فيها الكمال ، وتكون لهم منازل في الجنة خاصة بهم ، فأهل الصلاة في منازل خاصة بهم ، وأهل الجهاد في منازل خاصة بهم ، وأهل الصيام في منازل خاصة بهم ، وأهل الصدقات في منازل خاصة بهم ، وأهل العفو والكاظمين الغيظ في منازل خاصة بهم ، وهكذا ، ويكون هذا لونًا من ألوان التنعيم الروحي ، وذلك لأن الإنسان آنس بمن هو من شكله ، وخلقه وعمله ، وهذا أمر مشاهد في الدنيا ، ولكنه سيكون في الآخرة على أتم وأوفى ، وهذا لا يحول بينهم وبين أن يتلاقوا ويتزاوروا ، وينتقل هذا إلى ذاك وذاك إلى هذا ، وهذا الرأي هو ما أميل إليه وأرجحه ، وأذهب إليه ، ويدل لهذا القول ما جاء في الحديث الصحيح الآخر : « إن في الجنة بابا يقال له الريان » فقد قال ﷺ : « في الجنة » ولم يقل : « للجنة » والخلاصة أن كل من أكثر نوعًا من أنواع العبادة والبر والخير خص بباب يناسبها ينادى منه جزاء وفاقا ، وقل من يجتمع له العمل بجميع أنواع البر والخير ، والعبادات ، وذهب بعض العلماء إلى أن هذه الأبواب هي الأبواب الثمانية الأصلية التي للجنة وأولوا قوله ﷺ : « إن في الجنة » أن المراد « إن للجنة » وقالوا : إن الفاء بمعنى اللام ، وإذا أحصينا الأحاديث التي وردت في هذا المعنى وجدنا أن عدد الأبواب أكثر من ثمانية ، وهو يؤيد القول الأول ويرد الثاني .

نداء الملائكـــة

« يا عبد الله هذا خير » نداء بصفة العبودية التي هي من أشرف الصفات ، ولن تجد أحب إلى نفوس المؤمنين المتقين من هذا الوصف ، و« خير » هنا بمعنى فاضل لا بمعنى أفضل ؛ لأن لفظ خير كما يكون أفعل تفضيل يكون لإثبات الخيرية يعني هذا خير من الأعمال الخيرة الصالحة ، وفائدة قوله : « هذا خير » ترغيب السامع للنداء في طلب الدخول من هذا الباب ، والمنادي هم الملائكة الموكلون بهذه الأبواب ، فمن كان سابقًا في أكثر من عمل صالح نودي من أكثر من باب ، وهكذا يتسابق في دعوته الملائكة

الموكلون بهذه الأبواب وإنه لمشهد رائع حقا يغني عن كثير الكلام في بيان فضيلة الصائمين ، المنفقين ، المتصدقين ، المجاهدين ، ويزيد من روعته أنه على رءوس الأشهاد من أهل الجنة الأخيار ، ثم يوفقه الله سبحانه وتعالى إلى الدخول من الباب الذي هو أكثر عملًا فيه ، فالصائمون يدخلون من الريان ، والمجاهدون من باب الجهاد ، والمصلون من باب الصلاة ، والمزكون من باب الزكاة ، وهكذا وهذا هو معنى قوله ﷺ : « فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة ، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد ، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان ، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة » ، والصدقة أعم من المفروضة والنافلة وهكذا يقال في الصلاة والصيام والجهاد .

جـزاء الصائمين

وقد ورد في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « إن في الجنة بابا يقال له الريان يدخل منه الصائمون يوم القيامة ، لا يدخل منه أحد غيرهم ، يقال : أين الصائمون ؟ فيقومون لا يدخل معهم أحد غيرهم ، فإذا دخلوا أغلق ، فلم يدخل منه أحد »[1] .

و« الريان » من الألفاظ التي وقع فيها التطابق بين اللفظ والمعنى ؛ لأنه مأخوذ من الري -بكسر الراء- وهو غاية ما يحصل للظمآن من شرب الماء ، وللقرآن الكريم المعجز المبين ، والسنة النبوية التي هي من كلام أفصح العرب وأبلغهم في التطابق بين اللفظ والمعنى مجالات فسيحة لا يتسع المقام لذكرها الآن .

وقد جاء الجزاء في هذين الحديثين من جنس العمل ، فإن أشد ما يتعرض له الصائمون -ولا سيما في البلاد الحارة- هو العطش ، فكان الجزاء هذا الريان ، الذي يروي من دخل منه ، فلا يشعر بعد ذلك بالظمأ ، وقد روى النسائي في « سننه » بسنده عن النبي ﷺ قال : « من دخل شرب -يعني من ماء هناك- ومن شرب لا يظمأ أبدًا » وفي رواية الترمذي : « ومن دخله لا يظمأ أبدًا » وإنما اكتفى بذكر الري ، والصائم كما يشعر بالعطش يشعر أيضًا بالجوع ؛ لأن الري يستلزم غالبًا الشبع ، وعلى هذا يكون الدخول من باب « الريان » فيه الري والشبع معًا ، فاستغنى بذكر الري عن الشبع ، والإنسان قد يستغني بالماء عن الطعام

---

(١) صحيح البخاري كتاب الصيام باب الريان للصائمين ، وصحيح مسلم كتاب الصيام باب فضل الصيام .

أيامًا ، ولكن لا يستغني بالطعام عن الماء ، فانظروا – يرعاكم اللّه – إلى هذه الأسرار البلاغية في الأحاديث النبوية .

فقال الصديق أبو بكر رضي الله عنه : « بأبي أنت وأمي يا رسول الله : ما على من دعي من هذه الأبواب من ضرورة » يعني ليس على المدعو من كل الأبواب ضرر ما ، بل له تكرمة وإعزاز ، وقوله بأبي وأمي يعني أنت مفدي بأبي وأمي ..فهل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها ؟ ويختص بهذه الكرامة والمنزلة ، فقال المشرع الحكيم : « نعم » يعني هناك من المسلمين من سيدعى من هذه الأبواب كلها ؛ تكرمة له ، وإظهارًا لفضله ولكنه لا يدخل إلا من واحد منها ، وذلك لاستحالة الدخول منها كلها في وقت واحد ، « وأرجو أن تكون منهم » ففيه بشارة من الرسول ﷺ للصديق رضي الله عنه ، والرجاء من الرسول ﷺ في مثل هذا محقق الوقوع ؛ لأن الله تبارك وتعالى لا يرد لرسوله ﷺ رجاء ، والتعبير بالرجاء من أدب النبي ﷺ حتى لا يقطع ويجزم في أمر مغيب .

ما يؤخذ من الحديث

ويؤخذ من الحديث الأحكام والآداب الآتية :

(١) فضل الصيام وأنه من أفضل العبادات عند الله تبارك وتعالى ، وذلك لما فيه من فطم النفس عن الطعام والشراب ، وعن الشهوات ، وذلك لله وفي الله ، ولما فيه من الإخلاص والمراقبة لله ، ولن تجد عبادة يتحقق فيها كمال المراقبة من الصيام ، وفي الحديث القدسي الذي رواه الشيخان : « كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به ، يدع طعامه وشرابه وشهوته من أجلي ، فالصيام لي وأنا أجزي به » .

(٢) أن للصائمين في الجنة بابا يسمى « باب الريان » يدخل منه الصائمون فإذا دخلوا لم يدخل غيرهم منه ، وقد جاء الجزاء في هذا الحديث من جنس العمل ، فإن أعظم ما يعانيه الصائم – ولا سيما في الجو الحار ، والبلاد الحارة – هو العطش ، فكان جزاؤه ريا لا يظمأ بعده أبدًا فليهنأ الصابرون على ألم الجوع والعطش بالدخول من هذا الباب .

(٣) أدب الصحابة رضوان الله عليهم في مخاطبة الرسول ﷺ ، ومن ذلك ما فعله الصديق رضي الله عنه من قوله لرسول الله ﷺ : « بأبي أنت وأمي يا رسول الله » وكذلك

كان إذا دعاهم قالوا له : « لبيك يا رسول الله » ، وبهذا الأدب في الخطاب فليقتد المقتدون ، وليأتس المؤتسون .

(٤) منزلة الصديق رضي الله عنه ، فقد بشره رسول الله ﷺ بأن سيدعى من الأبواب كلها ، وليس هذا بعجيب ، فقد كان الصديق رضي الله عنه سابقًا إلى كل خير وفضل ، وكان مجليا في كل أنواع العبادات والبر ، وبهذا كان أفضل الأمة بعد نبيها ﷺ .

(٥) أدب رسول الله ﷺ مع ربه في الإخبار بالمغيبات ، وهو الإتيان غالبًا بصيغة الرجاء دون صيغة التحقق ، وهو أدب ينبغي أن يحتذى من المسلمين .

(٦) النساء في كل ما ذكرناه مثل الرجال ، لأنهن شقائق الرجال في كل تشريع ، إلا ما خص الله به الرجال دون النساء ، وصدق الله : ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ .

***

(2) حديث إياكم والجلوس بالطرقات[١]

روى الإمام البخاري في صحيحه[٢] . بسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إياكم والجلوس بالطرقات ، فقالوا : يا رسول الله ما لنا من مجالسنا بدٌّ نتحدث فيها ، فقال : إذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه ، فقالوا : وما حق الطريق يا رسول الله ؟ قال : غض البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر » . ورواه الإمام مسلم أيضًا في صحيحه بسنده [٣] عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ بهذا اللفظ ، فالحديث متفق عليه .

وروى مسلم في صحيحه بسنده [٤] عن عبد الله بن أبي طلحة ، قال : قال أبو طلحة : « كنا قعودًا بالأفنية نتحدث فجاء رسول الله ﷺ فقام علينا ، فقال : ما لكم ولمجالس الصعدات ، اجتنبوا مجالس الصعدات ، فقلنا : إنما قعدنا لغير ما بأس ، قعدنا نتذاكر ، ونتحدث ، فقال : إما لا فأدوا حقها ؛ غض البصر ، ورد السلام وحسن الكلام » .

والظاهر – والله أعلم – أن هذه قصة أخرى غير القصة التي في حديث أبي سعيد الخدري المتفق عليه ، وإن كان المعنى متقاربًا ، وقد اتفق الحديثان في بعض الحقوق ، وافترقا في بعضها ، وأيضًا فمخرج الحديثين ليس واحدًا ، فالراوي للقصة الأولى هو سيدنا أبو سعيد الخدري ، والراوي للثاني هو سيدنا أبو طلحة الأنصاري ، وسياقهما ليس واحدًا كما يدرك ذلك بالنظر والتأمل .

والحديثان يعتبران من جوامع كلمه ﷺ ، ومن روائع البيان العربي ، أو إن شئت الدقة فقل : من أروع روائع البيان العربي في نظم الألفاظ والمباني ، وإحكام المعاني ، وسمو المقصد ، ونبالة الغاية .

---

(١) مجلة التضامن الإسلامي السنة الرابعة والثلاثون ، الجزء الأول ، رجب ١٣٩٩هـ ، يونيه ١٩٧٩م .

(٢) صحيح البخاري كتاب الاستئذان باب قول الله تعالى : ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ .

(٣) صحيح مسلم كتاب السلام باب من حق الجلوس على الطرقات رد السلام .

(٤) صحيح مسلم كتاب السلام باب من حق الجلوس على الطرقات رد السلام .

الشرح والبيان :

راوي الحديث المتفق عليه هو أبو سعيد الخدري فمن يا ترى يكون أبو سعيد ؟ ..

هو الصحابي الجليل سعد بن مالك بن سنان بن عبيد بن ثعلبة بن الأبحر وهو خدرة - بضم الخاء - ابن عوف بن الحارث بن الخزرج الأنصاري الخدري ، وأبوه مالك صحابي أيضًا وهو الذي مص دم رسول الله ﷺ الذي كان يسيل من وجنته يوم أحد ، فقال له النبي ﷺ : « لن تمسك النار أبدًا » ، وقد استصغر أبو سعيد عن الجهاد يوم أحد ، واستشهد أبوه بها ، وغزا هو ما بعدها من المغازي ، قال ابن عبد البر : غزا اثنتي عشرة غزوة مع النبي ﷺ .

وقد جمع أبو سعيد الخدري إلى شرف الصحبة شرف الرواية للحديث وإذاعته ونشره بين المسلمين ، روى عن النبي ﷺ وغيره من الصحابة الكبار كالخلفاء الأربعة ، وروى عنه بعض الصحابة كابن عباس وابن عمر ، وجابر بن عبد الله ، ومحمود بن الربيع ، وروى عنه من كبار التابعين ، سعيد بن المسيب ، وأبو عثمان النهدي ، وعبيد بن عمير وغيرهم ، وممن بعدهم عطاء بن يسار ، وهو راوي هذا الحديث عنه ، ومجاهد بن جبر ، وأبو نضرة وغيرهم .

وهو يعتبر من المكثرين للرواية في الإسلام ، وممن أكثروا من نشر أحاديث رسول الله ﷺ ، وقد جمعهم بعض العلماء في بيت شعر فقال :

أبو هريرة ، سعـــدٌ ، جابرٌ ، أنسٌ صديقةٌ وابن عباس ، كذا ابن عمر

وسعد المراد به أبو سعيد الخدري ، وكان أبو سعيد من أفقه أحداث الصحابة ومن أعلمهم ، وروى الهيثم بن كليب في مسنده بسنده عن سهل بن سعد قال : « بايعت النبي ﷺ أنا وأبو ذر وعبادة بن الصامت ، ومحمد بن مسلمة ، وأبو سعيد الخدري ، وسادس : على أن لا تأخذنا في الله لومة لائم ، واستقال [(١)] السادس » . وقد روى شعبة الإمام الثقة عن أبي سلمة قال : سمعت أبا نضرة عن أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال : « لا يمنعن أحدكم مخافة الناس أن يتكلم بالحق إذا رآه ، أو علمه » قال أبو سعيد :

---

(١) يعني طلب الإقالة من البيعة ، ولعل السبب أنه خاف أن لا يقوم بما توجبه البيعة فيقع في الإثم .

فحملني ذلك على أن ركبت إلى معاوية فملأت أذنيه [١] ثم رجعت . وهذا يدل على أنه وفى بما عاهد النبي ﷺ عليه ، وأنه كان لا يخشى في الحق لومة لائم ، وهكذا كان معظم أصحاب رسول الله ﷺ ، وكانت وفاته سنة أربع وسبعين ، وقيل غير ذلك ، فرضي الله عن الصحابي الجليل العالم القوال بالحق أبي سعيد الخدري وأرضاه .

قوله ﷺ : « إياكم والجلوس في الطرقات » .

إياكم : منصوب على التحذير ، والجلوس معطوف عليه منصوب ، والمعنى أحذركم والجلوس في الطرقات ، والتحذير التنبيه إلى شيء ينبغي الابتعاد عنه ، والطرقات - بضم الطاء المهملة وضم الراء - جمع طرق ، وطرق جمع طريق ، فالطرقات هي جمع الجمع ، والطرقات هي المسالك التي يسلكها الناس في ذهابهم وإيابهم ، لقضاء حاجاتهم ، وأما قول أبي طلحة الأنصاري في رواية الإمام مسلم الثانية « كنا قعودًا بالأفنية » فالأفنية : جمع فناء -بكسر الفاء- وهو ما يكون أمام البيوت أو المساجد ، أو بجوانبها ، والأفنية غالبًا تكون من الطرقات ، فقال ﷺ : « ما لكم ولمجالس الصعدات » الصعدات -بضم الصاد المهملة وضم العين المهملة- كالطرقات وزنًا ومعنى وجمعًا لأنها جمع صُعد ، وصُعد جمع صعيد ، والمعنى : أي مصلحة لكم في الجلوس في الصعدات ؟ والجلوس فيها جالب للشر غالبًا ، وموقع للجالس في المعاصي .

وقد رُوي قوله ﷺ : « بالطرقات » بالباء ، وروى بفي ، وهما بمعنى لأن الباء تأتي للظرفية ، وفي رواية بلفظ « على » والاستعلاء هنا استعلاء مجازي لا حقيقي ، وكأن المراد به الجلوس على قوارع الطرقات الظاهرة دون الجوانب المتوارية ، لأن الجلوس على قارعة الطريق هي التي تؤذي المارة ، وتسيء أيضًا إلى صاحبها ، وإنما حذرهم النبي ﷺ من الجلوس في الطرقات ، أو في الصعدات ، أو في الأفنية لما في الجلوس فيها من التعرض للفتن والإثم ، بمرور النساء وغيرهن ، وقد تمتد أنظارهم إليهن أو يتعلق الفكر بهن ، أو يسيء الجالس الظن فيهن أو في غيرهن من المارة ، ولما فيه من أذى الناس إما باحتقار من يمر ، والإزدراء به ، أو غيبته ، أو حسده على نعمته ، أو الهزء به ، أو

---

(١) يعني بالنصيحة والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وهذا التعبير من الحسن والحسن بمكان .

السخرية منه ، ولما فيه من تضييق الطريق على المارة ، وإحراج النساء ، ومنعهن من الخروج في أشغالهن ، وقضاء حوائجهن بسبب قعود القاعدين وإحراج الرجال من الخروج في قضاء حوائجهم ، والكشف عن أستارهم ، وإيذاء أصحاب البيوت بالجلوس على أبوابهم أو بالقرب منها ، إلى غير ذلك من أنواع الشرور والآثام التي تتسبب عن الجلوس في الطرقات والأفنية .

وليس من شك في أن إيذاء المسلم أو المسلمة ، والذمي أو الذمية من أعظم الآثام والأوزار عند الله تعالى .

« فقالوا : يا رسول الله ما لنا من مجالسنا بد نتحدث » ..

البد : الافتراق ، ففي القاموس : ولا بُدَّ : لا افتراق ولا محالة ، يعني : ما لنا افتراق واستغناء عن جلوسنا في الطرق ، ثم بينوا السبب في أنهم لا بد لهم منها بقولهم : « نتحدث فيها » يعني : ليست لنا نواد تجمعنا أو مجالس مخصصة للتحدث فيها في أمور ديننا ودنيانا ، فنحن في حاجة إليها ، وهو أمر ضروري بالنسبة لنا .

والظاهر أنهم فهموا من تحذير رسول الله ﷺ لهم من الجلوس فيها أن التحذير على سبيل الأولى والأفضل لا على سبيل الإيجاب ، وإلا لما راجعوا رسول الله ﷺ ، وقد كانوا جميعًا في الأدب مع رسول الله ﷺ بالمحل الأرفع ، حتى كان الكثيرون منهم لا يحدون النظر إليه حياء منه ، وإجلالًا له ، أو يجوز أنهم فهموا الإيجاب ولكنهم أرادوا أن يبينوا الضرورات التي تلجئهم إلى الجلوس في الطرقات ، عسى أن يسمح لهم رسول الله ﷺ ؛ لأن الضرورات قد تبيح المحظورات ، وأيًّا كان المراد فليس في ردهم أي احتمال لقصد المعارضة لرسول الله ، فمعاذ الله أن يخطر لهم ذلك على بال ، فإن سيرهم وآدابهم ، وحبهم لرسول الله ﷺ ، وتفانيهم في سبيل الائتمار بأمره ، والانتهاء عن مناهيه تدرأ عنهم أي سوء ، أو ظنة ، أو تهمة ، رضوان الله عليهم .

وقد جاءت رواية أبي طلحة الأنصاري بأوضح وأشمل مما جاء في حديث أبي سعيد الخدري ففيها : « فقلنا : إنما قعدنا لغير ما بأس قعدنا نتذاكر ونتحدث » ، وهذا من الأساليب العربية الأصيلة ، « ما بأس » هنا نكرة في سياق النفي المفهوم من غير ، فشمل كل بأس وهو السوء والضرر ، « ما » جاءت زائدة لتأكيد هذا العموم ، وبذلك

نفوا عن أنفسهم أي احتمال لقصد السوء والشر ، ثم زادوا الأمر توضيحًا ، فقالوا : قعدنا نتذاكر يعني : في أمور ديننا ودنيانا ، ونتحدث فيما هو مباح مما لا يخل بدين ، ولا مروءة ، وهم المصدَّقون عند رسول الله ﷺ فما عهد من المؤمنين الصادقين كذبًا ، ولا غشا ، ولا خداعا ، وإنما ذلك كان من المنافقين واليهود ، وكيف يكذب المؤمنون ؟ وهم يعلمون أنهم إن كذبوا على رسول الله فالوحي لهم بالمرصاد ، يكشف عن حقيقة إيمانهم ، وخبيئة نفوسهم ، فلا عجب – والحال كما سمعتم – من أن رسول الله ﷺ قد عذر هؤلاء وأولئك ، ورخص لهم في الجلوس بالطرقات ، ولكن بشروط .

فقال ﷺ : « إذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه » .

رُوي بلفظ « إذا » وروي بلفظ : « إذ » وإذا ظرف لما يستقبل من الزمان ، و« إذ » ظرف لما مضى من الزمان ، ولكن قد توضع إحداهما مكان الأخرى وإذا قد تضمن معنى الشرط فيكون لها شرط وجواب ، ولكنها لا تجزم إلا نادرًا وفي الشعر ، وفعل الشرط هنا « أبيتم » ، وجوابه جملة « فأعطوا الطريق حقه » ، وأعطوا بهمزة قطع ، لأنها من أعطى الرباعي ، ولفظ « المجلس » روي بروايتين : الأولى فتح اللام على أنه مصدر ميمي ومعناه الجلوس ، وبكسر اللام على أنه اسم مكان يعني إذا أبيتم إلا الجلوس في أماكنكم هذه فيكون في الكلام محذوف دل عليه المقام ، وهذا من خصائص هذه اللغة العربية الشريفة أن تغيير الحركة يفيد معنى غير المعنى الآخر ، وأن الحرف الواحد كالهمزة تغير المعنى وتجعله معنى آخر ، وأن النقطة قد تغير الكلمة من معنى إلى آخر ، وليس قصدي اليوم توضيح ذلك فإنه أمر يطول ، والحق هو الأمر الثابت الذي يثبت للشيء ، وتنبغي مراعاته .

حق الطريق :

وكان من الطبعي والتسلسل المنطقي أن يسألوا عن حق الطريق ، فقالوا : وما حق الطريق يا رسول الله ، ومن الملاحظات الجديرة بالتنويه أنهم رضوان الله عليهم ، في مقام المقاولة ، أو الرد على الرسول ، أو السؤال لا يخاطبونه إلا بوصف الرسالة ، وفي هذا الوصف من الاحتراس البالغ في التأدب مع الرسول ﷺ ونفي الظنة والتهمة بالنسبة له ولهم ، وهي أمور لم تكن متكلفة ولا متصنعة وإنما هو الحس المرهف والذوق

الأدبي في الخطاب ، والخلق الرضي الذي صار ملكة وسجية بعد أن تأدبوا في مدرسة النبوة ، ومن الأساليب الفحلة الجزلة التي بلغت في الإيجاز مبلغًا لم يَفُقْه فيه إلا أسلوب القرآن الكريم قول الرسول الفصيح البليغ في رواية أبي طلحة الأنصاري رضي الله عنه : « إما لا فأدوا حقها » ، وهذا الأسلوب يحتاج إلى إعراب وبيان ، وإن كان عند المخاطبين به آنذاك من الصحابة الفصحاء البلغاء ، أمر ليس خفيًا عنهم « إما لا » ، إما هي أن الشرطية المدغمة في « ما » ، و« ما » زائدة للتأكيد ، « لا » نافية ، وفعل الشرط محذوف وتقديره « تتركوا » ، وجملة « فأدوا حقها » جواب الشرط ، والمعنى إما لا تتركوا الجلوس في الطرقات لشدة حاجتكم إليها فأدوا حقها .

قول الرسول ﷺ « غض البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » .. وفي الرواية الثانية : « غض البصر ، ورد السلام ، وحسن الكلام » ، وبذلك اشتمل الحديثان على خمسة حقوق ، وجاءت بعض الروايات في غير الصحيحين بحقوق أخرى ، وقد أوصلها الإمام الحافظ ابن حجر بهذه الخمسة إلى أربعة عشر أدبًا ، أو إن شئت فقل « حقًا » وسألتقي بهذه الحقوق الخمسة ، وقد جاءت الآداب الأربعة في الحديث المتفق عليه على غاية من التناسق البليغ البديع ، وإلى السادة القراء بيان ذلك :

(١) غض البصر : والمراد به عدم امتداد النظر إلى ما لا يحل للإنسان النظر إليه ، وليس المراد بغض البصر أن يغطي عينيه ، فليس هذا مرادًا ، وذلك لأن النظر هو البريد إلى اشتغال القلب بالوقوع في الفتنة والفاحشة وسواء في هذا الرجال والنساء ، ولكن المراد بغض الأبصار في الحديث بالنسبة إلى الرجال لأنهم الذين كانوا يجلسون في الطرقات ، أما النساء فلم يكن يفعلن ذلك ، وفي الكتاب الكريم : ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [سورة النور : ٣٠] ، وللناظر النظرة الأولى التي تقع بلا قصد وعليه الثانية ، ولما سئل النبي ﷺ عن نظر الفجاءة قال للسائل : « اصرف بصرك » رواه مسلم .

(٢) كف الأذى : والجالس على الطريق قد يغض بصره ولكنه يؤذي المارة بغير النظر كتضييق الطريق أو إيذاء من يمر عليه بأي نوع من أنواع الإيذاء ، سواء أكان

الإيذاء متعلقًا بالرجال والنساء ، أم بالحيوان فمن ثم ثنى النبي ﷺ بقوله : « وكف الأذى » ومن كف الأذى إماطة الأذى عن الطريق كإزالة شوك ، أو حجر ، أو قذر من طريق الناس ، وفي الحديث الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه : « الإيمان بضع وستون شعبة ، أو بضع وسبعون شعبة أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق »[1] ، والإماطة الإزالة ، وقد سما الإسلام في هذا الباب : باب تنظيف الطرق وإعدادها للمارة حيث لم يكتف بأن جعله أمرًا محبوبًا ، بل جعل ذلك من شعب الإيمان ، وهذا ما لم نعرفه في كتاب سماوي ولا قانون وضعي .

(٣) « ورد السلام » وإلقاء السلام من المَارّ سُنَّة مؤكدة عند جمهور العلماء ، ومنهم من قال بالوجوب ، ورد السلام واجب لا محالة ، أهو واجب على الأعيان ، أم هو واجب على الكفاية بحيث إذا قام به البعض سقط عن الباقين ؟ قولان للعلماء ، وقد يكف الجالس على الطريق أذاه عن المارة ويزيل الأذى عن الطريق ولكنه مع هذا قد يتهاون في رد السلام ، فمن ثم ثلث النبي بقوله : « ورد السلام » .

(٤) والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : والمعروف هو كل ما أقره الشرع وأمر به ، والشرع لا يقر أمرًا يخالف العقول ، والمنكر هو كل ما أنكره الشرع ، وكل ما أنكره الشرع ينكره العقل ، والمراد بالشرع : الشرع الإسلامي الذي هو خاتم الشرائع السماوية وأوفاها وأكملها ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الأصول الإسلامية التي يتوقف عليها صلاح المجتمعات ، وبالتفريط فيه تسوء أحوال المجتمعات وتتخلف . والجالس على الطريق قد يغض البصر ، ويكف الأذى ، ويرد السلام ، ولكنه يتهاون في هذا الأصل العظيم وذلك كأن يرى من لا يغض بصره عن المارة ، أو من يضع الشوك والحجارة في الطريق ، أو يضع القذر فيه أو من يتعدى على الحرمات ، كبعض الشباب المارقين الذين يعاكسون الغاديات الرائحات ، ويخدشون حياءهن بالسيء من القول ، أو من لا تعرف لدينها وقارًا ، ولا تعرف للحياء سبيلًا ، كبعض النساء الخليعات المتبرجات اللاتي تفنن في وسائل الفتنة والإغواء ، فمن ثم ربع

---

(١) صحيح مسلم – كتاب الإيمان – باب شعب الإيمان .

النبي ﷺ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقد ذكر النبي ﷺ في الحديث الثاني حقًا ليس في الحديث الأول وهو يعتبر مكملًا ومتممًا .

(٥) « وحسن الكلام » ولما كان الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر في حاجة إلى الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة وأن يأمر وينهى بالرفق واللين ، وبأسلوب حسن لا يثير النفوس ، ولا يحمل المخالف على الإصرار على منكره ومعصيته - كان لابد من التوصية بحسن الكلام وبحسبنا الاقتصار على هذه الحقوق الخمسة في هذا المقام .

وبعد هذا البيان الوسيط نجد كلام رسول الله ﷺ قد جاء على درجة فائقة من إيجاز الألفاظ وتخيرها وإحكام المعاني ، وتسلسل الأفكار ، وكل ذلك من غير تكلف ولا تصنع ، وإنما هو أدب الطبع وأدب النفس والأسلوب السهل الممتنع الذي يتسلسل تسلسل الماء العذب الزلال على أرض من الدر والحصباء ، ولا عجب فقد أوتي ﷺ جوامع الكلم ، واختصر له الكلام اختصارًا .

❊ ❊ ❊

(3) حديث عُرِضَتْ عَليَّ الأمم[1]

روى الإمام البخاري في صحيحه بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال النبي ﷺ : « عُرِضَتْ عليَّ الأمم ، فأخذ النبي يمر ومعه الأمة ، والنبي يمر ومعه النفر ، والنبي يمر ومعه العشرة ، والنبي يمر ومعه الخمسة ، والنبي يمر وحده ، فنظرت فإذا سواد كثير قلت : يا جبريل هؤلاء أمتي ؟ قال : لا ، ولكن انظر إلى الأفق فنظرت فإذا سواد كثير ، قال : هؤلاء أمتك ، وهؤلاء سبعون ألفًا قدامهم لا حساب عليهم ولا عذاب !! قلت : ولم ؟ قال : كانوا لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون ، فقام إليه عُكّاشة بن مِحْصَن فقال : ادع الله أن يجعلني منهم ، فقال : اللهم اجعله منهم ، ثم قام إليه رجل آخر فقال : ادع الله أن يجعلني منهم ، قال : سبقك بها عكاشة »[2] .

وروى البخاري قصة السبعين ألفًا عن صحابيين آخرين : أبي هريرة وسهل بن سعد الساعدي .

تخريج الحديث :

روى هذه الأحاديث أيضًا – عن هؤلاء الصحابة عن النبي ﷺ – الإمام مسلم [3] أيضًا في صحيحه فهي متفق عليها ، وفي أعلى درجات الصحة .

الشرح والبيان

رؤيا الأنبياء وحي :

قول النبي ﷺ : « عُرِضَتْ عليَّ الأمم » :

الأمم : يعني أمم الأنبياء السابقين ، فالألف واللام فيه عوض عن المضاف إليه ، والظاهر أن هذا العرض كان منامًا « ورؤيا الأنبياء وحي » كما في الحديث الصحيح ، والظاهر أيضًا أنها كانت والنبي ﷺ في المدينة ، وقد ظهر الإسلام وكثر متبعوه ، وهي

---

(١) مجلة التضامن الإسلامي – السنة السادسة والثلاثون – الجزء الخامس ذو القعدة ١٤٠١ هـ – سبتمبر ١٩٨١ م .

(٢) كتاب الرقاق باب يدخل الجنة سبعون ألفًا بغير حساب .

(٣) صحيح مسلم كتاب الإيمان باب دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب .

من الرؤى المبشرة بالنصر والظفر ، وأن الإسلام سينتشر وسيكثر المسلمون ولهذه الرؤيا أثرها في قلب النبي ﷺ وفي قلوب أتباعه المؤمنين .

« فأخذ النبي يمر ومعه الأمة والنبي يمر ومعه النفر والنبي يمر ومعه العشرة والنبي يمر ومعه الخمسة والنبي يمر وحده » .

هكذا جاءت هذه الرواية بلفظ « فأخذ » والمراد الشروع في المرور ، وفي معظم الروايات بلفظ « فأجد » يعني فأرى ، وفي رواية مسلم « عُرِضَتْ عليَّ الأمم فرأيت النبي ومعه الرهيط - تصغير رهط - » والروايات يفسر بعضها بعضًا ، والألف واللام في « النبي » للجنس . لأنه ليس المراد نبيًا بعينه ويحتمل أن يكون الله تبارك وتعالى أرى نبيه أشخاصهم ولم يعرفه بأسمائهم سترًا على أنبيائه ورسله ، ويحتمل أن يكون النبي ﷺ عرف أشخاصهم وأسماءهم ولكنه آثر عدم ذكر أسمائهم للستر على من ليس معه أحد ، ومن ليس معه إلا الواحد والاثنان والثلاثة ، وهذا من عظم خُلق النبي ، وأدبه مع إخوانه الأنبياء وإنه - وايم الله - لأدب يجب أن يحتذى .

وفي التعبير بقوله ﷺ « فأجد » و« فأرى » من البلاغة استحضار الصورة الماضية الواقعة حتى كأنها ماثلة أمام عينيه حين حدث ، وفائدة ذلك التحقق مما رأى ، والتثبت منه ، وأنه أمر كائن لا شك فيه ، و« الأمة » هي الجماعة الكثيرة ، و« النفر » من الرجال من ثلاثة إلى عشرة ، وقيل : إلى سبعة ، ولا يقال نفر فيما زاد على العشرة ، وفي صحيح الإمام مسلم : « فرأيت النبي ومعه الرهيط والنبي ومعه الرجل ، والرجلان ، والنبي ليس معه أحد » والرهيط : تصغير رهط ، والرهط من سبعة إلى عشرة ، وما دون السبعة إلى الثلاثة نفر ، واتفقوا على أن الرهط والنفر يقال للرجال دون النساء ، والروايات معناها واحد أو متقاربة ، وقد جاءت الروايات في الصحيحين على الترتيب من الأعلى إلى الأدنى وهو الملائم والأولى واللائق .

تفاوت الأنبياء والمرسلين في الأتباع

والمراد من هذا الحديث وأمثاله بيان أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام متفاوتون في الأتباع كثرة وقلة ، وهذا هو الواقع الذي تشهد له النصوص القرآنية ، وما قصه الله تبارك وتعالى عن الأنبياء والمرسلين وموقف أقوامهم . فسيدنا نوح الذي مكث في قومه داعيًا

إلى الله ألف سنة إلا خمسين عامًا ، لم يؤمن من قومه إلا القليل ، وفي هذا عزاء وسلوى لكل من جاء بعد الأنبياء من الدعاة المخلصين والمرشدين والمصلحين الذين يدعون إلى الله وإلى صراط مستقيم فلا يجدون من يستجيب إليهم ويتبعهم إلا القليل .

الأمة الإسلامية أكثر الأمم دخولًا الجنة

« فنظرت فإذا سواد كثير ، قلت : يا جبريل : هذه أمتي ؟ قال : لا ، ولكن انظر إلى الأفق فنظرت فإذا سواد كثير ، فقال هؤلاء أمتك ، وهؤلاء سبعون ألفًا قدامهم لا حساب عليهم ولا عذاب » .

السواد : هو الشخص الذي يُرَى من بعيد ، وَسُمِّي سوادًا لأنه يُرَى شبحه ولا تتبين شخصيته ووصفه السواد بالكثير إشارة إلى أن المراد باللفظ الجنس الشامل للقليل والكثير لا الواحد .

وقد جاء في رواية أخرى للبخاري[1] : « قيل انظر إلى الأفق فإذا سواد يملأ الأفق ثم قيل لي : انظر ها هنا ، وها هنا – في آفاق السماء – فإذا سواد قد ملأ الأفق ، قيل هذه أمتك » ، وهي أوضح في الدلالة على الكثرة ، والأفق ناحية السماء وآفاقها نواحيها .

وقد جاءت رواية الإمام أحمد في مسنده : « فرأيت أمتي قد ملئوا السهل والجبل فأعجبني كثرتهم وهيئتهم فقيل لي : أرضيت يا محمد ؟ قلت : نعم أي ربي » يعني يا ربي ، فأي حرف نداء وقد يقول لي قائل : كيف لم يعرف النبي ﷺ أمته من أول الأمر وظن أن أمة موسى هي أمته حتى بين له جبريل أنهم أمة موسى عليه الصلاة والسلام وأن أمته أعظم من ذلك بكثير ، مع أنه ورد في صحيح مسلم في حديث أبي هريرة : « كيف تعرف من لم تر من أمتك ؟ فقال : إنهم غُرٌّ محجلون من آثار الوضوء » وفي بعض الروايات « لكم سيما ليست لغيركم من الأمم » والسيما هي العلامة ؟ وهو سؤال حسن ويحتاج حقًا إلى جواب . والجواب : أنه لا تعارض قط بين الحديثين لأن غاية ما يدل عليه حديث ابن عباس أن الأسودة الكثيرة التي رآها النبي ﷺ في الأفق لم يتبين أشخاصها ولا ما عليه من سيماء وعلامات فمن ثم ظن أنهم أمته ، حتى بين له جبريل أنهم أمة موسى وأن أمته فوق ذلك بكثير .

(١) كتاب الطب باب من اكتوى أو كوى غيره وفضل من لم يكتو .

وأما حديث أبي هريرة فمحمول على حالة القرب حيث يتبين أشخاصهم وتتبين سيماهم وعلاماتهم وهي كونهم غرًا محجلين ، وذلك بنور في وجوههم حتى تضيء وجوههم كإضاءة القمر ليلة البدر وبنور في أرجلهم فهم نور على نور وذلك من غير مثلة ولا مرض ولا أذى وبذلك يكون الحديثان على سواء ، وكفاهما الله شر الاختلاف والتناقض والله أعلم .

الكي والرقية والتطير

« قلت – أي للنبي ﷺ – ولم ؟ قال : كانوا لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون » فالسائل هو النبي ﷺ والمجيب هو جبريل عليه السلام عن رب العزة جل وعلا ، وقد ثبت في الأحاديث الصحاح أن الاكتواء دواء من الأدوية التي أباحها الشارع الحكيم ، وذلك كما في الحديث المتفق عليه « إن يكن الشفاء في شيء ففي شربة عسل أو شرطة محجم أو كية نار » ولكنه خلاف الأولى لقوله ﷺ : « لكني لا أكتوي » وقوله : « وأنهى أمتي عن الكي » رواهما البخاري والنهي هنا للتنزيه لا للتحريم ومهما كان جائزًا فإنه ينافي تمام التوكل على الله ، لا أصل التوكل .

والإسترقاء طلب الرقية من الغير وهو جائز ولكنه خلاف الأولى لأنه ينافي تمام التوكل .

والإسترقاء خلاف الرقية ، فالرقية مشروعة بالاتفاق ، والدلائل عليها من الأحاديث الصحاح أكثر من أن تحصى فقد رقى النبي ﷺ نفسه ، ورقى غيره ورقاه جبريل عليه السلام ومن العلماء من حمل الإسترقاء على طلب الرقية الغير الشرعية .

« ولا يتطيرون » وقد أجمع العلماء على حرمة التطير والتشاؤم لأنه ينافي أصل التوكل على الله ، وينافي العقيدة الصحيحة وهي أنه لا يعلم الغيب إلا الله .

« وعلى ربهم يتوكلون » يعني لا على غيره ، وتقديم الجار والمجرور هنا يفيد الحصر ، وهو لون من ألوان البلاغة ، والتوكل : هو الاعتماد على الله مع أخذ في الأسباب العادية ، ومن زعم أن التوكل ينافي الأخذ بالأسباب فقد أخطأ خطأ بينًا ، وقاعدة الأسباب والمسببات من القواعد المعلومة علمًا يقينًا ، من الدلائل المتكاثرة في القرآن الكريم والسنة النبوية .

« فقام إليه عكاشة بن محصن فقال : ادع الله إن يجعلني منهم ، فقال : اللهم اجعله منهم » عكاشة بضم العين ، وفتح الكاف المشددة ، وفتح الشين ، وهو ابن محصن – بكسر الميم – وسكون الحاء المهملة وفتح الصاد المهملة ، آخره نون – ومن العلماء من يجوز تخفيف الكاف من عكاشة .

من هو عُكَّاشَة بن مِحْصَن ؟

هو الصحابي الجليل عكاشة بن محصن الأسدي من أسد بن خزيمة وهو من السابقين إلى الإسلام وكان من أجمل الرجال وأشجعهم وكنيته : أبو محصن ، وقد هاجر وشهد بدرًا وقاتل فيها قتالًا مشهودًا وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ : قال ابن إسحاق بلغني أن النبي ﷺ قال : « خير فارس في العرب عكاشة » وقال : قاتل يوم بدر قتالًا شديدًا حتى انقطع سيفه في يده ، فأعطاه رسول الله ﷺ جزلًا من حطب .. أي عودًا من شجر .. فقال : قاتل بهذا فقاتل به فصار في يده سيفًا طويلًا شديد المتن أبيض فقاتل به حتى فتح الله ، فكان ذلك السيف عنده حتى استشهد في قتال الردة سنة اثنتي عشرة للهجرة وكان أحد الأبطال الذين أبلوا في أُحُد بلاء حسنًا فرضي الله عنه وأرضاه .

وقد دعا له النبي ﷺ فاستجاب الله الدعاء ، فقد جاء في رواية أخرى في الصحيح أنه سأل النبي ﷺ « أأنا منهم ؟ قال : نعم » ومما ذكرته في التعريف به يتبين أن الرجل كان مؤمنًا صادقًا ومن ذي السوابق في الإسلام فهو جدير بأن يكون من السبعين ألفًا .

« ثم قام رجل آخر وفي رواية أنه من الأنصار فقال : ادع الله أن يجعلني منهم ، فقال رسول الله ﷺ : سبقك بها عكاشة » .

وقد اختلف العلماء في المعنى الذي لأجله لمن يجب الرسول الرجل الآخر فقيل : لأنه لو أجابه لقام ثالث ورابع وهكذا ، فيطول الأمر فحسم النبي ﷺ الأمر بهذه الكلمة التي صارت مثلًا وهذا من أدب الرسول مع الصحابة وتلطفه معهم وعدم كسر خاطرهم .

وقيل : لأن الرجل لم يكن منهم ، وقد علم النبي ﷺ ذلك بالوحي ، ولو قال له الرسول الكريم : « لست منهم » لكسر خاطره ، ولشق ذلك على نفس هذا الرجل

الآخر ، فأجابه ﷺ بهذا الجواب الرحيم الرقيق الرفيق وقيل : لأن الرجل الثاني كان منافقًا وهو بعيد لأنه قل أن يصدر هذا السؤال إلا عن مؤمن صادق مصدق بما يقوله النبي ﷺ والمنافقون بمعزل عن هذا وأيضًا فالأصل في الصحابة أنهم على الإيمان الصادق واليقين الصحيح فاحتمال كونه منافقًا بعيد وممن استبعد كونه منافقًا شيخ الإسلام تقي الدين أحمد ابن تيمية وأصح الأجوبة الأول ويليه الثاني .

ما يؤخذ من هذا الحديث من الأحكام والآداب

الأول : أن الأمة الإسلامية هي أكثر أهل الجنة وذلك لكثرة من فيها من الصديقين والشهداء والصالحين والعلماء العاملين والأئمة الهداة المرشدين والواقع التاريخي الصادق يؤيد كل ذلك .

الثاني : أن من هذه الأمة سبعين ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب بل ثبت أن مع كل واحد من السبعين ألفًا سبعين ألفًا آخرين وهؤلاء السبعون ألفًا ليسوا هم أفضل الأمة لأن الخصوصية لا تقتضي الأفضلية وقد يوجد فيمن يحاسبون من هم مثلهم بل وأفضل منهم .

قال الحافظ بن حجر في « الفتح »[1] : وقد أخرج أحمد وصححه ابن خزيمة وابن حبان من حديث رفاعة الجهني قال : « أقبلنا مع رسول الله ﷺ » فذكر حديثًا وفيه « وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفًا بغير حساب ، وإني لأرجو أن لا يدخلوها حتى تبوءوا أنتم ، ومن صلح من أزواجكم وذرياتكم مساكن في الجنة » .. قال : فهذا يدل على أن مزية السبعين بالدخول بغير حساب لا يستلزم أنهم أفضل من غيرهم بل فيمن يحاسب في الجملة من يكون أفضل منهم وفيمن يتأخر عن الدخول ممن تحققت نجاته ، وعرف مقامه من الجنة يشفع في غيره من هو أفضل منهم .

الثالث : أن هذه الخصوصية التي اختص الله هؤلاء السبعين ألفًا ومن على شاكلتهم ممن يلحق بهم لا تنال بالكسل والأماني الفارغة وإنما تنال بصدق الإيمان

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري جـ١١ صـ٤٠٩ ط السلفية .

والمواظبة على الأعمال والإخلاص فيها وخشية الله في السر والعلن والإنفاق في الفقر والغنى وذكر الله على كل حال .

الرابع : أن هذه الأمور المغيبة التي أخبر بها الصادق المصدوق ﷺ وصحت عنه وجب الإيمان بها وتصديقها والعمل بها ما دامت لا تخالف عقلًا ولا نقلًا وليس من الدين ولا من العلم ولا من قواعده المسلمة الصحيحة إنكار المغيبات لمجرد الاستبعاد وإنما هو من خطل الرأي وفساد التفكير وسوء الظن بالله وبرسول الله ﷺ ولا يسعني إلا أن أذكر بمقالة الإمام الجليل الشافعي : « إن للعقل مدى لا يعدوه كما أن للبصر مدى لا يعدوه » .

وفقنا الله إلى العمل بكتابه وسنة نبيه ﷺ فإن العمل بهما أساس السعادتين الدنيوية والأخروية .

❊ ❊ ❊

(4) حديث أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم(١)

روى الشيخان في صحيحيهما بسندهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة ، والأنبياء أخوة لعلات : أمهاتهم شتى ودينهم واحد »(٢) ، وفي رواية له بزيادة : « ليس بيني وبينه نبي » .

وفي رواية لمسلم : « أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الأولى والآخرة . قالوا : كيف يا رسول الله ؟ قال : الأنبياء أخوة من علات ، وأمهاتهم شتى ودينهم واحد ، فليس بيننا نبي » .

هذا الحديث الشريف المنيف يعتبر من جوامع كلمه ﷺ التي بلغت الغاية في دقة التصوير ، وروعة البيان والتمثيل ، والتي قررت الوحدة والأخوة بين الأنبياء جميعًا من لدن آدم أبي البشر عليه السلام ، إلى خاتمهم سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه ، هذه الوحدة القائمة على أن أصول أديانهم واحدة وهي العقائد ، وذلك لأن العقائد واحدة في كل زمان ومكان ، ولا تتغير بتغير الأزمان ؛ لأنها حقائق أزلية ، والحقائق ثابتة لا تتبدل ولا تتغير ، فمن ثم كان لا يدخلها النسخ بإجماع العلماء والعقلاء ، فالإيمان بالمبدأ والأصل الأول وهو الله تبارك وتعالى وصفاته ، والإيمان بالغاية وهي القيامة والحياة الآخرة ، والإيمان بالواسطة ، وهم ملائكة الله وأنبياؤه ، هذه حقائق ثابتة ، لا يختلف فيها دين من الأديان ، قال تعالى : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء : ٢٥] ، وقال تعالى : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى : ١٣].

وكذلك أصول الفضائل لا تختلف باختلاف الأزمان ، فليس هناك دين يحمد الكذب ، ويذم الصدق ، أو يحل الظلم وينهى عن العدل ، وكذلك أصول العبادات من صلاة وصيام ، وزكاة وحج ، ونحوها فهي قدر مشترك بين الأديان ، وإن كانت

(١) مجلة التضامن الإسلامي ، صفر وربيع الأول سنة ١٣٩٦هـ ، فبراير ومارس ١٩٧٦م.
(٢) صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء باب قول الله تعالى : ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ ، وصحيح مسلم كتاب الفضائل باب فضائل عيسى عليه السلام .

كيفياتها ومناهجها مختلفة ، فما من دين إلا وفيه صلاة ، ولكن الاختلاف في أعدادها وكيفياتها وطريقة وأزمان أدائها ، وما من دين إلا وفيه صيام ، وصدق الله تعالى في قوله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ﴾ [البقرة : ١٨٣، ١٨٤] ، فالآية نص لا يحتمل التأويل قط في أن هذه الشريعة : شريعة الصوم قدر مشترك بين الأديان ، وإذا أطلق الصوم في القرآن فالمراد به الصوم الشرعي الذي جاء به الإسلام ، وأخص خصائص الصوم هو الإمساك عن الطعام والشراب ، وعن الشهوات المباحة في غير رمضان ، فهذا القدر مشترك بين الأديان ، وأما كونه في شهر كذا ، أو عدد أيامه فهذا أمر يجوز أن يقع فيه الاختلاف ، وإذا كانت بعض الطوائف اليهودية والمسيحية[1] تصوم عن كل ذي روح ، أو ما هو من ذي روح ، وعدم الصوم عما عدا ذلك ، فهذا من تحريفاتهم وتبديلاتهم ؛ لأن صيامهم هذا لا يحقق حكم الصوم .

وهكذا يتبين لنا أن العقائد ، وأصول الفضائل ، وأصول الشرائع هي واحدة في كل الأديان ، ولكن الاختلاف في الكيفيات والمناهج ، والوسائل التي تقام بها هذه الشرائع ، فهذه هي التي يجوز أن يقع فيها الاختلاف ، قال عز شأنه : ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ [المائدة : ٤٨] ، أي شريعة وطريقة في أداء هذه الشرائع .

وقال تعالى : ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ﴾ ، وقال تعالى : ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾ [الحج : ٣٤].

وبعد هذا التقديم الذي لا بد منه لكي نفهم هذا الحديث حق الفهم ، ويتبين لنا ما فيه من روائع البيان ، وإحكام الكلام ، وتسلسل الفكر في الحديث ، وتعانق بعضها ببعض ، سأتناول الحديث بالشرح والتحليل ، فأقول وبالله التوفيق :

---

(١) الأولى إطلاق لفظ « النصرانية » . [الناشر] .

« أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة » :

وفي الكتاب الكريم : ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران : ٦٨].

وليس بين الآية والحديث تخالف ما ، فرسول الله ﷺ هو أولى الناس بجده الأعلى إبراهيم ، فالخليل عليه الصلاة والسلام كان حنيفًا مسلمًا ، فأحق الناس به هم أتباعه الأُوَل ، ثم هذا النبي محمد عليه الصلاة والسلام ، لأنه جاء بالحنيفية السمحة في أكمل وأتم وأسمح عقائدها وشرائعها وأخلاقها وآدابها ، ولم تعرف البشرية دينًا في حقيقته ، ولا شريعة في سماحتها ، وكمالها ، ووفائها بحاجات المجتمعات البشرية مثل ما عرفت ذلك الدين وشريعة نبينا محمد ، فكيف لا يكون أحق الناس بإبراهيم الخليل ؟!

وقوله ﷺ : « أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة » . قضية فيها شيء من الغرابة ، وتحتاج إلى شرح وبيان ، فمن ثم سأل الصحابة رسول الله ﷺ فقالوا : « كيف يا رسول الله ؟ » لأن أول ما يتبادر إلى الأذهان أن أولى الناس بعيسى ابن مريم عليه السلام في الدنيا والآخرة هم أتباعه ولا سيما الحواريون الذين آمنوا به واتبعوه ، ونصروه وتحملوا في سبيله ما تحملوا ، وهذه الرواية التامة هي التي عليها المعول ، وأما الروايات التي ليس فيها سؤال ، فتحمل على الإيجاز والاقتصار ، وقد علل النبي ﷺ هذه الأولوية بأمرين .

الأول : هو قوله ﷺ : « الأنبياء أخوة من علات ، وأمهاتهم شتى ودينهم واحد » .

ولكي نفهم هذا البيان الرائع حق الفهم ، لا بد أن نبين من هم أولاد العلات ؟

العلات : هو الأخوة الذين يضمهم أب واحد وتكون أمهاتهم شتى ، يعني أبناء الضرات ، مأخوذ من العلل ، وهو الشرب مرة بعد أخرى ، ذلك أن العرب يطلقون على الشرب الأول نهلًا ويطلقون على الشرب الثاني عللًا ، وهذا المعنى هو الذي يتحقق فيمن تزوج أكثر من واحدة ، فقد نهل من الأولى وعل من الثانية والثالثة .

وأما أولاد الأعيان فهم الذين يكونون من أم واحدة ، وأب واحد ، وأما أولاد الأخياف فهم على عكس أولاد العلات ، الأم واحدة ، والآباء متعددون ، وهم الأخوة

للأم ، ويرحم الله القائل :

وإذا أردتَ تُـمَـيِّـزَ الأَعْـيَـانِ فَـهُـمُ الـذيـن يَـضُـمُّـهُـم أبـوانِ
أخياف أم ليس يجمعهم أب وبعكسه العلات يفترقانِ

فالأخوة التي هي بين عيسى ونبينا عليهما الصلاة والسلام هي الأخوة في الله والأخوة في الدين ، والأخوة في الإنسانية ، والأخوة في الدعوة إلى الله ، والأخوة في الأخلاق والسلوك هي التي اقتضت أن يكون نبينا محمد هو أولى بعيسى ابن مريم ، في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فبالذب عنه ، ورد فري اليهود عليه وعلى أمه عليهما السلام ، وتقرير أنه عبد الله ورسوله ، وأنه كلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول ، أما اليهود فهم بمعزل عن أن يكونوا أولى بعيسى عليه السلام ، لأنهم تجنوا عليه ، ورموه بأنه ابن زنا ، وافتروا عليه وعلى أمه شتى الافتراءات .

وأما النصارى فليسوا أهلًا لهذه الأولوية لأنهم حرفوا وبدلوا وزعموا أن عيسى هو الله ، أو ابن الله ، كما رفعوا أمه إلى مقام الألوهية جهلًا وكذبًا ، وقد تبرأ منهم ومن أكاذيبهم في الأرض وبعد رفعه إلى السماء ، وسيتبرأ منهم يوم يقوم الناس لرب العالمين ، وصدق الله في قوله : ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ﴾ ، الآية [المائدة : ١١٦].

وإذا كان نبينا محمد هو أولى الناس بعيسى عليه السلام ، فنحن معاشر المسلمين أولى من المسيحيون[1] بعيسى عليه السلام ، لأننا نؤمن بأنه عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول ، كما قال الله تعالى ، وكما قال رسول الله ، ولأننا نبرئه وأمه – عليهما السلام – من فرى اليهود ، ومن فرى المسيحيين عليه وعلى أمه ، وأيضًا فنحن الذين آمنا بموسى وعيسى ، وبنبينا وبجميع رسل الله على حين هم جحدوا نبوة نبينا محمد ﷺ .

وكان يمكن للنبي ﷺ أن يقول في الجواب : إنه أخي في الدين وفي الله ، ديننا

(١) سبق التنبيه على هذه اللفظة . [الناشر] .

واحد ، ومرسلنا واحد . ولو فعل لكان كافيًا في الجواب ، ولما عاب أحد عليه هذا الكلام ، ولكن أنى ؟! وهو الذي آتاه الله جوامع الكلم ، وكان القرآن الكريم ربيع قلبه وغذاء روحه ونفسه وفاتح عقله ، وأنيسه في وحدته ، وخلوته وهجيراه في جميع أحواله ، ومثل هذا الكلام إن جاز من الفصحاء والبلغاء فلن يجوز من أفصح الفصحاء ، وأبلغ البلغاء فلا تعجب إذا كان رسول الله ﷺ أتى في جوابهم بهذه القضية التي اشتملت على الجواب ، وزادت وأفادت معاني أخرى ، وأفادت ، فقال : « الأنبياء أخوة من علات » ثم شرح هذا فقال : « أمهاتهم شتى ودينهم واحد » . وقد بينت بما فيه الكفاية ، كيف كان دينهم واحدًا ، وشرائعهم ومناهجهم مختلفة ، فلا حاجة إلى تكراره فالمراد بـ« أمهاتهم » هو شرائعهم وما يتعلق بالأمور الفرعية في الشرائع ، فهذه هي التي يجوز أن تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة ، وظروف قوم كل رسول ، وأحوالهم ، والمراد بالدين الأصول من العقائد وغير العقائد فهي واحدة .

وقد بَلَغَ النبي ﷺ المدى بهذا البيان الموجز المفهم ، غاية البلاغة ، والحكمة ، والتأثير في النفس ، ولا سيما من العرب الخلص الذين أنزل القرآن بلغتهم ، وتمرسوا بأساليب البيان .

كما قرر به النبي الوحدة الأخوية بين الأنبياء ، هكذا ينبغي أن تكون هذه الأخوة بين أتباع الأنبياء ، فلا تناحر ولا تحارب ، ولا عداوات ولا حزازات ، وإنما هو إيمان بالله وإيمان بالرسل جميعًا ، وإقامة للشريعة العامة الخالدة ، شريعة الإسلام ، ففي الكلام النبوي إيماء وإشارة إلى ما يجب أن يكون ، ولو تمت هذه الأخوة بين أتباع الأنبياء لعاش العالم اليوم في إيمان وأمان ، وإسلام وسلام وصدق الله : ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران : ٦٤].

وقد يقول قائل : ما دام الكلام سيق مساق ضرب المثال ، فَلِمَ لَمْ يقل النبي : أمهاتهم شتى وأبوهم واحد ، على أن يراد بالأب المرسل ، والموحى لهم وهو الله تعالى ، ويكون الكلام من قبيل المجاز ؟!

والجواب : أنه لو جاء الكلام النبوي على ما اقترحت وظننت لكان فتنة لكثير من

الناس ، ولكان شبهة يتذرع بها من زعموا أن عزيرًا ابن الله وأن عيسى ابن الله ، فانظر يا قارئي الكريم إلى هذا الاحتراس البالغ من الموحى إليه من رب العالمين ، وصدق الله تبارك وتعالى : ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم : ٣ - ٤] .

الأمر الثاني : في سبب أولوية النبي بعيسى قوله : « ليس بيني وبينه نبي » ، وبهذا تمت الأولوية وكان النبي حقيقًا بها ، ذلك أنه لم يكن بين نبي الله عيسى وبين نبي الله محمد ، نبي قط ، وليس من شك في أن القرب الزمني هذا ينفرد به عيسى دون غيره من الأنبياء ، وأيضًا أليس عيسى هو الذي بشر بالنبي ﷺ صراحة في الإنجيل ؟ وعلى الرغم من التحريف والتبديل ، فلا جدال أن فيه ما يكاد يكون نصًّا في الاسم النبوي .

وبعد : فلعلك يا قارئي الكريم ، آمنت معي أن البيان النبوي هو أحسن البيان بعد القرآن ، وأحكمه بعد أحكام القرآن ، وأثراه بالمعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة بعد كتاب الله .

* * *

(5) حديث تنكح المرأة لأربع[1]

روى الشيخان في صحيحيهما بسنديهما عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ أنه قال : « تنكح المرأة لأربع : لمالها ولحسبها ولجمالها ، ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك »[٢] .

وهذا الحديث رواه غير الشيخين أيضًا ؛ أبو داود والنسائي[٣] .

الشرح والبيان

هذا الحديث الشريف الوجيز يعتبر من جوامع كلمه ﷺ ؛ لأنه حديث ذو ألفاظ قليلة ولكنه أفاد معاني ثرة كثيرة .

قوله ﷺ : « تنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، ولجمالها ، ولدينها ... » .

وقد أراد النبي ﷺ أن يبين ما عليه الناس ، أو معظمهم في العادة ، فإنهم يقصدون هذه الأربع وآخرها الرغبة في الدين ، فبيّن لهم أن ما يجعلونه آخرًا -وهو الدين- ينبغي أن يكون أولًا ، والعاقل هو الرجل الذي يعتبر الدين أول المقاصد عند إرادة الزواج .

فليس في الحديث في الحقيقة إقرار للناس على ما هم عليه ، وإنما إنكار عليهم أن يكون هذا هو الواقع ، والكائن ، ليتوصل بذلك إلى إرشادهم ، وتربيتهم على الطريقة المثلى ، والمنهج المستقيم ، وهذا منهج من مناهج النبي ﷺ في التربية والتعليم ، وهو الاعتراف بما عليه الناس في واقع حياتهم ، ثم يكرّ عليهم ببيان ما هو الأمثل والأفضل والأجمل بهم ، وهي طريقة مبنية على علم بالنفوس البشرية عجيب .

وقد جاء الحديث على هذا الأسلوب بذكر العدد مجملًا ، ثم تفصيله لما يفيده من تمكن المعنى في النفس فضل تمكن ، فالسامع إذا سمع قوله ﷺ : لأربع ، تتشوق نفسه وتتطلع إلى معرفة ما هي هذه الأربع ؟

---

(١) مجلة التضامن الإسلامي ، السنة الخامسة والثلاثون ، الجزء الثاني شعبان ١٤٠٠هـ ، يونية ١٩٨٠م .

(٢) صحيح البخاري كتاب النكاح باب الأكفاء في الدين ، وصحيح مسلم كتاب النكاح باب استحباب نكاح ذات الدين .

(٣) سنن أبي داود كتاب النكاح ، وسنن النسائي كتاب النكاح .

فيأتي التفصيل بعد الإجمال فيتمكن الكلام من النفس ومن العقل غاية التمكن ، وهذا الأسلوب النبوي الشريف نلمسه في كثير من الأحاديث النبوية التي جاءت على اللفظ النبوي الكريم .

وقوله ﷺ : « لمالها ، ولحسبها ، ولجمالها ، ولدينها » ، بدل من قوله : « لأربع » ، ومن البلاغة في هذا المقام الإتيان باللام في الأمور الأربعة المذكورة ، لتأكيد الإبدال من المبدل منه ، وهي كلمة « لأربع » ولو لم يذكر النبي ﷺ هذه اللامات الأربعة لما أفاد هذا التأكيد ، واللام الأولى في قوله ﷺ لأجل ، أو إن شئت فقل لام العلة .

والمال : هو كل شيء متقوم سواء أكان أحد النقدين ، أم دورًا ، أم عقارًا ، أم عروضًا .

والحسب : بفتح الحاء والسين المهملتين ثم باء موحدة – أي الشرف والنسب ، والحسب في الأصل الشرف بالآباء والأجداد والأقارب ، وهو مأخوذ من الحساب ، لأنهم كانوا إذا تفاخروا عدّوا مناقبهم ، ومناقب آبائهم وقومهم وحسبوها ، فيحكم لمن زاد عدده على غيره ، حقيقة عرفية لغوية في الشرف وحيازة الفضائل .

وقيل : المراد بالحسب : الفعال الحسنة الجميلة ، وأما من فسره بالمال فقد أخطأ ، لذكره ﷺ المال قبل ذلك ، فيكون في الكلام تكرار ، والتكرار لغير غرض ليس من مناهج البلغاء ، فما بالك بمن أوتي جوامع الكلم واختصر له الكلام اختصارًا[١] .

أما ما أخرجه الأئمة أحمد والنسائي ، وصححه ابن حبان[٢] ، والحاكم من حديث بريدة مرفوعًا إلى النبي ﷺ أنه قال : « إن أحساب أهل الدنيا الذي يذهبون إليه : المال » ، فيحتمل أن يكون المراد منه أن المال حسب من لا حسب له ، فيقوم المال لمن لا نسب له مقام النسب الشريف لصاحبه ، وهذا هو الواقع بين الناس ولا سيما اليوم حتى أصبح مثلًا تتداوله الألسنة .

ومن هذا المعنى حديث سمرة بن جندب رفعه إلى النبي ﷺ أنه قال : « الحسب :

---

(١) مقتبس من حديث رواه أبو يعلى ، وذكره القاضي عياض في « الشفاء » وأما صدره وهو : « أوتيت جوامع الكلم ... » فهو من حديث رواه البخاري ومسلم .

(٢) حبان ؛ بكسر الحاء المهملة وفتح الباء الموحدة فمشدد ، إمام من أئمة الحديث .

المال ، والكرم : التقوى » . رواه أحمد ، والترمذي ، والحاكم وصححاه ، وبهذا الحديث استدل من اعتبر الكفاءة بالمال .

ويحتمل أن يكون المراد أن شأن أهل الدنيا رفعة من كان كثير المال ، ولو كان وضيعًا ، وضعة من كان مقلًا ولو كان رفيع النسب ، كما هو مشاهد اليوم وحاصل ، فعلى الاحتمال الأول يمكن أن يؤخذ من الحديث اعتبار الكفاءة في المال ، لا على الاحتمال الثاني ، لكونه سيق مساق الإنكار لما هو واقع .

« ولجمالها » هكذا جاءت رواية الإمام مسلم ، وأما رواية الإمام البخاري فقد جاءت بغير لام ، يعني : « وجمالها » والذي يترجح عندي هي رواية ذكر اللام ، ويكون ترك اللام في رواية البخاري جاء من بعض الرواة ، أو النساخ .

« ولدينها » المراد بالدين السماوي النازل من عند الله تبارك وتعالى ؛ لا النِّحَل الأرضية التي هي من صنع البشر ، وابتدعوها من عند أنفسهم ، والمراد به هنا الدين الإسلامي الذي ارتضاه الله للبشرية كلها بعد بعثة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام .

تقديم الدين

وقد قلت : إن الحديث جاء في الترتيب على ما هو موجود وكائن بين الناس ، لا على ما ينبغي أن يكون ، وأيضًا ففي تأخير الدين غرض آخر ، وهو ما ذكره ﷺ بقوله : « فاظفر بذات الدين » ، ولو أنه ﷺ قدمه وعلق عليه هذا التعليق ، ثم ذكر بعده الأمور الثلاثة لما حَسُنَ الكلام هذا الحُسْن الذي جاء عليه الأسلوب النبوي الشريف الكريم .

« فاظفر بذات الدين » بيان لما ينبغي أن يكون بين الناس ، وأن يأخذوا به جميعًا وهو تقديم الدِّيّنة ولو كانت فقيرة على الغنية غير الدِّيّنة ، وتقديم الدِّيّنة ولو كانت غير حسيبة على الحسيبة النسيبة غير الديّنة ، وتقديم الديّنة ولو كانت دميمة ، على الجميلة غير الدينة ، فإن اجتمع في الدينة الأمور الثلاثة فهي أولى من غيرها ممن لم تجمع هذه الميزات ولا محالة ، ومن اجتمع فيها اثنتان مع الدين فيه أولى ممن ليست كذلك ، ومن اجتمعت فيها ميزة واحدة مع الدين فهي أولى ممن ليست كذلك .. وهكذا ، وليس من شك أن من اجتمعت فيها الميزات الأربع : الدين والجمال ، والشرف والمال ، فقد استوفت الكمال من جميع وُجوهه ، وأخذت بجميع أطرافه .

ولما عرضت السيدة نُفَيسة بنت مُنْية [1] على رسول الله ﷺ الزواج في شبابه قبل البعثة ، قال لها : « لا أجد ما أتزوج به » . فقالت له : أرأيت إن كفيت المال ، ودعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة ؛ فهل تجيب ؟ قال : « فمن هي ؟ » . قالت : خديجة ، فقال : « وكيف لي بذلك ؟ » ، قالت : عليَّ ، قال : « فأنا أفعل » .

فالإسلام لا يحول بين الرجل وبين أن يطلب في الزواج الدين والجمال والمال والشرف ، وكذلك لا يحول بين المرأة وبين أن تطلب في زوجها أن يكون رجلًا دينًا وهو إلى دينه ذو مال وشرف ومنزلة .

« فاظفر بذات الدين » ، وفي رواية لمسلم عن جابر رضي الله عنه : « فعليك بذات الدين ...» ، والمعنى واحد ، فإن الغرض الحث على طلب ذات الدين ، والمعنى أن اللائق بذي الدين والمروءة أن يكون الدين مطمح نظره في كل شيء ، ولا سيما فيما تطول صحبته كالزواج ، فطلب ذات الدين هو غاية البغية والقصد .

« تربت يداك » : والمراد بهذه الكلمة الحث على الظفر بذات الدين ، والدين : يشمل الخلق الكريم وكل الفضائل ، ففي طلبه غنية عن طلب أي شيء آخر من الأخلاق والآداب وهذه الكلمة من الكلمات التي أريد بها غير معانيها الأصلية ، فهي لا يقصد بها الدعاء عليه بأن تلصق يده بالتراب على ما هو الظاهر ، فليس هذا من خلق النبي ﷺ ، ولا من هديه ، ومن هذا القبيل « عَقْرَى حَلْقَى » وقول العرب عند التعجب : قاتله الله ما أفصحه !!

والفاء في قوله ﷺ : « فاظفر ... » واقعة في جواب شرط مقدر ، والمعنى : إذا تحققت ما فصّلته لك تفصيلًا بيّنا في بيان الأحوال الداعية إلى اختيار الزوجة فيما يجري بين الناس ، فاظفر بذات الدين ، لأنها تكسبك سعادة في الدنيا والآخرة ، ولأن ذات

---

(١) نفيسة بضم النون وسكون الياء المثناة على صيغة المصغر ، هي بنت منية ، بضم الميم وسكون النون وهي أمها ، وقيل : أم أبيها ، وأما أبوها فهو أمية ، وهي أخت الصحابي الجليل يعلى بن أمية ، وقد أسلمت السيدة نفيسة ، ولها صحبة .

(**توضيح**) : قال ابن ناصر الدين في « توضيح المشتبه » عند كلمة (نفيسة) : « قلت : هي بفتح النون ، وكسر الفاء ، وسكون المثناة تحت ، وفتح السين المهملة ، تليها هاء » . اهـ . [الناشر] .

الدين إذا أمرها زوجها أطاعته ، وإذا نظر إليها سرّته لنظافتها وطهرها ، والدين الإسلامي مبني على النظافة والطهارة ، وإذا غاب عنها حفظته في نفسها وفي ولده وفي بيته وفي ماله ، فبهذه المعاني المجتمعة كان الزواج بذات الدين أمرًا مطلوبًا مرغوبًا فيه ، وإذا كان النبي ﷺ قال الحديث غير مرة ، فيكون قال مرة : « فاظفر بذات الدين » ، وقال في مرة أخرى : « فعليك بذات الدين » ويكون من قبيل التفنن في العبارة ، وهكذا يكون شأن البلغاء .

وإذا كان قال الحديث مرة واحدة فيكون التغاير اللفظي فحسب من قبيل الرواية بالمعنى ، والذي يترجح عندي أن يكون لفظ النبي ﷺ هو : « فاظفر بذات الدين » ؛ لأنه أبلغ من « فعليك بذات الدين » ، وذلك لما في التعبير بكلمة « فاظفر » من الإشعار بأن ذات الدين فرصة ينبغي أن تهتبل ولا تضيع ، وأن من فاز بذات الدين فقد فاز فوزًا عظيمًا ، وأيضًا ففي الظفر إشعار بأن تزوج ذات الدين نعمة عظيمة من نعم الله على الإنسان تستحق الشكران .

ومن الإرشادات النبوية الحكيمة في باب الزواج أن لا يجعل الزوج همه في ذات المال ، أو في ذات الجمال أو فيهما معًا ، ففي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ قال : « لا تزوجوا النساء لحسنهن ، فعسى حسنهن أن يُرْديهن –يعني يهلكهن– ولا تزوجوهن لأموالهن ، فعسى أموالهن أن تطغيهن ، ولكن تزوجوهن على الدين ، ولأمة ذات دين أفضل » . يعني من حسناء ليست ذات دين ، رواه ابن ماجه[1] .

وكما يطلب الدين في الزوجة كذلك ينبغي أن يكون المقصد الأول في الرجل الدين والخلق والعلم ولا سيما العلم الشرعي ، علم الكتاب وعلم السنة ؛ لأنه لا ينفك غالبًا عن التدين العملي ، فإن كان عالمًا من علماء علوم الدنيا ، وليس بديّن فالدَّيّن – ولو كان في وظيفة دنيا – خير منه .

ومما يستحسن ذكره هنا ، ما ذكره محيي السنة الإمام البغوي أن رجلًا قال للحسن

(١) **حديث ضعيف** . أخرجه ابن ماجه (١٨٥٩) ، والبيهقي (٧/٨٠) ، وفي سنده الإفريقي – عبد الرحمن ابن زياد بن أنعم – وهو ضعيف ، انظر « ضعيف الجامع » (٦٢٢٩) وقال الشيخ الألباني هناك : ضعيف جدًّا ، و« الضعيفة » (١٠٦٠) . [الناشر] .

البصري الإمام التابعي الجليل : إن لي بنتًا أحبها ، وقد خطبها غير واحد ، فمن ترى أن أزوجها له ؟ فقال الحسن البصري : زوّجها رجلًا يتقي الله ، فإنه إن أحبها أكرمها ، وإن أبغضها لم يكن ليظلمها . وإنها لكلمة حكيمة حقًّا صدرت من قلب مفعم بالإيمان والصلاح والعلم والمعرفة الأصيلين .

وبعد ، فإن هذا الحديث الذي لا يتجاوز السطرين قد كتبت عنه بضع صفحات مع حرصي على الإيجاز والتركيز ، فما بالك لو أني أردت البسط والإطناب ، وصلى الله تبارك وتعالى على سيدنا وسيد البشرية كلها محمد الذي أوتي جوامع الكلم ، واختصر له الكلام اختصارًا .

ويؤخذ من هذا الحديث الشريف الوجيز الأحكام والآداب الآتية :

أحكام وآداب :

(١) إن الإسلام في تشريعاته وآدابه لا يعارض الفطر البشرية السليمة ، ولكنه يوافقها ويوائمها ، وإن حصل لها انحراف فإنه يعدلها ويقومها ويوجهها إلى ما يحقق سعادة الدنيا والآخرة ، فالإسلام رغب وحبب في تزوج ذات الدين ، وأمر بالحرص عليها ، والظفر بها ، ولكنه مع هذا لا يمنع أن يجتمع مع الدين المال والجمال والشرف ، وها أنذا قد فصّلت وبينت ووضحت واستدللت ، فمن زعم غير ذلك فقد ظلم نفسه ، وظلم الإسلام الذي أنزله الله دينًا عامًّا خالدًا صالحًا لكل زمان ومكان ، ولكل الناس على اختلاف مشاربهم وأمزجتهم وبيئاتهم .

(٢) إن الدين بمعناه العام الشامل يدخل تحته الأخلاق والآداب ، ويدخل تحته العناية برعاية الأولاد ، ورعاية الأزواج ورعاية حقوق الأهل وحقوق الجيران ، ولن تجد ديِّنة حقيقية تفرط في حق زوجها وأولادها ، وفي حق أهلها وجيرانها ، واليوم الذي سيكون فيه الرجال والنساء عالمين بدينهم وعالمات بدينهن ، هو اليوم الذي ستحل فيه المشكلات الزوجية ، ولن تجد يومها هؤلاء الذي يذهبون واللاتي يذهبن إلى المحاكم ، للفصل في الخصومات والمنازعات ، ومما يستحسن ذكره أن الصديق أبا بكر لما ولي الخلافة جعل الفاروق قاضيًا فبقي عامين لا يختصم إليه اثنان ، وذلك لأن وازع الدين كان قويًّا ، وكل مسلم ومسلمة يعرفان ما لهما وما عليهما من الحقوق ،

فمتى يجيء مثل هذا اليوم ؟ متى ؟ !

(٣) إن كثيرًا من الناس اليوم يأتيهم الرجل الديّن ذو الخلق ، ولكنه قليل المال ، أو قليل الجاه ، أو الشرف ، فيرفضونه مع أنه غالبًا يسعد ابنتهم ويعرف لها قدرها ، فإلى هؤلاء أسوق قوله ﷺ : « إذا جاءكم من ترتضون دينه وخلقه فزوجوه ، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير » . رواه الترمذي ، وهو حديث حسن ، نعم والله تكن فتنة في الأرض وفساد كبير !!! وصدق الرسول المبلغ عن رب العالمين .

جليس ونصيحة

سُئل النبي ﷺ : أي جلسائنا خير ؟ قال : « خياركم مَن ذَكَّرَكُمْ باللَّهِ رُؤْيَتُهُ ، وَزَادَ في عِلْمِكُمْ مَنْطِقُهُ ، وَرَغَّبَكُمْ في الآخرةِ عَمَلُهُ »[1] .

ومن نور هدي النبوة قال بعض الصاحين : ولا تخالط إلا عاقلًا تقيًا ولا تجالس إلا عالمًا بصيرًا ..وابذل النصيحة لله وللمؤمنين ، وشاور في أمرك الذين يخشون الله ، قال الله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر : ٢٨] ، وقال النبي ﷺ : « الدين النصيحة »[2] .

واعلم أن من نصحك فقد أحبك ، ومن داهنك فقد غشك ، ومن لم يقبل نصيحتك فليس لك بأخ ، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لا خير في قوم ليسوا بناصحين ، ولا خير في قوم لا يحبون الناصحين .

* * *

(١) أخرجه أبو يعلى الموصلي في مسنده (٣٢٦/٤) برقم (٢٤٣٧/١١٠) ، وفي سنده لين ، ويشهد له ما عند أحمد في المسند (٤٥٩/٦) بلفظ : « ألا أخبركم بخياركم ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : « الذين إذا رؤوا ذُكر الله ... » وإسناده حسن . [الناشر] .

(٢) رواه مسلم (٥٥/٩٥) من حديث تميم الداري . [الناشر] .

[١٠] موعظة بليغة

(1) من وحي النبوة

روى الإمام أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني بسنده عن عبد الرحمن بن عمرو السلمي ، وحجر بن حجر قالا : أتينا العرباض بن سارية رضي الله عنه – وهو ممن نزل فيه : ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ [التوبة : ٩٢] – فسلمنا ، وقلنا : أتيناك زائرين ، وعائدين ، ومقتبسين ، فقال العرباض : صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم ثم أقبل علينا بوجهه ، فوعظنا موعظة بليغة ، ذرفت منها العيون ، ووجلت منها القلوب ، فقال رجل : يا رسول الله ، كأن هذه موعظة مودع ، فماذا تعهد إلينا ؟ فقال : « أوصيكم بتقوى الله ، والسمع والطاعة ، وإن عبدًا حبشيًا ، فإنه من يعش بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا ، فعليكم بسنتي ، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، تمسكوا بها ، وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة » .

تخريج الحديث :

أخرج الحديث أبو داود وأخرجه أيضًا الترمذي في جامعه ، ولم يذكر الصلاة وفي آخره تقديم وتأخير ، وإسناده صحيح ، انظر (جامع الترمذي ، كتاب العلم ، حديث رقم (٢٦٧٦)) .

وأخرجه أيضًا الإمام أحمد في « المسند » (١٢٦/٤، ١٢٧) ، وأخرجه ابن ماجه في مقدمة السنن ، باب اتباع سنة رسول الله ﷺ (سنن ابن ماجه ، حديث رقم ٤٤) .

الشرح والبيان :

قالا : أتينا العرباض بن سارية رضي الله عنه ، وهو ممن نزل فيه ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ ، العرباض بن سارية : صحابي جليل ؛ صحب

(١) مجلة الوعي الإسلامي – العدد ١٧٨ شوال سنة ١٣٩٩هـ .

النبي ﷺ وغزا معه، وجاهد في سبيل الله، وقد أرادا بقولهما: وهو ممن نزل فيه: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ﴾ بيان منقبة من مناقبه، وقد كان هذا في غزوة تبوك، وكانت في السنة التاسعة للهجرة، وكان النبي ﷺ بلغه أن الروم يجمعون الجموع لغزو المدينة، فأراد أن يغزوهم قبل أن يغزوه، وكانت هذه من سياسة رسول الله ﷺ في الحروب، وهي حكمة عالية بالغة الغاية في الصواب حتى لا يتجرأ الأعداء - وما أكثرهم - على غزو بلاد الإسلام، وليبين لهم أن سلطان الله في الأرض لا يخاف أحدًا.

وكان مما حدث أن جماعة من المسلمين لم يكن عندهم ظهر يركبون عليه، ولا نفقة ينفقون منها على الجهاد، فجاءوا إلى رسول الله ﷺ فاعتذر لهم بعدم وجود الظهر الذي يركبون عليه، فرجعوا وهم يبكون حزنًا على ما فاتهم من شرف الخروج في سبيل الله، فليعلم المسلمون والعرب اليوم ذلك، وليعلموا أنه لا يمكن استرجاع عزتنا المفقودة، وقوتنا المرهوبة إلا بأن نتخلق بأخلاق هؤلاء السادة الأبرار، حبًا في الجهاد، ورغبة في الاستشهاد، وهذا المذكور في الحديث جزء من الآية الثانية والتسعين من سورة التوبة.

« قلنا: أتيناك زائرين، وعائدين، ومقتبسين ».

والزيارة من حق المسلم على المسلم، وكذلك العيادة من حق المسلم على المسلم، كما في الأحاديث الصحاح في الصحيحين وغيرهما، والظاهر أنه كان مريضًا وإلا تكون العيادة بمعنى الزيارة، ويكون الكلام من قبيل عطف التفسير، ومعنى: « مقتبسين » يعني من علمك ومروياتك عن رسول الله ﷺ فالعلم نور، وما سيأخذانه منه من العلم قبس من هذا النور، وهو تعبير بليغ وقد كان الرجلان بليغين حقًّا حيث قدما الزيارة والعيادة على الاقتباس، فهو من قبيل تقديم الوسيلة بين يدي المطلوب، وهو يدل على ما كان يتمتع به الصحابة من البلاغة، والذكاء والكياسة.

« فقال العرباض: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم ثم أقبل علينا بوجهه، فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب ».

وكان من سنة رسول الله ﷺ إذا ما صلى بالناس صلاة جماعة استدار إليهم، وواجههم، ليعظهم ويذكرهم، أو ليسأله سائل فيجيبه، والموعظة البليغة هي المطابقة لمقتضى الحال، وللظروف والملابسات التي كانت تدعو إليها آنذاك وكلام رسول الله

ﷺ كله فصيح بليغ ، فوصف الموعظة بالبليغة من قبيل التوضيح ، لا التخصيص ؛ لأنه لم يكن لرسول الله ﷺ مواعظ غير بليغة ، نعم فيها البليغ والأبلغ .

ومعنى « ذرفت » أي سالت وجرت من تأثيرها الدموع من العيون ، « ووجلت » يقال : وجل القلب – بكسر الجيم في الماضي – يوجل – بفتح الجيم في المضارع – من باب سمع يسمع ، إذا خاف وفزع ، والوجل : خوف ممزوج بخشية الله ، والإشفاق على النفس من عقابه ، ومثل هذا تظهر آثاره بذرف الدمع من العين .

« فقال رجل : يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع !! فماذا تعهد إلينا ؟ » .

الظاهر أن هذه الموعظة كانت في أخريات حياة النبي ﷺ ، ومعنى مودع ، أي : للدنيا ولنا ، وقد كان الصحابي القائل لهذه المقالة على غاية من الدقة في التعبير ، فلم يقل : إنها موعظة مودع مثلًا ، وإنما قال : « كأن هذه ... » لأن اليقين في مثل هذا غير ممكن ، لأن الأعمار بيد الله ، والآجال لا يعلم حقيقتها إلا الله تبارك وتعالى ، وصدق الله : ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان : ٣٤] .

وقد فهموا كونها موعظة مودع ، من الموعظة ، ومن القرائن والأحوال التي كانت حينئذ .

« فماذا تعهد إلينا ؟ » يعني توصينا ، يقال : عهد إليه بكذا يعهد ، إذا أوصى إليه .

فقال : « أوصيكم بتقوى الله ، والسمع والطاعة ، وإن عبدًا حبشيًا ، فإن من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا » .

وقد كانت الوصاة بتقوى الله لازمة من لوازم خطب رسول الله ﷺ ومواعظه ، والتقوى لها معنيان : معنى قلبي نفسي ، وهو الذي عناه رسول الله ﷺ بقوله : « التقوى ههنا – ثلاثًا – وأشار إلى صدره الشريف » ، ومعنى يتعلق بالجوارح والسلوك وأحسن ما تعرف به : امتثال المأمورات ، واجتناب المنهيات ، وهي بهذا المعنى شاملة لكل هدى وحق وخير ، فمن ثم ظهر السر في توصية رسول الله ﷺ بها دائمًا في خطبه ، ومواعظه ، والتقوى ما لم تكن نابعة من القلب فإنه لا تدوم ، وسرعان ما تزول .

وقد كان رسول الله ﷺ على حق حينما أتبع التوصية بالتقوى بالتوصية بالسمع والطاعة للخليفة والأمير وإن كان عبدًا حبشيًا . وعبدًا منصوبة على أنها خبر كان

المحذوفة مع اسمها ولذلك نظائر في الأحاديث الصحيحة ، ففي حديث بدء الوحي المروي في « الصحيحين » عن السيدة عائشة رضي الله عنها ، قول ورقة بن نوفل : « يا ليتني فيها جذعًا » أي أكون جذعًا .

وذلك لأن رسول الله ﷺ يعلم أنه سيكون هناك خلاف على الخلافة والإمارة ، فكانت الوصية بالسمع والطاعة أمرًا لا بد منه وليس أدل على ذلك من أن رسول الله ﷺ لم يجاور الرفيق إلا وقد بدأ الخلاف على الخلافة ، ولولا فضل الله على هذه الأمة وتوفيقه لقادتها فبايعوا الخليفة الأول الصديق أبا بكر رضي الله عنه وأرضاه ، ثم صار إجماعًا فيما بعد ، لكانت فتنة في الأرض ، وفساد كبير ، ثم كان بعد ذلك من الخلاف على الخلافة – بعد سيدنا عثمان رضي الله عنه – ما أحدث صدعًا في وحدة الأمة الإسلامية حينذاك ووقعت وقائع عظيمة سالت فيها الدماء بلا حساب ، ولسنا نخوض فيما وقع ، فتلك دماء طهر الله منها أيدينا ، فلنطهر منها ألسنتنا ، والله تبارك وتعالى يغفر لنا ولهم ، والله المستعان وعليه التكلان .

قول رسول الله ﷺ : « فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين تمسكوا بها ، وعضوا عليها بالنواجذ » .

السنة : المراد بها هنا الطريقة المشروعة في الدين ، فتشمل الاعتقاديات ، والعبادات واجبة كانت أم مندوبة ، والمعاملات والأخلاقيات ، والجنائيات ، والسياسات ، والمعاهدات وغيرها .

و« **سنة الخلفاء الراشدين المهديين** » .

السنة : هي الطريقة أيضًا ، والخلفاء الراشدون : هم السادة الأخيار أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي رضوان الله عليهم أجمعين .

والراشد : اسم فاعل من رشد يرشد ، من باب : فرح يفرح ، ورشد – بفتح الشين – يرشد – بضم الشين – من باب : نصر ينصر ، رشدًا ورشدًا ورشادًا ، والرشد ضد الغي ، والرشد : الاستقامة على الدين ، والالتزام بتكاليفه .

و« المهديين » جمع مهدي ، يقال : هداه ، يهديه فهو مهدي ، والله هاديه ، والمهدي : هو الذي هداه الله ، وأوصله إلى الحق ، ووفقه إلى الدوام عليه .

و« النواجذ » جمع ناجذ ، وهي الأضراس التي بعد الأنياب ، وهذا مثل لشدة الاستمساك بالأمر ، والحرص عليه ، لأن العض بالنواجذ يلزم منه العض بجميع الأسنان ، أو بمعظمها على الأقل .

« وإياكم ومحدثات الأمور » هذا تحذير من الوقوع في البدع المضلة . و« المحدثات » : جمع محدثة ، وهي البدعة ، والبدعة : هي كل ما استحدث وليس لها أصل ودليل في الشرع ، من كتاب أو سنة أو إجماع أو قياس ، أما ما يكون لها أصل في الشرع فلا تعتبر بدعة ، فكتابة القرآن في صحف مجموعة في عهد الصديق رضي الله عنه والمصاحف في عهد عثمان رضي الله عنه لا يعتبران بدعة ؛ لأن لهما أصل في الدين ، وهو وجوب المحافظة على القرآن الكريم ، وما أدى إلى الواجب فهو واجب ، وكذلك نقط المصاحف وشكلها لصيانة القرآن من اللحن ، والتحريف لا يعتبران بدعة أيضًا بل هما من الأمور الواجبة .

« **وكل محدثة بدعة** » : وما دمنا عرفنا البدعة بأنه ما ليس لها دليل ، ولا أصل فلزم أن تكون كل محدثة بدعة ، وأما ما له أصل في الدين فهو بمعزل عن البدعة والعلماء المحققون على هذا ، وعليه فلا يقسمون البدعة إلى الأحكام الخمسة ، وأما الذين قسموا البدعة إلى الأحكام الخمسة فهم يريدون بالبدعة كل ما استحدث سواء أكان لها أصل في الدين أم ليس لها ، وعند التحقيق نجد أن الخلاف لفظي ، وليس حقيقيًا ، وأنه اختلفت العبارات لاختلاف الاعتبارات .

« **وكل بدعة ضلالة** » : وحق للبدعة أن تكون ضلالة ؛ لأن ما ليس مشروعًا ولا دليل له في الشرع يعتبر ضلالة ، إذ ليس بعد الحق المشروع إلا الضلالة ، ونعوذ بالله من الضلالة والعمل بها ، وفي الحديث الصحيح المتفق عليه عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » ، وفي رواية للإمام مسلم : « من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد » ، يعني مردود عليه ، وغير مقبول لمخالفته لسنة رسول الله ﷺ وشرعه .

ويؤخذ من الحديث الأحكام والآداب الآتية :

* وجوب الاستمساك بسنة رسول الله ﷺ وطريقته وهديه ، وهي شاملة لما ثبت

بالقرآن الكريم الذي هو أصل الدين ، ومنبع الصراط المستقيم ، ولما ثبت بالسنة والأحاديث ، التي تعتبر الأصل الثاني من أصول التشريع في الإسلام ، والاعتصام بها في كل شأن من شئون ديننا ودنيانا .

* وجوب السمع والطاعة لمن تولى أمور المسلمين وإن كان عبدًا حبشيًا كأن رأسه زبيبة كما في الأحاديث الأخرى ، ما دام مطيعًا لله ، قائمًا بحقوقه وحقوق الرعية ، التي شرعها الإسلام ، فإن عصى الله أو أمر بشيء فيه معصية الله فلا طاعة له ، لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، وفي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري في صحيحه قول رسول الله ﷺ : « إنما الطاعة في المعروف » .

وقد كان الشارع الحكيم حكيمًا غاية الحكمة حينما أمر بالسمع والطاعة للأمراء ؛ لأننا لو فتحنا باب المخالفة والمحادة والمحاربة لأية مخالفة تبدر من الولاة ، لأصبحت حياة المسلمين حروبًا متواصلة ، وفي ذلك فتنة في الأرض وفساد كبير ، وأي والٍ لا يمكن أن يرضي جميع الرعية ؛ لأن الكثرة الكاثرة من المسلمين تتحكم فيهم الأهواء والشهوات النفسية ، وصدق الله : ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة : ٥٨] .

إن سنة الخلفاء الراشدين الأربعة كسنة رسول الله ﷺ ، وهذه شهادة لهم ، وتزكية بأنهم على الحق ، ولا يتطرق لأعمالهم الابتداع وأنهم متبعون ، وليسوا بمبتدعين ، ونعوذ بالله أن يطعن فيهم طاعن أو يحكم عليهم بالعصيان أو الكفر زنديق ملحد ، بعد شهادة الله تبارك وتعالى لهم في غير ما آية ، وشهادة رسول الله ﷺ لهم كما سمعت .

إن الخير كل الخير في الاتباع :

اتباع ما كان عليه رسول الله ﷺ ، وما كان عليه الصحابة الكرام ، ولا سيما الخلفاء الراشدون الأربعة .

والشر كل الشر في الابتداع : والبدعة أحب إلى الشيطان من كذا وكذا معصية ؛ لأن المبتدع يفعل البدعة وهو يعتقد حسنها ، والتقرب إلى الله بها أما العاصي فهو يفعل المعصية ، وهو يعلم أنها معصية ، نسأل الله تبارك وتعالى أن يجعلنا من المتبعين ، ونعوذ بالله من أن نكون من المبتدعين .

[١١] ترغيب الشباب في الزواج[1]

روى الإمام البخاري في صحيحه بسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : كنا مع النبي ﷺ شبابًا لا نجد شيئًا فقال لنا رسول الله ﷺ : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ؛ فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » .

صحيح البخاري – كتاب النكاح – باب من لم يستطع الباءة فعليه بالصوم .

تخريج الحديث :

هذا الحديث رواه الإمام مسلم أيضًا في صحيحه ، فهو متفق عليه (كتاب النكاح – باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ، ووجد مئونة ..) .

وفي بعض روايات الإمام مسلم بزيادة في آخره ، وهي : « فلم ألبث أن تزوجت » .

الشرح والبيان

راوي هذا الحديث هو عبد الله بن مسعود ، فمن يا ترى يكون ابن مسعود ؟

هو الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود بن غافل ينتهي نسبه إلى هذيل ، وأمه هي أم عبد بنت سواء ، وهي هذلية أيضًا .

وهو من السابقين الأولين إلى الإسلام ، وكذلك أسلمت أمه قديمًا وكانا كثيرًا ما يغشيان بيوت أزواج النبي ﷺ للخدمة وقضاء الحاجات حتى كان يظن من يراهما أنهما من آل بيت الرسول ﷺ .

وابن مسعود – على ضآلة جسمه ، وضعف عصبيته – هو أول من جهر بالقرآن في مجامع صناديد أهل الشرك ، وقد آذوه غاية الأذى ، ولكنه لم يعبأ بالإيذاء ، وقال للنبي وأصحابه : لئن شئتم لأغادينهم بها – يعني لأقرأن عليهم سورة الرحمن في الغد ولكنهم قالوا له : حسبك ما فعلت ، وهذا يدل على أنه كان يحمل قلبًا مؤمنًا حقًا ، لا يرهب

(١) مجلة الوعي الإسلامي – العدد ١٩٨ جمادى الآخرة سنة ١٤٠١هـ .

أحدًا من زعماء الشرك ، ويستعذب الأذى والهوان في سبيل الله وفي سبيل رسوله صاحب الدعوة ﷺ ، وهذا الضعيف في جسمه ، القوي في إيمانه هو الذي أجهز على فرعون هذه الأمة أبي جهل - لعنه الله - وعلاه وهو في سكرات الموت ، واحتز رأسه وهو يقول له : لقد ارتقيت مرتقى صعبًا يا رويعي الغنم !! وهكذا لم يتخل عن فرعونيته حتى وهو مجندل على الأرض خاسئ ذليل حقير .

وكان كثير الملازمة لرسول الله ﷺ وهو صاحب السواك والمطهرة والوساد والنعلين يحملهما في ساعديه إذا خلعهما النبي ﷺ ، ويُلْبِسُهُمَا إياه إذ أراد السير وهو يدل على مبلغ حب الصحابة للرسول وتكريمهم له .

وكان من أحفظ الناس للقرآن وقد عده النبي ﷺ أحد أربعة ممن يؤخذ منهم القرآن ، كما كان من أعلم الناس بعلوم القرآن ولا سيما المكي والمدني وأسباب النزول ، رُوِي ذلك في الأحاديث الصحاح كما كان من أحفظ الصحابة لحديث رسول الله ﷺ ، له في الصحيحن وغيرهما أحاديث كثيرة وبعد هذه الحياة الحافلة بالصحبة والجهاد والعلم ونشره كانت وفاته سنة اثنتين وثلاثين للهجرة فرضي الله عنه وأرضاه .

قول ابن مسعود : « كنا مع النبي ﷺ شبابًا لا نجد شيئًا » .

المراد بالمعية هنا المصاحبة على الهدى والخير ، والحق ، والبر ، والتعاون على نشر الدعوة إلى الله وإلى الإسلام و« شبابًا » جمع شاب ، وغرضه : هو ومن كان معه ممن هم على شاكلته من شباب الإسلام « لا نجد شيئًا » يعني نتزوج به ، فقال لهم النبي : « يا معشر الشباب ... » .

المعشر هم الجماعة الذين يشملهم وصف ما ، يقال للشباب معشر ، وللأنبياء معشر وللعلماء معشر ، وهكذا . والشباب : جمع شاب ، ويجمع أيضًا على شببة - بفتح الشين والباءين الموحدتين - وشبان - بضم الشين وفتح الباء المشددة .

والشاب : هو من حين البلوغ إلى سن الثلاثين ، وقيل : إلى الثانية والثلاثين ، ومن الثلاثين إلى الأربعين يقال له : كهل وما زاد على الأربعين يقال له شيخ ، وهذا في عرف اللغة العربية الشريفة وأما في غير اللغة فللناس فيه أعراف أخرى ، فقد يُطلق على الشاب

أو الكهل إذا كان من أهل الدين والعلم والمنزلة في قومه . وخص الشباب بالخطاب ، لأن الغالب وجود القوة الدافعة لهم إلى النكاح فيهم بخلاف الكهول والشيوخ . وإن كان هذا المعنى معتبرًا إذا وجد الداعي إلى الزواج في الكهول والشيوخ أيضًا .

« من استطاع منكم الباءة فليتزوج » .

الباءة – بالباء الموحدة بعدها همزة ، آخره تاء تأنيث – ويقال أيضًا : الباه – بالمد بلا همز – ويقال أيضًا : الباء – بمد الباء وبهمزة بدون هاء – ورابع اللغات « الباهة » بإبدال الهمزة هاء ، والباءة مأخوذة في اللغة من الباءة وهي المنزل ومنه مباءة الإبل ، وهي مواطنها ، وقيل لعقد النكاح باءة لأن عادة العرب أن من تزوج امرأة بنى لها منزلًا .

وقد اختلف العلماء في المراد بالباءة على قولين :

الأول :أن المراد بالباءة مؤن النكاح من مهر ، ونفقة وإسكان ونحوها وعلى هذا يكون المعنى : من استطاع منكم يا معشر الشباب مؤن النكاح فليتزوج ، ومن لم يستطع مؤن النكاح ومستلزماته فلا يتزوج وعليه بالصوم فإن الصوم يضعف الشهوة ويحد من سلطانها ويكفكف من غلوائها .

الثاني :ومنهم من قال ، المراد بالباءة القدرة على المباشرة ..والقيام بحقوق الزوجة بعد الزواج ، وقد نوقش هذا القول بأنه غير مستقيم في المعنى ، لأن من ليست له قدرة على المباشرة الزوجية ليس في حاجة إلى الصوم ليحول بينه وبين الاستجابة للشهوة ، والعمل بمقتضاها وإلا كان الصوم غير مفيد ولا ناجع لأنه وعدمه سيان بالنسبة لمن ليست له قدرة .

والذي عليه المحققون : إن المراد بالباءة مجموع الأمرين معًا : القدرة على المباشرة ، والقدرة على مؤن النكاح ومتطلباته ، وبذلك يستقيم معنى الحديث ويكون المعنى ومن لم يستطع فعليه بالصوم لكسر الشهوة وإضعاف سلطانها على النفس وليس من شك في أن الصوم يفيد الشباب الذي لم تتوافر لهم وسائل النكاح ، وفي الوقت ذاته هو عبادة مشروعة وبذلك يستفيد من الصوم فائدتين ؛ الأولى : تهذيب النفس وتأديبها والحيلولة بينها وبين الوقوع في المعصية بسبب عدم الزواج ، والثانية : كونها عبادة تقرب صاحبها إلى الله وتغلب الجانب الروحي في الإنسان على الجانب المادي

فانظروا – يا رعاكم الله – إلى تشريعات الإسلام الحكيمة !! وقد علل الرسول الكريم أمر الشباب بالتزوج بقوله : « فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج » .

وأغض وأحصن فعلا تفضيل والمعنى أن التزوج أشد غضًا للبصر عن الامتداد إلى الحرمات وأشد إحصانًا للمرء من الوقوع في الفاحشة ، وليس من شك في إن المتزوج عنده ما يحمله على الغض وهي : زوجته ، فإذا كان ولا بد فلينظر إليها وإن تاقت نفسه إلى النساء فعنده زوجته يقضي معها حاجته ، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا حينما قال : « إذا رأى أحدكم امرأة حسناء ، فأعجبته فليأت أهله –فإن البضع واحد – ومعها مثل ما معها » رواه الخطيب بلفظه ومسلم بمعناه . ولن تجدوا – وايم الحق – أنجع من هذا الدواء النبوي الكريم لمثل هذه الحالة ، وقد بلغ الفصيح البليغ ﷺ الغاية في الأدب القولي والأدب النفسي بهذا الحديث الموجز البليغ الذي تنطق به العذراء في خدرها فلا يخدش حياءها ، ولا تجد حرجًا فيما تفوه به وهي قدرة في التعبير انفرد به النبي المعلم المربي المؤدب ﷺ .

قوله ﷺ : « ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » وفي رواية الطبراني : « ومن لم يقدر على ذلك فعليه بالصوم » وهما بمعنى واحد وقد قال العلماء : إن في هذا الأسلوب النبوي البليغ « فعليه بالصوم » ، إغراء للغائب وهو مما اختلف فيه علماء اللغة ، وعلماء النحو ، لأن الإغراء إنما يكون للحاضر لا للغائب .

والحق أن هذا الأسلوب الفصيح البليغ ليس من إغراء الغائب ، وإنما هو من إغراء المخاطبين الحاضرين الذين خاطبهم – ﷺ – بقوله : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج » فالهاء في قوله : « فعليه » ليست للغائب وإنما هي لحاضر ولكنه مبهم ، إذ لا يصح خطابه بالكاف فيقال : « فعليك بالصوم » فإن من يختار الصوم منهم مبهم غير معروف ، فلذلك حسن الإتيان به على صورة الغائب ومثل ذلك من الكلام المعجز المبين قوله تعالى : ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ بعد قوله عز شأنه : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ [البقرة : ١٧٨] . فلله در كلام الله ، وكلام رسوله ﷺ !!!

« فإنه له وجاء » هذا الكلام من التشبيه البليغ يعني فإنه له كالوجاء والوجاء – بكسر

الواو – هو في الأصل بمعنى الطعن ، يقال : وجأه بالسيف إذا طعنه ، والمراد به هنا : رض الأنثيين حتى تنقطع العروق التي توصل المادة المنوية وبذلك يفقد الحيوان شهوته فيسمن جسده ويطيب لحمه ، وأما الخصاء فهو شل الأنثيين وإخراجهما فالوجاء ليس هو الخصاء ، ومن فسره به فقد تساهل ، ويزيد من روعة هذا التشبيه البليغ أن المخاطبين كانوا يعرفون الوجاء والخصاء غاية المعرفة ، ومراعاة أحوال المخاطبين عماد البلاغة في اللغة العربية الشريفة لغة القرآن والسنة .

ما يؤخذ من الحديث من الأحكام والآداب والتوجيهات :

(١) أن الزواج سنة من سنن الفطرة ، وأنه في حق الشاب أو الرجل القادرين الموسرين اللذين ليست عندهما موانع شرعية ، ويتيقن كل منهما أو يغلب على ظنه غلبة الوقوع في الفاحشة : فرض أو واجب ، وعلى الشاب الذي يسافر إلى البلاد التي تعم فيها الفاحشة ويتسهل له الوقوع فيها ، أن يتزوج قبل أن يسافر ليحصن نفسه من الوقوع في الفاحشة .

وفي حق من يخشى على نفسه التعرض للفتنة ولا يتحقق ذلك ولا يغلب على ظنه : مسنون مستحب لقوله ﷺ : « فليتزوج » وأدنى ما يحمل عليه الاستحباب والسنية ، وفي حق من يعلم من نفسه عدم القدرة على المباشرة أو عدم القدرة على مؤن النكاح والنفقة : حرام ، وفي حق من يترجح عنده عدم القدرة أو عدم القيام بحقوق الزوجية : مكروه وفي حق من يستوي في حقه الزواج وعدمه أن كان تقيًا أو مشتغلًا بعلم أو تأليف شغله عن الوقوع في الحرام ، بل وعن التفكير فيه : هو مباح ، ومن ثَمَّ نرى أنه تعتريه الأحكام الخمسة .

(٢) الوجاء ، والخصاء لا يجوز بالنسبة للإنسان ، لما يترتب عليه من قطع النسل الذي يترتب عليه خراب الأرض ، وعدم عمارتها ، وكذلك كل ما كان في معناهما كالعمليات التي يجرونها الآن لتعقيم الرجال ، أو لتعقيم النساء ، فكل هذا حرام في الإسلام وفي حكم الله وشرعه ، وقد يسألني سائل فيقول : وما رأيك في تناول الدواء لهذا الغرض ؟

والجواب : إن الدواء قسمان دواء يقطع الشهوة ويقضي عليها وهذا لا يجوز ودواء

يسكن الشهوة ويضعفها ولا يقطعها ، وهذا يجوز لأنه في معنى الصوم الذي يضعف الشهوة ويكسرها ولا يقطعها .

(٣) وأما الخصاء أو الوجاء للحيوان فالحيوان إما أن يكون غير مأكول اللحم ، أو مأكول اللحم أما الأول فلا يجوز حتى لا ينقرض النوع والله تبارك وتعالى لم يخلق شيئًا في هذه الدنيا إلا لحكمة ومصلحة ، وأما مأكول اللحم فيجوز إخصاؤه في صغره رغبة في السمن وطيب اللحم ، ولا يجوز في كبره لما فيه من تعذيب الحيوان ، والإسلام رحيم بالحيوان ، كما هو رحيم بالإنسان ، وفي الحديث الصحيح : « إذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة » والقتلة – بكسر القاف – اسم هيئة والمراد القتل الحق كالقصاص والذبحة – بكسر الذال – اسم هيئة من الذبح – والمراد الذبح المشروع – ومما ينبغي أن يعلم أن الخصاء لا يكون على سبيل التعميم وإلا لانقطع نسل الحيوان وحينئذ فلا يجوز .

(٤) استدل بعض العلماء بهذا الحديث على تحريم الاستمناء لأنه ﷺ أرشد عند العجز عن التزوج إلى الصوم فلو كان الاستمناء مباحًا لكان الإرشاد إليه أسهل وهو استدلال حسن وقد أباحه بعض العلماء لأجل تسكين الشهوة وعدم الوقوع في الفاحشة ، والحق هو عدم الإباحة وقد ذكر بعض الأطباء الحذاق أن الاستمناء له أضرار كثيرة وقد يفضي إلى أمراض خبيثة كالأمراض الصدرية وكثيرًا ما يؤدي إلى أن يفقد الشباب القدرة على المباشرة بعد الزواج ، ومن قواعد الشريعة المؤكدة أنه « لا ضرر ولا ضرار » ولم استدل بالحديث المشهور « ناكح يده ملعون » لأنه حديث ضعيف لا يقوم به الاحتجاج .

(٥) أن الرهبانية في الإسلام غير مشروعة والرهبنة هي ترك التزوج واعتزال الدنيا وملازمة الصوامع والشريعة الإسلامية هي الشريعة السمحة الموائمة للفطر ، وطبائع البشر ، ولو ترهب الناس جميعًا فمن الذي سيعمر الأرض ؟ ! وفي الحديث الذي رواه الطبراني بسنده من حديث سعد بن أبي وقاص قول رسول الله ﷺ : « إن الله أبدلنا بالرهبانية الحنيفية السمحة » ، وأما الحديث المشهور على الألسنة « لا رهبانية في الإسلام » فلا أصل له ولم يثبت وإنما الثابت هو حديث الطبراني فليعلم ذلك من

يزعمون أنه حديث .

(٦) التزوج لأجل إكثار النسل أمر مشروع ومرغوب فيه في الإسلام وقد ورد في ذلك أحاديث كثيرة منها حديث : « تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم يوم القيامة » وهو حديث أخرجه ابن حبان ، وقال الحافظ ابن حجر : إنه حديث صحيح ومنها ما رواه البيهقي من حديث أبي أمامة : « تزوجوا فإني مكاثر بكم الأمم ولا تكونوا كرهبانية النصارى » والدعوة إلى تحديد النسل وتقليله بين المسلمين دعوة في أصلها استعمارية يقصد بها الحد من هذه الكثرة الكاثرة في الأمة الإسلامية ثم تطورت فلبست ثوب الاقتصاد وحماية العالم من المجاعة وحصل بها تلبيس على كثير من المسلمين وليسئل هؤلاء الذين يدعون إلى هذه الدعوة الفاشلة أنفسهم : هل استنفدوا المنافع والوسائل التي أودعها الله في الأرض - وما أكثرها - وهي تكفي لكل من في الأرض وأكثر منهم ؟ إن كثيرًا مما استودع في أرض الله لا يزال بكرًا لم تمسسه يد مستثمر ، وما استفيد به منها لم يحسن استغلاله ، وما استغل أصبح نهبًا مقسمًا بين المشتغلين والمنتفعين بل الكثير من موارد البلاد الفقيرة المتخلفة اقتصاديًّا إنما ينتفع بها غير أهلها !! أليس كذلك ؟ ! بلى والله !!

(٧) إن على البلاد الإسلامية والعربية الغنية في الثروات والموارد أن تعمل ما استطاعت على تكثير النسل بين أهلها حتى يوجد من أبنائها من يدافعون عنها في هذا العالم الذي لا يخضع إلا للقوة ، إن الموارد الكثيرة من الرجال خير من الموارد من المال ، والرجال هم الذين يأتون بالمال ، والمال عاجز عن توفير الرجال وصدق الله : ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾ [فصلت : ٩، ١٠] .

* * *

الفهــرس

الموضوع	الصفحة
تقديم أ . د / موسى شاهين لاشين	٥
المقدمة	٧
[١] حول الأحاديث النبوية :	١٢
(1) معجزة نبوية	١٢
[٢] من دعائم النبوة الخاتمة :	١٦
(1) نسب النبي الشريف الزكي	١٦
(2) لكل نبي معجزة ... والقرآن معجزة المعجزات	٢٤
(3) الأسوة الحسنة	٣١
(4) خاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ	٣٧
[٣] أخلاق النبي ﷺ :	٤٣
(1) من أخلاق النبي ﷺ	٤٣
(2) الدعوة إلى القصد في المعيشة والنفقة	٤٩
[٤] من حديث الهجرة النبوية :	٥٤
(1) حول الهجرة النبوية	٥٤
(2) من حديث الهجرة	٦٠
(3) الإخاء بين المهاجرين والأنصار	٦٧
(4) من مآثر الأنصار رضوان الله عليهم	٧٤
[٥] من هدي السنة في النبوءة الصادقة :	٧٩
(1) نبوءة صادقة	٧٩
(2) من النبوءات النبوية الصادقة	٨٦
[٦] من هدي السنة في بناء الأمة :	٩١
(1) الرضا بحكم الله ورسوله	٩١
(2) الرضا بشرائع الإسلام من الإيمان	١٠٠
(3) الحث على تآخي المسلمين وتناصرهم	١٠٦
(4) من حقوق الإنسان	١١١
(5) تضامن الأمة في الإصلاح ودرء الفساد	١١٧

الموضوع | الصفحة

(6) إنقاذ سفينة المجتمع ١٢٤
(7) يقظة المؤمن وفطنته [١] ١٢٨
(8) يقظة المؤمن وفطنته [٢] ١٣٣
[٧] **الجهاد طريق العز والتمكين :** ١٣٧
(1) فضل الجهاد في الإسلام ١٣٧
(2) من صور الجهاد والاستشهاد في الإسلام ١٤٢
(3) وجوب النفير إلى الجهاد إذا ما دعا الإمام ١٤٨
(4) فضل الشهادة والشهداء في سبيل الله ١٥٥
(5) الشهيد الذي لم يجدوا له كفنًا يكفيه ١٦٠
(6) من جهاد النساء في الإسلام ١٦٦
[٨] **من هدي السنة في تزكية النفس :** ١٧٢
(1) من جوامع كلمه ﷺ ١٧٢
(2) من جوامع كلمه ﷺ ١٧٦
(3) من جوامع كلمه ﷺ ١٨٠
(4) من جوامع كلمه ﷺ : « الثلاث المنجيات » ١٨٤
(5) من جوامع كلمه ﷺ : « الثلاث الكفارات » ١٨٨
(6) من جوامع كلمه ﷺ : « الثلاث الدرجات » ١٩٢
[٩] **صور مشرقة من البلاغة النبوية :** ١٩٦
(1) فضل الإنفاق وجزاؤه ١٩٦
(2) حديث إياكم والجلوس بالطرقات ٢٠٢
(3) حديث عُرِضَتْ عليَّ الأمم ٢١٠
(4) حديث أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم ٢١٧
(5) حديث تنكح المرأة لأربع ٢٢٣
[١٠] **موعظـــة بليغـــة** ٢٣٠
(1) من وحي النبوة ٢٣٠
[١١] **ترغيب الشباب في الزواج** ٢٣٦
الفهرس ٢٤٣